
احمد حسين
تاريخ الانسانية
دار القلم

تاريخ الإنسانية

الغلاف بريشة الفنان بيكار ١٩٦٥

احمد حسين

تاريخ الإنسانية

الناشر





دار القلم

إهداء

• إلى أخي الشهيد الدكتور مصطفى الوكيل ، الذى وهب حياته من أجل خير البشرية .

• وإلى أخي الدكتور محمــد حلمى مراد « مــد الله فى عمره » والذى يعيش ويحيا بمــا يقدمه من خــير لصالح الإنسانية .

الفصل الأول

أين نشأ الانسان ـ آسيا مهد الحضارة ـ أتكون الهند هى موطن الانسان الأول ـ انسان ما قبل التاريخ ـ مدى اسهامه فى حضارة البشر ـ اللغة ـ صنع الآلات ـ النار ـ الزراعة

★★

أين نشأ الإنسان :

لعل أول سؤال يطرأ على الذهن عندما نشرع فى التحدث عن تاريخ الإنسانية ، هو « ترى أين نشأ الإنسان الأول ؟ » وقد اختلف الباحثون من الأوروبيين فى الإجابة عن هذا السؤال ، فقال بعضهم إنه لم يكن ثمة إنسان أول واحد ، بل كان هناك عدة أصول متفرقة للإنسان ولذلك فقد نشأ فى أكثر من مكان ، ولكن أغلبية البشر والباحثين يقررون أن الإنسان يعود إلى أصل واحد مشترك[1] ، ويذهب بعض القائلين بهذا الرأى، إلى أن آسيا الوسطى

---

(١) عقدت هيئة اليونسكو ، مؤتمراً دولياً من علماء الحياة والأجناس ، فأصدروا القرار التالى بالإجماع :

كل الكائنات البشرية التى تعيش اليوم تنتمى إلى نوع واحد ، هو النوع البشرى ، وكلها ترجع إلى سلالة مشتركة وأصل واحد .

(رسالة اليونسكو عدد ٤٧ لعام ١٩٦٥)

وأصحاب الرسالات السماوية يطلقون على هذا الأصل الواحد المشترك اسمى آدم وحواء .

« وقد كانت فى القديم أكثر حضارة مما هى عليه الآن » هى مهد الإنسان الأول ، على أن هذا الرأى قد أقيم على فروض غير صحيحة لم يعد يؤخذ بها .

والذين اعتبروا الإنسان ليس إلا مرحلة تطورية عن القردة العليا ، يميلون إلى الظن بأن التفرع الإنسانى من الجذع البشرى إنما حدث فى مكان ما فى المنطقة التى تضم غرب أوربا والنصف الشمالى من أفريقيا وجنوب آسيا ، مع رجحان كفة أفريقيا وآسيا إلى حد ما ، بدون أن يوجد دليل واحد حقيقى يؤدى إلى رأى قاطع(١).

وقد حاول بعض الباحثين الأوربيين أن يجعلوا من غرب أوربا ومن فرنسا وأسبانيا بالذات ، موطن الإنسان الحضارى الأول ، حيث عثروا على عظام وأسلحة وحفريات على العظام والصخور ، ورسوم فى الكهوف وعلى بعض الصخور يرجع تاريخها إلى ٣٠ ألف سنة(٢) .

وقد اعتبر هذا الإنسان المتحضر الأول ، سليل أسلاف أوربيين أكثر حيوانية وأقل إنسانية أطلق عليهم اسم « أناس نياندرتال Neanderthal » نسبة إلى اسم المكان الذى عثروا عليهم فيه .

ثم غمر أوربا جنس آخر ، أوفر ذكاء وأوسع حيلة وأكثر

---

(١) وليم لانجر — موسوعة تاريخ العالم — جزء ١ ص •

(٢) H. G. Wells. A Short History of the World. P. 43.

تعاونا ، استطاع أن يقتلع النياندرتاليين من كهوفهم وأن يزاحمهم فى معاشهم ويدفعهم نحو الشمال .

وقيل إن هؤلاء الوافدين قد جاءوا من الجنوب ، وقيل جاءوا من الشرق، دون أن يعرف موطنهم الأصلى على وجه التحديد ، وقد أطلق على هؤلاء الوافدين إسم « كروما جنون Cro - Magnon » نسبة إلى الموقع الذى عثروا على آثارهم فيه . ويؤكد علماء الحفريات وتاريخ الإنسان ، أن هؤلاء الكروماجنيين ، هم أول بشر حقيقيين يبدأ بهم تاريخ الإنسان بمعناه الذى نفهمه ، وأن تاريخ هذا الإنسان الأول الحقيقى يرجع إلى خمس وثلاثين ألف سنة[1] .

والذى يستخلص من المباحث الكثيرة الغزيرة فى هذا الصدد، أن منشأ الإنسان الحضارى الأول لا يزال موضع حدس وتخمين وفروض ونظريات ، مع محاولة مستمرة من جانب الباحثين الأوربيين أن يؤكدوا دائما فكرة أو نظرية أن تكون أوربا ، وغربها بصفة خاصة ، موطن الإنسان الأول .

ولعل ذلك يظهر لنا كيف أن المباحث العلمية تتأثر دائما بالنزعة العاطفية وبرغبة كل قوم فى الإستعلاء والفخر ، مهما ادعوا غير ذلك ، ومهما تحدثوا عن التجرد العلمى ونزاهة البحث ، فليس هناك ما يتصادم مع الحقائق العلمية الثابتة من مجرد التلويح بأن

---

(١) المرجع السابق — ص ٤٠ .

يكون شرق أوربا ، أو غربها ، أو حتى جنوبها هو مهد الإنسان الأول . فالجيولوجيون يقررون أن كوكبنا الأرضى قد غشيته موجات من العصور الجليدية وأن آخر عصر جليدى محقق غشى أوربا وشمال آسيا كان منذ خمسين ألف سنة[1] . فليس هناك ما هو أمعن من التعسف فى التخيل والفرض ، أن نتصور حياة الإنسان الأول تنشأ وتترعرع وسط الجليد، حيث تموت جميع صنوف الحياة. وأبسط محاولة لمعرفة نشأة الحياة فضلا عن نشأة الإنسان يجب أن تلتمس فى المناطق الحارة أو على الأقل الدافئة ، حيث تنمو النباتات وتزدهر بطريقة طبيعية تلقائية ، وحيث لا يبذل الكائن — حيوانا كان أو إنسانا — أى جهد لتحصيل طعامه إلا أن يمد يده إلى ثمرات الطبيعة ليقتطفها ، وذلك لم يكن يتوافر منذ الثلاثين ألف أو الخمسين ألف سنة التى يحددونها كنقطة ابتداء للإنسان الحقيقى الأول ، كما لا يتوافر اليوم إلا بالقرب من خط الإستواء ، حيث تنمو الفواكه والحاصلات الأخرى طبيعيا بدون جهد إنسانى.

أما الاحتجاج بالعثور على بقايا أدوات من العصور الحجرية القديمة أو الوسطى والحديثة فى أوربا ، فلم تعد له أدنى قيمة فى الوقت الحاضر ، بعد أن عثر على مثل هذه الآثار فى كل مكان على سطح الأرض المأهولة بالسكان حاليا ، وقد وجدت بقايا

---

(١) المرجع السابق — ص ٣٦ .

ما يطلقون عليه شبه الإنسان ، أو الإنسان الحقيقى ، فى روديسيا « جنوب أفريقيا » وفى جاوه « أندونيسيا » وفى بكين «الصين» .

فرض جديد نسوقه :

وعندنا أن المنطق من ناحية ، والمشاهد والملاحظ من ناحية أخرى ، والإستهداء فوق ذلك كله بأماكن ازدهار الحضارة الإنسانية ، كل ذلك يشير إلى أن موطن الإنسان الأول يمكن أن يكون فى جنوب آسيا عامة، وفى جنوب الهند على وجه التخصيص.

فقد أشرنا من قبل إلى أنه يجب التماس موطن الحياة الإنسانية الأولى حيث الحرارة لاالبرودة ، وحيث النماء والازدهار لا الجدب والقحط ، وهذا يصل بنا إلى خط الاستواء أو أقرب ما نكون منه ، فإلى هذه المنطقة يجب أن يتجه الذهن البشرى وهو يتلمس الطريق إلى مهد الإنسان الأول .

ونحن نعلم أن خط الاستواء يمر فى وسط قارة أفريقيا. ويمر قريبا من جنوب آسيا وخلال الملايو وجزر الهند الشرقية بالذات، ثم هو يمر فى شمال استراليا وفى شمال أمريكا الجنوبية . وهنا يقفزالسؤال ، لماذا إذن خصصنا جنوب آسيا دون سائر هذه البقاع التى تصلح كلها لحياة الإنسان البدائى؟ هنا ويبدأ دور الملاحظة والمشاهدة والعوامل الجغرافية الأخرى التى ترجح جانب الهند على سائر هذه البقاع .

فأمريكا الجنوبية والشمالية معا يفصلهما معا عن بقية القارات محيطان كبيران فلا تصلحان لتكونا موطنا يتفرع منه الجنس البشرى فى سائر الاتجاهات . ويعزز هذا الرأى أنهما عندما اكتشفتا فى القرن الخامس عشر كان عدد السكان بهما قليلا نسبيا مما يؤكد حداثة عهد الإنسان بهما .

وما يصدق على الأمريكتين يصدق بالأكثر على استراليا التى لا تزال حتى الآن أقل القارات سكانا. وكذلك الشأن بالنسبة لأفريقيا التى لا يزيد عدد سكانها فى الوقت الحاضر عن ٢٣٠ مليون نسمة(١) بالرغم من أن مساحتها لا تقل كثيرا عن مساحة آسيا . وإذ كنا قد استبعدنا من قبل أوربا وشمال آسيا لوقوعهما فى منطقة الجليد فى ذلك الوقت . . فلم يبق أمامنا من اليابسة ما يشير إلى صلاحيته ليكون موطن الإنسان الأول الذى تفرع منه إلى سائر أرجاء الأرض سوى جنوب آسيا . ويؤكد هذا النظر أن أكثر من نصف سكان العالم يتكدسون فى هذا الجزء من العالم « الصين والهند الصينية والملايو وأندونيسيا والهند » وهذا الاكتظاظ غير العادى بالسكان « بالرغم من العوامل المعاكسة من فقر والتخلف النسبى فى سائر الاتجاهات » هو الدليل على صلاحية هذه البيئة للحياة ، وتوطن الحياة بها منذ أقدم العصور .

---

(١) إحصاءات هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٦٠ :

والحق أن قارة آسيا هى ما يجب أن يعد بحق جذع الأرض الرئيسى الأكبر ، فأوربا ليست إلا امتـدادا لشمالها الغربى ، والجيولوجيون متفقون على أن أفريقيا كانت متصلة بها قبل أن يحدث هذا الشرخ الكبير الذى أنتج البحر الأحمر(١) ، كما أن آسيا كانت متصلة بالأمريكتين عبر ما يسمى الآن بمور بهرنج والآراء متفقة على أن سكان الأمريكتين الأوائل قد جاءوا من هذا الطريق على الأرجح .

ومعنى ذلك أن آسيا ، وليس أى مكان آخر ، هى المركز الوسيط الذى انطلق منه الإنسان بحكم القوة المركزية الطاردة إلى أرجاء العالمين .

نشوء الحضارات كلها فى آسيا :

ثم يأتى دور الاستهداء بالحضارات الإنسانية للتدليل على أن آسيا هى موطن الإنسان الأول ، فسائر الحضارات المزدهرة القديمة المتوهجة بالعلوم والمعرفة والفنون والصناعات « كما سوف نرى » قد نشأت كلها وبغير استثناء فى أرجاء آسيا أو على أطرافها وتخومها الشمالية الغربية ، فالصين والهند وفارس وأشوز وبابل وفينيقيا وكلها تقع فى آسيا ، قد كانت موطن الحضارة الإنسانية المشرقة ،

(١) على أية حال فقد ظلت آسيا متصلة اتصالا مباشرا بأفريقيا حتى حفر قناة السويس .

ولا يجب أن نتردد فى اعتبار مصر القديمة والإغريق القديمة كذلك أجزاء حضارية من آسيا فهى تقع على تخومها أو ملاصقة لها .

وهكذا تتضافر الأدلة والشواهد والاستقراء التاريخى على تحديد آسيا كوطن للجنس البشرى الأول . وهذه مسألة يكاد يجمع عليها العلماء والباحثون .

والهند على وجه التحديد :

والآن ننتقل خطوة ثانية ، فنتساءل لماذا اخترنا الهند على وجه التخصيص لتكون مهد الجنس البشرى ، لماذا لا نقول كما يقول فريق كبير من العلماء المختصين بهذه المباحث أن وسط آسيا لا جنوبها هو مهد الجنس البشرى . أى للمنطقة التى تشمل التركستان وشمال الهند وشرق فارس وغرب الصين وجنوب القوقاز . واعتراضنا على هذه المنطقة هو ماسقناه من قبل من أننا يجب أن نتلمس موطن الإنسان الأول فى المنطقة الأكثر حرارة ودفئا وحيث لايحتاج الإنسان لبذل كبير جهد لإشباع حاجياته . وذلك لايتوافر إلا قرب خط الاستواء كما قدمنا . . . وحيث لا يزال بقدرة الكثيرين أن يعيشوا فى هذه المناطق عرايا لا يزاولون زراعة أو صناعة متطورة من أى نوع كان . وعلى هذا الأساس يجب أن نتجه صوب الهند ، بل وجنوب الهند بالذات للبحث عن هذا

للموطن الأول ، وما قدمناه من اكتظاظ السكان فى آسيا كقرينة على أنها مهد الإنسان ، ينطبق بصورة أدق على الهند . وإذا كان للقدم جو خاص يوحي به ، وشكل لا يخطئه الناظر ، بل ورائحة وإحساس يثيرهما فى النفس ، فليس هناك مكان آخر يمكن أن يوحى للإنسان ، أى إنسان ، أنه أمام أقدم موطن للجنس البشرى إلا أن يجوس خلال الهند ، ليرى طوفانا من الأجناس والألوان واللغات واللهجات والمعتقدات ، وليرى التناقض فى كل خطوة ، وفى كل لفتة ، ولكى يعجب بل ويذهل لماذا كانت هذه الهند هندا واحدة ، لماذا لم تكن عديدا من الدول والشعوب والقوميات ، ما الذى جمعها ويجمعها إلى بعضها ، أى سر هذا الذى يربط بين أبنائها ؟ .

وعندى أن هذا السر لا يكمن فى شىء قدر كونه فى أنها مهد الإنسان الأول ، فكل شىء فيها يصرخ أنها أقدم من القدم ، وإذا كانت لا تحوى آثارا مبنية منذ عصور أقدم من آثار مصر القديمة فرجع ذلك هو شدة الرطوبة التى تفتت كل شىء وتهدم كل شىء ، بخلاف الحال فى مصر ... حيث الجفاف كان عاملا من أكبر العوامل للإبقاء على آثارها الخالدة(١) .

---

(١) يعزز هذا النظر ، أن أعمال الحفر الحديثة فى الشمال الغربى للهند (أى منطقة السند الجافة نسبيا) قد كشفت عن آثار حضارة عريقة ترجع إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة ق . م .

ومرة أخرى نحن لا نكاد نبعد كثيرا بهذا الذى نقوله على سبيل التخمين والفرض عن النظريات السائدة التى تعتبر الجنس الهندى الآرى ، هو الأصل الذى تفرعت منه أجناس أوربا وكثير من شعوب آسيا بالذات ، وأن اللغة الآرية هى أصل اللغات الأوربية والهندية كلها ، وقد ظن إلى وقت قريب أنها مشتقة من السنسكريتية وهى لغة الهند القديمة ، ثم عدل عن هذا الرأى أخيرا ، وقيل إن الآرية والسنسكريتية كلتيهما مشتق من أصل واحد يعلوهما .

ألا تكون جزيرة سيلان هى هذا الوطن ؟ :

وتنازعنى نفسى وقد وصلت إلى هذا القدر من محاولة تحديد موطن الإنسان الأول وأنا ما زلت أدور فى فلك المباحث العلمية ، أن ألوذ بالأسطورة ما دامت لا تبعد بنا كثيرا عن دائرة العلم بل تقويه وتعززه ، فإن العلم بدوره فى هذه الحالة يرتد إلى الأسطورة فيقويها ويعززها . والعلماء بصفة عامة أصبحوا فى العصور الأخيرة أكثر احتفالا بالأسطورة ودلالتها بعد أن وجدوها فى أكثر الأحيان تحتوى على مادة تاريخية أصيلة ، أو فكرة فلسفية أو علمية.

فى سيلان أسطورة منذ أقدم العصور[1] تقول إن آدم أبا

(١) إن ما نعنيه بالأسطورة هو فكرة إقامة آدم فى سيلان ، لا فى شخص آدم نفسه الذى يمثل الحقيقة فى وجداننا .

البشر كان يعيش فى سيلان ، وقد ترك فوق أعلى جبالها أثر قدمه . وإلى هذا الأثر يحج الناس تعبدا منذا أقدم العصور ، وتقول لنا دائرة المعارف البريطانية إن الحج إلى قمة جبل آدم Adam's Peak هو أهم احتفالات سيلان الدينية . ولقد كان صاحبنا ابن بطوطة أشهر رحالة إسلامى ممن حجوا إلى هذا الأثر فى القرن الرابع عشر الميلادى أى منذ ستة قرون (١).

فإذا كان الاستقراء العلمى يصل بنا إلى أن جنوب آسيا هو موطن الإنسان الأول ، ثم يؤدى الاستقراء بنا إلى جنوب الهند .. فإذا جاءت الأسطورة تحدثنا عن أن أبا البشر كان فى سيلان ، وسيلان قبل أن تكون جزيرة كانت تؤلف جزءاً من جنوب الهند ، فإن الأسطورة تصبح ذات وزن وثقل فى الميزان .

حصة الإنسان الأول من الحضارة الإنسانية :

وأيا ما يكون موطن الإنسان الأول ، وهل بدأ من موطن واحد كما تقول الأديان السماوية ، وكما أعتقد أنا شخصياً ، أو أنه بدأ فى أماكن متعددة ، كما يقول المنادون بتطور الإنسان عن القردة العليا ، وسواء كان موطنه فى سيلان ومنها تفرع إلى سائر

(١) مهذب بن بطوطة — ص ٢١٩ وقد زار زميلنا المعاصر الأستاذ أنيس منصور موضع قدم آدم ، ولكنه قال بأسلوبه الساخر أنه لم يجد بالمكان سوى الكثير من المياه والرطوبة (حول العالم فى ٢٠٠ يوم — ص ١٥٦).

البقاع ، أم فى سيلان والهند وأواسط آسيا وغرب أوربا ، أو فى فرنسا وأسبانيا ، كما يحلو للبعض أن يقول ، فإن الحقيقة التى لا شك فيها أن هذا الإنسان قد نما وتفرع وتكاثر وانتشر فى أرجاء الدنيا سائرا على قدميه فوق اليابسة ، أو محمولا على جذوع الأشجار الطافية فوق الماء إلى الجزر المتناثرة ، وأنه فعل ذلك منذ ثلاثين ألف سنة أو يزيد ، وأنه ترك آثاره فى كل مكان وأورث الإنسان فى العصر الحديث أهم مقومات الحضارة الإنسانية على الإطلاق والتى لم يستطع الإنسان أن يزيد عليها إلا قليلا . . . أو بالأحرى لم يزد عليها شيئاً وإن كان قد تطور بها بما يتفق وحاجاته الجديدة وظروفه الطارئة . وأما هذه المقومات فهى :

١ — اللغـــة .

٢ — صنع الآلات والأدوات .

٣ — إشعال النار .

٤ — استئناس الحيوان واستخدامه لإشباع مختلف حاجات الإنسان .

٥ — زراعة الأرض واستخراج معادنها .

٦ — التدين والاعتقاد كأساس لتنظيم العلاقات البشرية فى أحسن صورة ممكنة .

هذه العناصر الستة من مقومات أى حضارة ، والتى لا تقوم حضارة إلا بها ، هى تراث هذا الإنسان القديم ، إنسان ما قبل التاريخ المكتوب ، إنسان ما قبل عشرة آلاف سنة أو عشرين ألفا أو كائنا ما يكون أقدم تاريخ للإنسان .

إنه دَيْن الإنسان الأول على كل إنسان عاش فى مختلف العصور وفى عصرنا الحديث ، بل وفى العصور المقبلة ، عندما ينطلق الإنسان إلى الكواكب الأخرى ، ويستخدم الطاقة الذرية فى تحقيق أغراضه وأشباع حاجاته ، فهو فى كل ما يفعل أو يبذل من جهد أو يفكر لتحسين أحواله ، لا يمكن أن يخرج عن هذا النطاق الذى شاده الإنسان الأول ، نطاق اللغة والدين والاعتقاد بصفة عامة ، وصناعة الآلات والزراعة ، واستخدام النار والحيوان .

اللغـــة :

فاللغة وهى التى جعلت من الإنسان ، إنساناً يفترق عن بقية الكائنات ، ليست إلا أعظم آلة ذهنية اخترعها الإنسان أو يمكن أن يخترعها فى أى يوم من الأيام ، فهى أداة التخاطب والمعرفة والتفكير ، التى مكنت الإنسان من أن يتعلم ويعلم ويتذكر ويتخيل ويبدع ويبتكر ، فنحن تقوم بهذه العمليات الفكرية

كلها من خلال اللغة ، التى تتألف من كلمات ترمز كل منها لمسمى من المسميات المادية أو المعنوية .

هذه اللغة بكل هذا الجلال والخطر فى حياة الإنسان أى إنسان ، هى واحدة من تراث إنسان ما قبل التاريخ .

صنع الآلات :

وإذا كانت اللغة هى آلة الفكر التى استطاع الإنسان عن طريقها أن يكشف عما فى نفسه ، ويكتشف ما فى نفوس الآخرين ، فإن صناعة الآلات المادية هى ما تلى صناعة اللغة من خطر فى حياة الإنسان . . . فالآلات هى الوسيلة التى سخر بها الإنسان قوى الطبيعة الخارجة عن ذاته لإشباع حاجاته وتطوير حياته .

وليست آلاتنا الحديثة بكل تعقيداتها وقدرتها الفائقة ، إلا امتداداً للآلات التى صنعها إنسان ما قبل التاريخ ، بعد أن تطورت لتشبع حاجات الإنسان التى تطورت بدورها وتعقدت ، ولكن سيبقى الأساس فى كل منها واحداً والنظرية التى قامت عليها واحدة .

المقذوفات :

فعندما قذف الإنسان الأول حجراً بأقصى ما يستطيع من قوة ليلهو ، أو ليصيب به عدوا ، فقد كان يضع الأساس لكل

ما استعمله الإنسان بعد ذلك من قذائف . . . ابتداء من السهم ، حتى حجر المنجنيق ، ثم جلة المدفع والرصاصة ، والصاروخ الذى ينطلق هذه الأيام نحو الفضاء ليدور حول الأرض ، تمهيداً للذهاب إلى الكواكب الأخرى . . . فكل هذه قذائف تدفعها طاقة من نوع ما . . . وقد بدأت كما رأينا بطاقة الإنسان الكائنة فيه .

المطارق والقواطع والروافع والعجلات والأجسام الطافية :

وعندما فكر الإنسان الأول فى استخدام أول حجر كمطرقة يطرق به جسما آخر ليحطمه ، أو يرققه ويضغطه أو يثقبه ، فقد كان يضع النظرية التى يقوم عليها كل ما يستعمله اليوم من مطارق ومثاقب بخارية أو كهربائية أو هيدروليكية .

وهكذا الشأن بالنسبة لأول شظية صنعها الإنسان ليقطع بها جسما آخر ، وأول محاولة لرفع ثقل عن الأرض باستخدام جسم آخر « كعتلة » رافعة ، وأول محاولة لدحرجة جسم على الأرض بالاعتماد على استدارته صانعاً منه ما يشبه العجلة ، فقد كان ذلك مبدأ الآلات الرحوية الدائرة التى هى أساس كل آلة فى عصرنا الحديث ، وأخيراً عندما عوم فى الماء أول جذع شجرة ، فقد كان يضع بذلك أساس كل سفينة من أى نوع كان تجرى على سطح الماء هذه الأيام . . . حتى ما كان منها يسير بقوة الطاقة الذرية . . .

فالنظرية فى كل الأحوال واحدة . . . جسم يطفو على الماء ويتحرك بطاقة من نوع ما . . . وهو ما قدم لنا فكرته الإنسان الأول وهدانا إليه .

النـــار :

وليس اكتشاف الإنسان إمكان إشعال النار إلا طفرة لا تقاس إلى جوارها توليد الطاقة من شطر الذرة نفسها ، فإن سر الطاقات كلها هو فى إمكانها توليد حرارة . وستبقى النار هى أعلى صور الحرارة . وما من اختراع من الاختراعات التى تبهرنا مذ كان عصر البخار . . . إلا ويدور حول تولده من النار ، أو توليده للنار .

استئناس الحيوان :

وكان الإنسان الأول هو الذى قام بعملية استئناس الحيوان لاستخدامه فى شتى أغراضه الإنسانية ، من نقل وجر وتغذية ليضاعف فى قوته وقدرته . وإذا كان الإنسان فى العصر الحديث قد بدأ يستمد الطاقة مما هو أقوى من الحيوان ، فلا تزال الحيوانات والطيور المستأنسة هى قوام حياتنا الحضارية الحديثة ، وما على القارىء إلا أن يتصور كيف كانت تكون حياته لولا ما تمده به هذه الحيوانات والطيور من لحم ولبن وزبد وجبن وبيض وجلد وصوف . . .

الزراعة :

والإجماع منعقد بين علماء الاجتماع والمؤرخين والمفكرين بصفة عامة ، على أن الحضارة بمفهومها الحديث قد بدأت أول ما بدأت عندما تمكن إنسان ما قبل التاريخ إلى الاهتداء إلى فكرة الزراعة وإمكان استنبات الأرض لمختلف المحاصيل التي يحتاجها الإنسان لغذائه كالقمح والذرة والفول والأرز والعدس والفواكه والخضروات . . . إلخ أو يحتاج إليها لكسائه كالكتان والقطن .

فمن طريق الزراعة عرف الإنسان الاستقرار ، وأنشأ القرى التي تحولت إلى مدن فدول ، ووضع النظم والقوانين التي تنظم المجتمع ، والعلوم التي تشبع حاجاته وتتطور به . . . والفنون التي تجمل الحياة وتزيد في مباهجها . ولذلك فلم يكن عبثاً ولا هو بمحض الصدفة أن نشأت الحضارات الإنسانية القديمة المزدهرة كلها حول مجاري الأنهار وأحواضها الخصيبة . . . كحوض النيل والدجلة والفرات والسند وأنهار الصين .

التدين والاعتقاد :

واهتدى الإنسان الأول بعد ذلك ، بل وربما قبل ذلك كله إلى مبدأ الاعتقاد والتدين[1] ، الذي يربط الإنسان بوحدة الوجود ،

(١) اقرأ للمؤلف في نشأة العقائد وتطورها كتاب « في الإيمان والإسلام »

ليجعل للإنسان حياة ثانية أسمى وأكمل بعد موته الظاهرى ، وليفسح له فى الأمل دائماً فى أثناء الحياة كلما حزبته الأمور ، وضغطت عليه الدنيا بأحداثها وآلامها وأحزانها .

هذه الفكرة العامة فى الاعتقاد والتدين ، من أنه أمل فى الفرج إبان الشدة فى أثناء الحياة ، وتطلع إلى حياة ثانية بعد الموت . . . هو بدوره جزء رئيسى من هذا التراث الحضارى الإنسانى الذى خلفه الإنسان الأول لسلالته . . مهما كانت الصورة التى كان يقوم عليها التدين فى ذلك العهد البعيد . . فجة أو ساذجة .

تراث مشترك للإنسانية كلها :

بقى أن نعرف أن هذا التراث الحضارى الإنسانى الذى هو الأساس لكل حياتنا الحالية ، عام وشائع بين بنى الإنسان فليس يعرف على وجه التحديد كيف بدأ ولا أين بدأ ، ولسنا نعرف شعبا ، فضلا عن إنسان فرد يمكن أن تنسب إليه هذه الاختراعات والكشوف العظيمة ، فهى من صنع البشر مجتمعين . إنها من صنع البشر الآريين والساميين والحاميين ، أو بالأحرى البيض والسمر والسود والصفر ، الرجال والنساء ، من صنع أفريقيا وآسيا وأوربا واستراليا والأمريكتين وجزر المحيط الهادى . . . إنها من صنع الإنسان[١] ، إنها الحقيقة التى تؤكد وحدة الحضارة الإنسانية .

(١) راجع كتاب موسوعة تاريخ العالم ـ الجزء الأول ـ ص٣ ومابعدها .

تقسيم عصور ما قبل التاريخ :

ويقسم المؤرخون عصور إنسان ما قبل التاريخ وأوائل التاريخ إلى ستة أقسام ، ويحددون لكل عصر أزمنة تقريبية على الوجه التالى .

١ — العصر الحجرى القديم — من مليون سنة حتى ٨٠٠٠ ق . م

٢ — « « المتوسط — ٨٠٠٠ حتى ٣٠٠٠ سنة ق . م

٣ — « « الحديث — ٣٠٠٠ — ٢٥٠٠ سنة ق . م

٤ — « « النحاسى (فى الشرق الأدنى) ٤٠٠٠ — ٣٥٠٠ ق . م

٥ — العصر الحجرى البرونزى ٣٠٠٠ ق . م .

٦ — « « الحديدى ٢٥٠٠ ق . م .

ويقوم هذا التقسيم على أساس نوع الأدوات التى كان يصنعها الإنسان فى كل عصر من العصور ، وكيف ابتدأ دائماً باستخدام الأحجار المشظاة أى غير المقصولة « حجرى قديم » ، ثم بالأحجار المصقولة « متوسط وحديث » ثم بمحاولة استخدام النحاس فالبرونز فى صنع الآلات ... ثم ظهور الحديد لأول مرة فى أدوات الإنسان وآلاته ومهماته .

ولعل القارىء يلمح من هذه التواريخ السابقة ... أنه بينما كان الإنسان فى كثير من أرجاء العالم لا يزال يستعمل الأحجار كان

الإنسان فى الشرق الأدنى « مصر وبابل وأشور » قد بدأ يستخدم النحاس ثم البرونز .

كما تدل الأرقام السابقة على أننا إذا رمزنا لتاريخ الإنسان مذ كان إنسانا بالرقم مائة ، فإن تاريخه فى العصر الحجرى يستغرق ٩٩ من هذه المائة ، ويؤلف الواحد فى المائة الباقى ، تاريخ الانسان مذ أصبح له تاريخ معلوم ومكتوب(١) .

ولعل هذا الكشف عن طول الفترة التى عاش فيها الجنس البشرى يؤلف نوعا واحدا من الكائنات فى مواجهة الأنواع الأخرى ، يؤكد لنا ضآلة الفترة التى انقسم فيها الإنسان إلى أمم ودول وامبراطوريات ، راحت تعمل على تعميق الفروق بين بنى البشر ، وتوسع هوة الخلافات ، وتحول الجماعات الإنسانية . التى خلقت لتتعاون وتتضامن إلى كتل متعادية متباغضة ، متحاربة متباغية يسعى بعضها إلى افناء البعض الآخر ، على خلاف ناموس الطبيعة والحياة ، الذى جعل من غرائز الكائن الحى أن يحافظ على بقاء النوع لا أن يعمل على إفنائه .

---

(١) موسوعة تاريخ العالم ــ ص ١٨ وما بعدها .

الفصل الثاني

الانسان فى العصر التاريخى ــ اختراع الكتابة ــ مصر القديمة ــ انشاء المدن ــ اختراع الورق ــ علوم الرى والهندسة والطب والفلك ــ الدين ــ رع وأوزوريس ــ اهرامات الجيزة ــ حضارة سومر وبابل وآشور ــ شريعة حمورابى ــ الفينيقيون

★★

الإنسان فى العصر التاريخى :

يبدأ دخول الإنسان فى عصر التاريخ ، ونعنى بذلك التاريخ المحقق والمدون على الآثار وجدران المعابد والتماثيل ، أو فى بطون الكتب وأوراق البردى على شتى الصور والأشكال . فعن طريق التدوين أو بالأحرى الكتابة دخل الإنسان فى عصر جديد ، أصبح من المستطاع فيه تراكم المعلومات والمعارف الإنسانية للاستفادة بها ، والانتفاع بثمراتها عبر الزمان . . . وعلى اختلاف الأمكنة .

وإذا كان اختراع اللغة الملفوظة هو الذى أقام هذا الفارق الضخم بين الإنسان وغير الإنسان . فإن اختراع الكتابة قد فرق بين العصور، فجعل ما قبلها يوصف بأنه ما قبل التاريخ وأما ما بعدها فقد دخل فى نطاق التاريخ .

كيفية إختراع الكتابة :

ولقد تم اختراع الكتابة بالطريقة التى تم ويتم بها أى اختراع إنسانى ، أى من خلال سلسلة من التطور نتيجة تراكم المعلومات ، وتعقد الحاجات ، فليس من شك فى أن أول نقش نقشه الإنسان على الحجر ، أو رسم ملون يحكى به صورة ثور أو أسد أو حصان ، كان يضع اللبنة الأولى فى اختراع الكتابة ، فقد أصبحت الصورة ترمز للواقع وأمكن استحضار شىء غائب إلى الذهن برسم صورته .

ومن الصور التى ترمز لموضوعها بدأ التطور الذى انتهى بالأبجدية . . . فمن الصور الكاملة للدلالة إلى شىء معين . . . إلى الصورة المبسطة (١) . فمجرد الخطوط الأساسية ، ثم إلى استعمال هذا الرمز للدلالة على صوت معين وهكذا نشأت الأبجدية أى الصور الخطية الدالة على الأصوات الملفوظة .

مصر القديمة :

والإجماع منعقد تقريبا بين الباحثين والدارسين على أن مصر القديمة هى مبدعة اختراع الكتابة وعنها تلقت باقى شعوب وأمم ما يعرف الآن بالشرق الأدنى أو الشرق العربى ، وتولت فينيقيا (لبنان الحديث) صياغة الأبجدية فى صورتها الحاضرة المألوفة ، ونشرها فى أنحاء عالم ذلك الزمان .

---

(١) لا تزال الكتابة الصينية تقف عند هذه المرحلة .

وسواء أكانت مصر القديمة هى مخترعة الكتابة ، أم أنها نقلتها عن الشعوب المجاورة ، فإن ثمة حقيقة لا تجد خلافا عليها ، وهى أن أقدم نصوص مكتوبة قد وجدت فى مصر ، حيث تشير إلى معرفة المصريين القدماء للتقويم الشمسى وتقسيم السنة إلى ٣٦٥ يوما وأن هذا التقويم قد بدىء فى استعماله عام ٤٥٤١ ق . م .

على أن هناك من يقول إن التاريخ المكتوب يجب أن يبدأ عند مصب الدجلة والفرات ، حيث كانت سومر وبابل وأشور وأن المصريين القدماء أنفسهم ، إنما جاءوا من هذا القسم من العالم حاملين حضارته عن طريق شبه جزيرة سيناء[1]. ونحن الذين حاولنا أن نثبت أن أسيا هى موطن الإنسان الأول ومنشأ الحضارة ، لا نرى ما يدفعنا إلى دحض هذا الرأى ، ولكن ثمة أراء أخرى تقول إن المصريين القدماء قد جاءوا من الجنوب سائرين مع النيل شمالا حتى وصلوا إلى مصبه ، وأن آسيا كانت موطنهم الأول ، وقد كانت الأرض متصلة بين آسيا وأفريقيا ، وحتى بعد أن حدث الصدع وغمر ماء البحر بوغاز باب المندب ، فقد ظل المضيق يسمح بالانتقال عبر البحر من اليمن إلى الحبشة وبالعكس. والذين يأخذون بهذا الرأى يقولون إن حضارة وادى النيل قد سبقت حضارة الدجلة والفرات .

ومرة أخرى نقول كما قلنا بالنسبة للكتابة ، سواء سبقت الحضارة فى سومر وبابل وأشور أم كانت سابقة على ضفاف النيل ،

(١) عبد العزيز الدسوقى — الكيان العربى — ص ١٧ .

فالحقيقة الثابتة المقررة ، أن أهرامات مصر هى أقدم الآثار المبنية فوق سطح الأرض فى الوقت الحاضر وعلماء الآثار يتراوحون فى تحديد تاريخها بين ٣٠٠٠ — ٢٥٠٠ ق ٠ م ٠ ولا يعرف سطح الكرة الأرضية أثراً قائماً باقيا على الزمن أقدم من هرم زوسر والمصاطب التى سبقت بناءه .

الإنسان فى مصر القديمة :

ولما كانت أهرامات الجيزة أو بالأحرى هرم خوفو بالذات يمثل ذروة ما وصلت إليه إمكانيات الإنسان وحضارته ، وكان بناؤها قدتم كما قدمنا فى الألف الثالث قبل الميلاد ، فلا بد أن تكون مظاهر الحضارة قد سبقت ذلك التاريخ ببضعة آلاف أخرى من السنين وأكثر التقديرات تواضعا لبدء الحضارة فى مصر القديمة ترجع إلى منتصف الألف السادس قبل الميلاد[1] . فقد خلف لنا المصرى القديم فى هذا العهد المبكر ما يدل على أنه قد تجاوز العصر الحجرى القديم والأوسط وبدأ العصر الحجرى الحديث الذى لم يبدأ فى مناطق أخرى إلا بعد ذلك ببضعة آلاف من السنين . فلم يعد المصرى يجيد التكلم ويحذق صنع الالآت وأشعال النيران ويستأنس الحيوان ويزرع الأرض بطريقة بدائية فحسب ، بل كان قد دخل بالفعل إلى متطلبات التطور الزراعى فأصبحت الالآت أكثر تطوراً

(١) الدكتور عبد العزيز صالح — حضارة مصر — ص ٧٨

وفاعلية كالفؤوس والقواديم وأسنان المناجل ، وزاد عليها صناعة جديدة تمثل درجة جديدة من الحضارة وهى صناعة الفخار ، أى صنع الأوانى من الطين ثم حرقها بعد ذلك بالنار لزيادة صلابتها ، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك فبدأ يلون هذه الأوانى ويرسم عليها .

صناعة النسيج :

وبدأ الإنسان المصرى فى هذا العصر السحيق ، الصناعة الأخرى التى لا تزال حتى الآن تعتبر أهم صناعة فى الوجود ، لأنها صناعة الكساء عن طريق الغزل ، وقد خلف لنا الإنسان المصرى فى آثاره من هذه الحقبة أنسجة الكتان التى يعجب أئمة النسيج فى أيامنا هذه كيف استطاع المصريون أن يتطوروا فيما بعد بهذه الصناعة إلى هذا الحد المعجز . وإذا كان الإنسان المصرى قد حذق صناعة الفخار والنسيج فلا عجب إذا خلف لنا فيما خلف من صناعات هذا العهد ، السلال والحصير والحبال ، وتغص اليوم المتاحف ودور العاديات بهذه الآثار التى استجلبت كلها من مناطق معروفة ومشهورة بين علماء الآثار والمشتغلين بالتاريخ وهى مرمدة بنى سلامه — حلوان — والفيوم — ودير تاسا ... الخ(١) .

---

(١) المرجع السابق ــ ص ٩٢ .

عصر بداية المعادن فى مصر :

وتلا هذا العصر الحجرى الحديث المبكر فى مصر عصر بداية المعادن ، أى منذ أواسط الألف الخامس قبل الميلاد ، فبدأنا نرى مصنوعات نحاسية فى منطقة البدارى بأسيوط ومنطقة نقاده .

ويحاول الباحثون وعلماء الآثار أن يتخيلوا كيف توصل المصرى القديم إلى استخلاص النحاس من مركباته لأول مرة من خلال عمليات الصهر بالنار ، ويبدأ خيالهم من الحقيقة الثابتة وهى أن النحاس متوفر فى شبه جزيرة سيناء حيث يختلط بكربوناته الخضراء (التوتيا الخضراء) والزرقاء (كبريتات النحاس) فلا بد أن يكون حدث مرة أن استعمل بعض هذه الأحجار فى موقد من المواقد فإذا هو يكتشف يوما من الأيام بمحض الصدفة قطعة من المعدن البراق فى مخلفات النار .

وكيفما كان الأمر فقد عرف المصرى القديم صناعة التعدين وهى استخلاص النحاس من مركباته مبتدئا بذلك مرحلة من مراحل التطور البشرى ، وتتجلى أهمية هذا الكشف إذا تذكرنا أن النحاس لا يزال هو أعظم وسيط لنقل الكهرباء التى تؤلف القوة المحركة فى دنيانا الحديثة .

وهكذا بدأنا نرى فى آثار المصرى القديم الأدوات الحجرية القديمة والفخار .

ومضت صناعة الآلات فى تطورها نحو الفاعلية والدقة ، فطرأ تغيير جديد على صناعة البناء .. إذ أصبح المصرى يبنى بيته بقوالب منظمة الشكل من الطين بدلا من هذه (الجواليص) غير المنظمة التى كان يبنى بها مسكنه من قبل . ومع اكتشاف صنع قوالب الطين (اللبن) كانت صناعة البناء تدخل مرحلة جديدة سوف تصل فى ذروتها إلى الأهرام كما سترى .

إنشاء المدن :

وظهرت المدن بمعناها المفهوم لنا لأول مرة على صفحة التاريخ حيث يسكن الزراع والصناع وأصحاب الحرف الأخرى إلى جوار بعضهم فى علاقات منظمة تحكمها قيادة واحدة ، وتقاليد واحدة ، وأنظمة واحدة . وكانت المدينة تنشأ دائما حول هيكل الرب المعبود لهذه الجماعة . ولاشك فى أن كاهن هذا المعبد وسادنه كان هو أول حاكم وملك للجماعات الأولى ، فقد كانت السلطات كلها تنحدر من هذا الإله ، والقوانين والتعاليم والأوامر والنواهى كلها لا تتصور إلا باعتبارها أوامر الإله ، فكان الناطق باسم الإله هو دائما صاحب السلطة والآمر المطاع . . . وهى حالة ستظل تقابلنا فى كل مجتمع من المجتمعات القديمة . . . وستظل تهيمن على المجتمع البشرى خلال العصور ، ولاتكاد تخف حدتها فى بعض المجتمعات حتى تعود لسلطانها

كأقوى ما كانت فى أى وقت مضى . . . كما سيكون عليه الحال فى أوربا فى ظل المسيحية وبابوات المسيحية ثم ملوك المسيحية .

تكوين الدولة المصرية :

ونشأة المدن حول هيكل المعبود وتمتع سادن الهيكل بالسلطة والنفوذ ، ظاهرة مقررة فى كل المجتمعات . . . ولكن كثيرا من المجتمعات حتى فى عصور متأخرة وحديثة قد ظلت عند دائرة المدن لا تعدوها ، فتؤلف كل مدينة وحدة سياسية قائمة بذاتها ويكون لها جيشها الخاص واستقلالها الذى تحرص عليه كما سنرى ذلك عند الأغريق ... بل وفى إيطاليا وأوربا كلها فى العصور الوسطى.

ولكنا نرى مصر القديمة تشذ عن هذه القاعدة منذ عصر مبكر فنراها كلها وقد توحدت فى ظل دولة مركزية فى العالم كله ، حيث تدار الأمور من عاصمة تخضع لها سائر المدن والمناطق . ولاشك فى أن نهر النيل وفيضانه السنوى كان هو العامل الذى أدى إلى توحيد مصر فى هذا العصر المبكر . فقد كان هذا الفيضان يشكل فى كثير من الأحوال خطراً داهما مشتركا لكل من يعيش على ضفتيه ، ولم يكن هناك ثمة سبيل لدفع هذا الخطر إلا من خلال تعاون جميع الساكنين على شاطئيه ، وإذ كان النيل من ناحية أخرى يؤلف

شريانا حيويا للمواصلات ، وليس كالمواصلات بين الجماعات سبيلا إلى توحيدها وتجميعها ، فقد انتهى النيل بأن كان على رأس العوامل التي وحدت مصر سياسياً . ولذلك فليس هناك ما هو أصدق من كلمة هيرودوت المؤرخ الأغريقى الذى سيزور مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد . . عندما يقرر أن مصر هبة النيل ، فها هو النيل يخلق أول دولة تساس على الطراز العصرى منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، وقد كان النيل قبل ذلك هو خالق دلتا النيل خلقا من العدم بما يجلبه كل عام من طمى يقذف به إلى البحر(١) .

عهد الأسرات :

وهكذا يطالعنا تاريخ مصر بجلوس مينا على عرش المملكة المصرية الموحدة ، ويلبس لأول مرة تاجى الوجه القبلى والبحرى معا عام ٢٩٠٠ ق . م على أكثر الآراء مبالغة فى تقريب هذا التاريخ(٢) إذ أن هناك كثيرين وعلى رأسهم بريستيد ، يرجعون بهذا التاريخ خمسة قرون إلى الوراء .

وهكذا نرى أنفسنا لأول مرة أمام أكبر تكتل بشرى يمتد على رقعة طويلة من الأرض ويخضع لسلطة مركزية تبدأ برئيس دولة

(١) تبلغ كمية الطمى التى يحملها النيل إلى مصر سنويا ٨٥ مليون طن انظر كتاب من وحى الجنوب للمؤلف .

(٢) موسوعة تاريخ العالم .

يعاونه وزراء وقضاة ويبعث بحكامه إلى بقية المحافظات والمديريات . . . ويجبي الضرائب ويقيم العدل بين الناس على أسس من قوانين ثابتة مكتوبة وأنظمة إدارية محكمة .

وبدأنا نشهد مجتمعا ينطوى على كل ما تنطوى عليه مجتمعاتنا الحديثة من مظاهر ومقومات ، فعمل فى سبيل الإنتاج ، وعمل فى الإدارة ، وجد ولهو واستمتاع مادى ومعنوى بالحياة ، فأجود الأطعمة المطهية والأشربة والأنبذة والفواكه وأصناف الحلوى والخبز والكعك ، كل ذلك قد عرف طريقه إلى المائدة .

والفنون بكل أنواعها من موسيقى ورقص وشعر وأدب ورسم ونحت ، بل إن النحت ليصل إلى ذروة لم يصل إليها أى نحات فى القديم أو الحديث . والألعاب الرياضية وألعاب الفروسية ، من قذف بالجلة والرمح والعدو والمصارعة والملاكمة والسباحة والتجديف . والصيد كل ذلك قد أصبح يمارس على أوسع نطاق .

وأصحاب المهن والصناعات المتخصصون بدأوا فى الظهور ابتداء من البنائين والنجارين والمبيضين ، حتى الكتاب والموظفين ، والأطباء والمعلمين . وهكذا نرى الإنسان قد توصل فى هذا العهد البعيد إلى الحياة الاجتماعية الراقية كما نفهمها وكما نزاولها ، ويستمتع بحياته كما يستمتع بها أحدث إنسان عصرى ، عندما يتخذ من لعب الكرة أو مشاهدة مباريات الكرة أعظم هواياته .

اختراع الورق :

وإذا كان إنسان ما قبل التاريخ قد وضع أسس اللغات أو صناعة الآلات ... إلخ مما أشرنا إليه فيما سبق ، فإن أحد اختراعات إنسان التاريخ جدير بأن يشار إليه لعظيم خطره فى الأجيال والقرون التالية وذلك هو اختراع الورق ، فلو لم يكن الورق لظلت الكتابة بكل جلالها وخطرها محدودة النفع والأثر ، وليس مثلنا فى العصر الحديث من يقدر قيمة الورق ، وكيف أن حضارتنا الحديثة إذا كان يحلو للكثيرين أن يصفوها أحياناً بأنها حضارة الحديد والصلب والكهرباء ، ويقيسوا رقى الشعوب بنصيب كل فرد من الصلب أو الكهرباء ، فما أحراهم أن يصفوها أولا بأنها حضارة الورق قبل أن تكون حضارة الصلب والكهرباء ، فلولا الورق لما كان شيء من ذلك كله ، وإنى لأجهد نفسى فى تصور ماذا كان يمكن أن تكون عليه حياتنا لو لم يكن فيها هذا الورق ... أكان من الممكن أن أخط هذا الكتاب ، أكان من الممكن أن يجد سبيله إلى ألوف القراء ما لم يكن هناك ورق ... من أين كنت أستقى معارفى إذا لم يكن هناك ورق ... كيف يمكن للتعليم أن يتم بغير كتب وورق ، كيف يمكن لأية حكومة أن تزاول سلطانها عن غير طريق الورق ، أكان يمكن لأى اختراع أو اكتشاف أن يتم ما لم يكن هناك ورق توضع عليه الرسومات الأولى والتصميم .

والإنسان فى مصر كان هو أول صانع للورق بلا جدال أو شبهة ولذلك لا يزال اسمه فى اللغات الأوربية كلها يحمل الاسم المصرى الذى اشتقه الأغريق من اسم نبات البردى وهو Papyrus ، وسوف نرى أن الأداة التى يصنع منها الورق سوف تتغير على مر العصور ... فيصنع أحيانا من رَق الغزال أى جلده ، وسيصنعه الصينيون من القماش ، وسنصنعه فى عصرنا الحديث من لب النباتات.. ولكن الأساس والفكرة واحدة وهى صنع هذه الأداة الخفيفة البسيطة البيضاء لنكتب عليها .

الهندسة والرى والطب والفلك والكيمياء والتعدين :

وبقيام المجتمع المتكامل والدولة الموحدة ، كان طبيعيا أن تصب المعارف الإنسانية فى علوم يستقل بعضها عن بعض ويتخصص فى كل فرع منها المتخصصون ، فكان علم الفلك حيث استطاع الإنسان فى هذا الوقت البعيد أن يحدد السنة الشمسية بـ ٣٦٥ يوما ولن تتجلى عظمة هذا الكشف إلا عندما تدرك أن الإنسانية بعد ذلك لم تستطع أن تغير من هذا الحساب إلا بقدر خمس ساعات وكسور . وقام علم الهندسة والطب والكيمياء والجيولوجيا أى التعدين ، ووجد الأطباء والمهندسون والكيميائيون والوزراء والحكام الإداريون والقضاة والكتبة وسائر الموظفين .

الدين :

ووصل الوازع الدينى ، أو بالأحرى الضمير الإنسانى وهو المقياس الذى يمكن أن يقاس به درجة رقى أى مجتمع إلى درجة عالية ، ولست أحسب أن هناك ما يمكن أن نسوقه لتصوير ما كان عليه الإنسان فى مصر فى هذه الحقبة من التاريخ ، من حيوية الضمير ويقظته أكثر من أن ننقل نصا واحدا من مئات النصوص التى وجدت منقوشة على القبور والتى يقدم فيها الميت الحساب عن أعماله .

فهذا حاكم مقاطعة (جبل الحية القرناء يقول عن نفسه) :

« لقد كنت أعطى الخبز لكل جائع فى جبل الحية القرناء ،

« لقد كسوت كل من كان عاريا هناك .

« لقد ملأت شطوطه بالماشية الكبيرة وأراضيه المنخفضة بالماشية الصغيرة .

« ماظلمت أحدا حتى شكا منى بسبب ذلك لإله مدينتى ، ولكنى كنت أنطق بما هو خير وأتحدث به .

« لم يوجد شخص يستولى عليه الخوف بسبب شخص أقوى منه حتى شكا منه للإله .

« لقد كنت صانع معروف ، إنى لا أنطق بأكذوبة ، لأنى

كنت شخصا يحبه أبوه وتثنى عليه أمه ، فائق الخصال نحو أخيه ومحبوباً لدى أخته[1] » .

وقد يكون كل ماجاء فى هذا النص ، لاينطوى على غير المباهاة والتفاخر الكاذب ، فنحن نعلم أن الحكام فى كثير من الأحيان يقولون مالا يفعلون ، بل إن ما كيافللى قد أوصى الحكام بذلك على أساس أن ذلك هو فن الحكم . ونحن نعلم أن اتباع الحكام ينافقونهم فيصفونهم بما ليس فيهم ، وقد يصفونهم بالعدل وهم فى أوج الطغيان ، ومع ذلك فإن هذا النص يسجل لنا دستور الحكم ومبادئه الأساسية من ناحية ، والأخلاق الفاضلة من ناحية أخرى والتى يجب أن يتصف بها الحاكم ليكون جديرا بالثناء عليه عند الآلهة وعند الناس .

أنظر إليه وهو يتحدث عن توفيره أنواع الماشية ووضع كل منها فى مكانه الصحيح تراه يفتخر بما تفتخر به الدولة العصرية بمضاعفة الانتاج .

وانظر إليه وهو يتحدث عن إطعام الجائع وكسوة العارى ، تجد أن الفكرة الاشتراكية التى تقوم على إحسان التوزيع بين الناس كانت معروفة لدى هذا الحاكم منذ ستة آلاف من السنين . وانظر إليه وهو يقول إنه لم يوجد فى رعاياه من يمتلئ قلبه خوفا

---

(١) بريستيد ــ تطور الفكر الدينى فى مصر القديمة ــ ص ٢٤٢ .

من إنسان لـكونه أقوى منه . . . لترى أعظم مظاهر الديموقراطية التى تقوم لتأكيد حقوق الإنسان أو ما نطلق عليه التحرر من الخوف. وأخيرا انظر إلى علاقته بأبويه وأخيه وأخته وكيف يفخر بأنه كان محبوبا منهم جميعاً ، تجد أمامك النفس البشرية فى رقتها وصفائها.

ولعل القارئ يدرك قبل ذلك من مطالعة هذا النص ، أن أشد ما يفزع الحاكم فى الدرجة الأولى ، هو أن يشكوه المظلوم إلى إله المدينة .

التدين سر الحضارة المصرية :

والحق أن الخوف من الله كان هو مفتاح الحضارة المصرية القديمة ، وليس باستطاعتنا أن ندرك قليلا أو كثيراً من تفوق قدماء المصريين الخارق إلا على ضوء فهم عقيدتهم الدينية التى كانت تملأ عليهم كل حياتهم . لقد كانوا ينظرون إلى الدنيا باعتبارها معبرا إلى الحياة الثانية ، وليس باستطاعتنا فى هذه العجالة أن نفصل الكثير من أحكام هذه الديانة (١) ، وحسبنا أن نشير إلى أن المصريين قد عرفوا جوهر الأديان كلها ، وأعنى به الايمان بالأمور الغيبية ، كالبعث بعد الموت، والحساب على ما قدمت يد الإنسان فى هذه الدنيا ، ثم الثواب والعقاب فإما إلى جنة الخلد أو إلى قاع الجحيم ، وإذا كان

(١) إقرأ للمؤلف كتاب « فى الايمان والاسلام » .

القرآن الكريم قد تحدث كثيرا عن الميزان الذى توزن به أعمال الإنسان (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) فإن قدماء المصريين بلغتهم التصويرية قد صوروا الميزان على جدران قبورهم وقد وضع فى إحدى كفتيه قلب الإنسان .

رع وأوزوريس :

ولقد أشرنا فيما سبق أن كل مدينة كانت تتخذ لها إلها خاصا بها، بحيث يمكن القول إنه كان لدى المصريين القدماء من الالهة بمقدار ماعندهم من مدن وجماعات والرأى الراجح أن هذه الآلهة كانت تمثل الأصول والأجداد لكل قبيلة ، وبعض الأبطال الذين اشتهروا بجلائل الأعمال ، ولكن سنة الاجتماع التى دفعت المصريين إلى توحيد دولتهم ، سرعان مابدأت تعمل عملها فى توحيد عقائدهم ، فبدأت عملية مزج بين الآلهة المختلفة وتزويجها إلى بعضها ، أو إيجاد القرابة فيما بينها كأن يكون هذا الإله شقيق الإله الآخر أو ابنه . ثم تلت ذلك عملية أخرى وهى ترتيب الآلهة فى درجات يعلو بعضها بعضا فمن آلهة كونية تنسب إليها عمليات الخلق كنوت إله السماء وجب إله الأرض ، فهى آلهة تعلو الآلهة . ثم آلهة إقليمية محلية تختص بتصريف شئون البشر وإعانتهم على قضاء حاجتهم ، أشبه بالأولياء الذين تجدهم فى بلادنا فى الوقت الحاضر فى مختلف مدن القطر ، وأهل كل مدينة

يتعصبون لوليهم وينسبون إليه القدرة الفائقة على عمل كل شيء[1] .

وقد انتهى الباحثون فى الديانة المصرية إلى تفوق عقيدتين سيطرتا على بقية العقائد الأخرى ، وهما العقيدة الشمسية التى تدور حول عبادة الإله رع (أى الشمس) والذى أقيمت له المسلات والاهرامات وترى اسمه قد أصبح جزءا لايتجزأ من أسماء الملوك باعتبارهم أبناء الشمس (خفرع . . . منقرع) . والعقيدة الثانية هى العقيدة الأوزورية والتى تدور حول الإله أوزوريس وزوجته : وابنهما حوريس وشقيقه ست[2] .

هاتان العقيدتان اللتان تدوران حول الشمس لأن أوزوريس نفسه قد انتهى بأن يصبح رمز الشمس عند الغروب ، سيكونان

---

(١) كالسيد البدوى فى طنطا ، والدسوقى فى دسوق، وعبد الرحيم القناوى فى قنا والحجاجى فى الأقصر .. وهكذا .

(٢) أوزوريس على ما تقول العقيدة المصرية هو معبود حكم الأرض بعد رع وخلفه فيها ، وقد أحبه الخلق كثيراً لعدالته وشفقته . ولكن حكمه لم يدم طويلا لأن أخاه ست كاد له حتى قتله فاجهدت أيزيس زوجته نفسها حتى أنقذت جثة زوجها وتلت عليها التعاويذ السحرية حتى اعادتها إلى الحياة وحركت أعضاءها ، واستطاعت إيزيس فى هذه المرحلة أن تحمل من أوزوريس وأن تنجب منه ابنهما حوريس الذى راحت تربيه خفية عن عين عمه وتحرضه على أن يثأر لأبيه. على أن أوزوريس لم يستطع أن يسترجع مركزه الدنيوى فعكف على الحياة الأخرة علويا محترما يحكم بين الموتى . وعندما كبر حوريس وبلغ رشده ناضل عمه ست نضالا شديداً حتى انتصر عليه واعتلى عرش أبيه .

مصدر الوحى والإلهام لأعظم حركة توحيد عرفها البشر فى هذا الوقت المبكر .

أهرامات الجيزة :

والحق أن إيمان المصرى القديم قد أوصله إلى درجة جعلته يفعل المعجزات التى ما كان يمكن أن يقوم بها لولا هذا الإيمان . . وعلى رأس هذه المعجزات بناء الهرم .

فنحن نعلم أن الهرم قد بنى على مساحة ١٣ فدانا ، ويبلغ من الارتفاع ٤٨٠ قدما وقد ظل هذا الارتفاع هو أعلى بناء فى العالم حتى مطلع القرن العشرين أى طوال خمسة آلاف سنة . وقد تطلب من الصخور لبنائه مليونين وثلثمائة ألف حجر ، متوسط ثقل الصخرة الواحدة طنان ونصف ، أى أن ثقل هذه الأحجار فى مجموعها يبلغ خمسة ملايين طن . وقد قطع الجزء الأكبر من هذه الصخور من جبل المقطم ونقل إلى صحراء الهرم عبر النيل . أما كسوة الهرم الخارجية ودهاليزه الداخلية وحجرات الدفن فقد صنعت من حجر الجرانيت الذى استجلب من أسوان ، وحيث تبلغ زنة بعض الأحجار من عشرين طنا إلى ١٥٠ طنا(١) .

وعلينا أن نستحضر الآن فى أذهاننا ، أن الصلب لم يكن قد

(١) ول دورانت ـ قصة الحضارة الجزء الأول ـ ص ٧٠

عرف فى ذلك الوقت وكذلك الطاقة الكهربائية ، فبأى قوة وطاقة أمكنهم قطع هذه الأحجار ونحتها ، ثم نقلها هذه المسافات الطويلة ورفعها بعد ذلك إلى هذا المدى الكبير .

بل علينا أن نتصور قبل ذلك وبعد ذلك ، بأى عقول قد صممت هذه الاهرامات ورسمت ، ثم بأى قدرة وبأى تجربة وبأى فن نفذت بهذه الدقة العجيبة التى تذهل أعظم المهندسين دقة فى العصر الحديث فحيث يبلغ طول ضلع قاعدته ٧٥٠ قدما فإن نسبة الخطأ فى طول بقية الأضلاع والمسح والفراغ لا تبلغ $\frac{١}{١٠,٠٠٠}$ كما أن مواضع تلاصق الصخور الضخمة لا تزيد مسافتها عن $\frac{١}{١٠,٠٠٠}$ من البوصة . ويقول بريستيد « وإن هذه الدقة فى السطوح والحافات التى تشمل مساحات تقدر بالأفدنة مما لا يمكن مقارنته بدقة المهندسين العصريين ، الذين لا تتعدى دقتهم بضع أقدام أو ياردات[1] » .

الأهرام رمز لقدرة الإنسان :

وما أكثر ما ارتفعت الأصوات من حين لآخر ، تحاول على ضوء مقاييس العصر الحديث أن تحكم على صواب هذا العمل ، وأن تتخذ منه رمزا على الطغيان والاستبداد وأن تصور الأهرام على أنها

(١) بريستيد ــ تاريخ مصر ــ ترجمة حسن كمال ــ ص ٧٧ .

مجرد قبر لإنسان فرد ، وعندنا أن ذلك كله هو لون من ألوان التخبط والقاء الكلام على عواهنه ، فما كان الطغيان بقادر على أن يبنى ويعمر فضلا عن أن ينشىء معجزة الدهور كلها .

وما كان لشعب يرزح تحت أثقال الظلم ، أن ينهض بهذا العمل الجبار ، ولا أن يجد العقول المبدعة التى تبدعه ، وإنما الحق يقال أن ليس سوى شعب مؤمن بفكرة الخلود ، وتوفرت لديه العزيمة على تحدى الزمن وعوامل الفناء ، من يقدر على بناء هذا الهرم الذى قال قائلهم فيه بحق « ان العالم كله يرهب الزمان ، ولكن الزمان ، نفسه يرهب الأهرام[1] .

والحق أن بناء الأهرام يجب أن ينظر إليه على أنه رمز لعظمة الإنسان ، فى كل زمان ومكان ، وكما يحاول كل شعب وتحاول كل أمة أن تبنى بناء يرمز لما وصلت إليه من قوة واقتدار . . . فيجب أن يعتبر الأهرام رمزا ناطقا على مر الدهور ، إن الإنسان قبل خمسة آلاف سنة وصل إلى هذه الدرجة من القوة والاقتدار والسيطرة على الطبيعة وتحديها .

حضارة سومر :

ولندع الآن الإنسان فى مصر حيث قد بلغ أوج حضارته ،

(١) دورانت ــ قصة الحضارة ــ ص ٧٢ .

ليسرى عليه قانون الحياة حيث يعقب العلو والارتفاع ، الهبوط والانخفاض . وقانون القوة الجاذبة نحو المركز ، يقابله قانون القوة الطاردة بعيدا عن المركز . لندع مصر بمن فيها ألفا من السنين تراوحت فيها أقدارها بين المد والجزر ، والتشتت بعد التوحد ، وطروء هجرة جديدة عليها ممن يسميهم التاريخ بالهكسوس ، فلسنا نؤرخ فى كتابنا هذا لتفاصيل أحداث التاريخ وإنما للجانب الحضارى منها ، ولنسرع إلى بلاد ما بين النهرين ، الدجلة والفرات ، أو بالأحرى إلى دلتا النهرين حيث تهتف كثير من الأصوات بأن الحضارة بدأت من هناك .

ولقد قلنا من قبل إننا لم نبدأ بمصر إلا لأن تاريخها المكتوب يسبق كل تاريخ . والذين يتحمسون للحضارة السومرية يحاولون أن يرجعوا بتاريخها الثقافى إلى ٤٥٠٠ سنة قبل الميلاد ، ويرى بريستيد وول دورانت[1] أن القائلين بهذا القول يبالغون بل ويسرفون على أنفسهم ، أما وليم لانجر صاحب موسوعة تاريخ العالم فلا يضع تاريخا للحضارة السومرية قبل عام ٢٤٥٠ ق . م .

قصة الخلق والطوفان :

ولعل أروع ما أضفى على الحضارة السومرية شهرتها وأهميتها

(١) قصة الحضارة ـ الجزء الثانى ـ المجلد الأول ـ ص ١١

هى محاولة علمائها وشعرائها عام ٢٣٠٠ ق . م . أن يستعيدوا تاريخ بلادهم القديم ، فكتبوا قصصاً عن بداية الخلق وعن اثنين من حكام البلاد وهما تموز وجلجيميش ، ثم يتحدثون باستفاضة عن طوفان مروع غمر الجنة وخربها عقابا لأهلها على ذنب ارتكبه أحد ملوكهم الأقدمين . ونقل البابليون قصة الخلق والطوفان عن السومريين ، وعن البابليين نقل العبرانيون (بنو إسرائيل) فأصبح حديث الخلق والطوفان بهذه الصورة جزءا من العقيدة اليهودية والمسيحية (١) .

الكتابة المسمارية :

وللسومريين أبجدية للكتابة تختلف عن هيروغليفية المصريين القدماء ، مما يجعل البعض يرجح أن تكون هى أصل الأبجدية التى انتشرت فى العالمين ، ولكن السومريين على خلاف المصريين لم يعرفوا الكتابة على الورق ، وإنما كانوا يكتبون على قوالب من الطين وهى لا تزال طرية مستخدمين فى الكتابة عليها مسمارا ومن هنا سميت باللغة المسمارية .

وكانت ملابس السومريين من الصوف وكانوا يحلقون رؤوسهم وكانت الزراعة هى محور حياتهم ، وكانت مدنهم تتألف كما هو الشأن

(١) دورانت المرجع السابق

فى نشأة المدن فى تلك الأيام حول الهيكل المقام لمعبود الجماعة الخاص، حيث يكون الكاهن هو صاحب النفوذ والسلطان وسرعان ماعملت عناصر التوحيد على ضم المدن المختلفة واستعلاء إله الملك الظافر على بقية الآلهة وقد وجدت نقوش من آثار مدينة «إريك» حيث يعلن إلهها على لسان كاهنها الملك، سلطانه المطلق على المنطقة الممتدة من الخليج الفارسى حتى البحر الأحمر(١).

الأكاديون :

ويسجل التاريخ أن حشدا من الساميين من سكان الصحراء ممن عرفوا باسم الأكاديين قد أغاروا على سومر عام ٢٧٥٠ ق. م تحت زعامة سرجون، ولم يلبث أن كون أول امبراطورية فى هذا الجزء من العالم تمتد من الخليج الفارسى حتى شاطىء البحر الأبيض المتوسط.

بابل وحمورابى :

على أن امبراطورية سرجون لم تلبث أن ذوت، وجاءت حشود جديدة من الساميين فاستولوا على المنطقة وأسسوا لهم عاصمة جديدة سيظل اسمها يدوى خفاقا فى العالمين لعدة أجيال وقرون بأقوى مما تدوى اليوم أسماء باريس ولندن أو برلين، وتلك هى

(١) هـ. ج. ويلز — مختصر تاريخ العالم (بالانجليزية) ص ٥٩

مدينة بابل التى تحولت تحت لواء إلهها مردوك إلى بوتقة من أعظم بواتق الحضارة الانسانية ، والتى وصلت إلى عصرها الذهبي عام ٢١٠٠ ق ٠ م على يد ملكها العظيم حمورابى الذى حكم ٤٣ سنة ، وترك للبشرية أول مجموعة من القوانين المكتوبة ، أو بالأحرى المنقوشة أجمل نقش على أسطوانة من حجر الديوريت ، والمنظمة بصورة مذهلة على أحدث الأساليب العلمية العصرية ، فثمة قوانين خاصة بالعقارات ، وأخرى خاصة بالمنقولات ، وثالثة للتجارة والصناعة ورابعة خاصة بالأسرة وأنظمتها وحقوق أفرادها ... وقوانين خاصة بالعمل وأخرى للأضرار الجسيمة وهكذا ، ويقول دورانت مؤرخ الحضارة الانسانية عن هذه القوانين ، إنها من وجوه عدة لاتقل رقيا عن شريعة أية دولة أوربية حديثة ، وقل أن يجد الانسان فى تاريخ الشرائع كله ، ألفاظا أرق وأجمل من هذه الالفاظ التى يختم بها حمورابى ذلك الملك البابلى العظيم شريعته :

« إن الشرائع العادلة التى رفع منارها الملك الحكيم حمورابى والتى أقام بها فى الأرض دعائم ثابتة وحكومة ظاهرة صالحة ، أنا الحاكم الحفيظ الأمين عليها ، فى قلبى حملت أهل أرض سومر وآكد ، وبحكمتى قيدتهم ، حتى لايظلم الأقوياء الضعفاء ، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة . فليأت أى إنسان مظلوم له قضية ، أمام صورتى أنا ملك العدالة ، وليقرأ النقش الذى على أثرى، وليلق باله إلى كلماتى

الخطيرة ، ولعل هذا يكون هاديا له فى قضيته ، ولعله يفهم منه حالته ، ولعله يريح قلبه فينادى « حقا إن حمورابى حاكم كالوالد الحق لشعبه ... لقد جاء بالرخاء إلى شعبه مدى الدهر كله ، وأقام فى الأرض حكومة طاهرة صالحة. ولعل الملك الذى يكون فى الأرض فيما بعد وفى المستقبل يرعى ألفاظ العدالة التى نقشتها على أثرى [1] »

وإذا كنا قد اكتفينا من وصف حضارة مصر فى عهدها القديم بالوقوف عند الأهرام حيث تغنى بنفسها عن أى حديث ، فإن قوانين حمورابى بهذا التنظيم العلمى الدقيق ، وبهذه الروح السامية الرفيعة ، تغنى بنفسها عن الإفاضة فيما كانت عليه بابل ، أو الحديث عن حدائقها المعلقة ، وأبراجها المتعالية نحو السماء ، إن قوانين حمورابى هرم معنوى يخلد حضارة الإنسان منذ أقدم العصور كما يخلدها بناء الأهرام سواء بسواء .

علم الفلك والعلوم الرياضية :

على أننا لانستطيع أن ننهى حديثنا عن حضارة بابل دون أن نشير إلى علم كان ومازال علما عليها ونعنى به علم الفلك والتنجيم وما يتصل به من حساب وعلوم رياضية ، فقد كان البابليون هم الذين

---

(١) دورانت . قصة الحضارة — جزء ٢ مجلد ١ ص١٩٢

قسموا لنا الدائرة التقسيم الذى نستعمله حتى الآن وهو ٣٦٠ درجة وكانوا هم الذين قسموا الدرجة إلى ٦٠ دقيقة والدقيقة إلى ٦٠ ثانية، وقد كانوا هم أول من قدر الزمن بالساعات المائية وبالمزولة والرأى الراجح أن هاتين الآلتين من اختراع البابليين بالذات.

وقد استطاع البابليون منذ ٢٠٠٠ سنة ق . م أن يسجلوا بدقة عجيبة شروق كوكب الزهرة وغروبها؛ وأن يميزوا بين النجوم الثوابت والكواكب السيارة، ويحددوا مسارات الكواكب ويعينوا تاريخ الانقلابين الشتوى والصيفى، والاعتدالين الربيعى والخريفى، وأن يلاحظوا الخسوف والكسوف (١).

الأشوريون :

وبقدر ماكانت صفحة بابل القديمة مشرقة، بقدر ما كان يقع فى شمالها دولة الأشوريين فى حوض الدجلة والفرات العلويين وكانت عاصمتها مدينة نينوى.

وتاريخ الأشوريين تاريخ عاصف دموى عنيف، وقد استطاع ملوكها فى خاتمة المطاف أن يستولوا على بابل ويحكموها وأن يسيطروا على امبراطورية ضمت تحت جناحيها المنطقة الممتدة من عيلام

---

(١) دورانت — قصة الحضارة — الجزء الثانى — مجلد أول ص ٢٠١

فى المشرق وأرمينيا وميديا وسومر وبابل حتى فلسطين وسوريا وفينيقا ومصر فى عهد متأخر فى المغرب .

وإذا كان الحكام الطغاة من بنى الإنسان قد ظلوا حتى منتصف القرن العشرين لايفتنون بشىء قدر افتتانهم بالقوة العسكرية ، ولا يقيسون أمجادهم أو أمجاد أى أمة من الأمم إلا بمقدار انتصاراتها العسكرية،وإذا كنا قد شهدنا فى النصف الأول من القرن العشرين حاكما مثل هتلر قد خضب أرض أوربا بالدماء ، ونكل بأعدائه وخصومه كأشر مايكون التنكيل ، وحاكما آخر كستالين فى روسيا فعل الأفاعيل بكل من يخالفه بالرأى أو يحاول أن يتصدى له بنقد أو تجريح ... فان آشور قد أخرجت من قبل حاكما ينافس هتلر وستالين فى جبروتهما وتنكيلهما بأعدائهما ، وذلك هو أشور بانيبال (٦٦٨ — ٦٢٥ ق.م) والذى يقول لنا فى أكثر من أثر من آثاره فى فخر وزهو وشموخ واعتداد :

« لقد سلخت جلود كل من خرج علىّ من الزعماء ، وغطيت بجلودهم العمود ،وسمرت بعضهم من وسطهم فى الجدران،وأعدمت بعضهم خزقا، وصففت بعضهم حول العمود على الخوازيق، أما الزعماء والضباط الذين ثاروا ، فقد قطعت أطرافهم ، وحرقت ثلاثة آلاف أسير ولم أبق على واحد منهم،وانتزعت ألسنة من ائتمروا علىّ بالشر

وأهلكتهم ، ومن بقى منهم على قيد الحياة قدمتهم قرابين جنائزية وأطعمت بأشلائهم المقطعة الكلاب والخنازير والذئاب وبهذه الأعمال أدخلت السرور على قلوب الآلهة العظام[1].

ونعتذر للقارىء الكريم لترويعه بمثل هذا النص ، فنحن مضطرون إلى هذا الاقتباس من حين لآخر ليظهر مدى الانحراف الذى كان وما يزال يقع فيه بنو الإنسان ، عسى أن تدفعهم هذه الانحرافات إلى عقد العزم على أن لا يقعوا فيها بعد ذلك أبداً .

الفينيقيون عابرو البحار :

وبينما كانت الحضارة تزدهر على ضفاف النيل من ناحية ، وعلى ضفاف الدجلة والفرات أيام حمورابى ، وتتخضب المنطقة بالحروب والدم أيام اصطدام الإمبراطوريتين المصرية والبابلية أو الأشورية ، كان ثمة شعب يقع على شاطىء البحر الأبيض المتوسط قد تميز بكيانه الخاص وحبه للبحر والانطلاق فوق عبابه لينقل لدنيا ذلك الزمان ما فى هذا الشرق من منتجات وسلع مادية ومعنوية معا ، أولئك هم الفينيقيون . ويقول عنهم المؤرخون الأوربيون المعنيون بتقسيم العالم إلى شعب وأجناس ، أنهم يمتون إلى الجنس السامى

---

(١) دورانت : قصة الحضارة — الجزء الثانى — المجلد الأول ٢٨٢ .

كالسومريين والأكاديين والعموريين ، فيتصدى لهم فريق آخر ، لينفى هذه النسبة إلى السابقين ويردها إلى الجنس الذى أنشأ الحضارة الإيجية أى الكريتية ، ولنا ما قالوه هم عن أنفسهم وأثبته هيرودوت فى تاريخه على لسانهم أن أجدادهم جاءوا من شواطئ الخليج الفارسى(١).

وأيا ما يكون الأصل الذى نشأ منه الفينيقيون فهم فرع من هذه الشجرة التى ازدهرت ونمت وترعرعت فى هذا الجزء من العالم ، وألقى عليهم القدر رسالة حمل حضارته وعلومه وفنونه ولغته وحروف كتابته إلى كل الساكنين حول حوض البحر الأبيض أولا ، ثم خارج نطاقه فى الجزر البريطانية ، وحول أفريقيا كلها التى كانوا أول من طاف حولها .

ولم يكن الفينيقيون أول من مخر البحار ، فقد دلت الحفريات الحديثة على وجود شعب بحرى فى جزيرة كريت .

بل لقد عرف المصريون القدماء ركوب متن البحار منذ أمد كبير سابق على ميلاد فينيقيا ، وقد كان النيل أكبر حافز لهم على صنع السفن التى تمخر عبابه وتخرج منه إلى البحر ، ولقد ظفرنا فى العصر الحديث بمراكب خشبية من صنع المصريين القدماء

(١) دورانت : قصة الحضارة — الجزء الثانى — المجلد الأول ص ٣١٠ .

مطمورة إلى جوار الأهرامات باعتبارها سفن الشمس ، ونرى السفن ذوات الشراع ، وذوات المجاديف منقوشة على جدران الهياكل والمعابد المصرية ... ويحدثنا تاريخ حتشبسوت أنها أرسلت سفناً إلى بلاد أرض بونت «الصومال» ولكن لم تكد فينيقيا تظهر فى الوجود حتى بدأنا نراها تقوم عن مصر بعملياتها البحرية . وإن الإنسان ليستطيع أن يتصور أن للمصريين القدماء استجلبوا الأرز وهو الخشب الصالح لصناعة السفن من فينيقيا ، ثم باع الفينيقيون بعد ذلك لمصر سفناً مصنوعة وجاهزة ، ثم ذهبوا إلى ما بعد ذلك فزودوا مصر بالسفن وملاحيها ، وبذلك قام تعاون وثيق بين البر والبحر فى عالم التجارة بين مصر وفينيقيا حتى ليسجل التاريخ أن الفينيقيين كانوا أول من طاف من البشر حول أفريقيا لحساب نخاو فرعون مصر فى القرن السادس قبل الميلاد ، فسبقوا بذلك ملاحى البرتغال « دياز وفسكودى جاما » بألفين من السنين أو أكثر .

وعرف البحر الأبيض المتوسط أول مدن عظيمة تشاد على شواطئه لعل أقدمها ببلوس أما أكبرها وأشهرها وأعظمها فمدينتا صور وصيدا .

ومن هذه المدن انطلقت حضارة الإنسان فى هذه الحقبة على متن هذه السفن ذات الشراع الواحد والسبعين قدما فى الطول

لتطوف حول حوض البحر الأبيض المتوسط بمحاذاة شواطئه ، فلم تكن البوصلة قد اخترعت بعد لتهدى الملاحين فى سيرهم ، وإن كان النجم القطبى فى الليل قد أصبح بعد قليل هادياً ومرشدا ، وأنشأ الفينيقيون المدن حيث ساروا فى جزيرة صقلية وفى سواحل إيطاليا ، وعلى شاطىء فرنسا ، وليست مرسيليا إلا أحد المواقع التى أسسها الفينيقيون ثم فى مالطه وكورسيكا ، حتى إذا وصلوا إلى أسبانيا التى كان يسكنها فى ذلك الوقت شعب ساذج بالنسبة للفينيقيين راحوا يغترفون ذهب القوم وفضتهم كما سيفعل الإسبانيون بعد عشرين قرنا بالنسبة لشعوب أمريكا الجنوبية . ومن أسبانيا عبر الفينيقيون مضيق الصخرة كما كان يعرف بهذا الاسم فى ذلك الوقت والذى سيسمى فيما بعد بجبل طارق وتابعوا رحلتهم بحذاء الشاطىء الأفريقى . . حتى إذا جاءوا إلى موقع تونس الفريد ، أنشأوا لهم كما هى عاداتهم مركزاً تجارياً ومستعمرة ، وأطلقوا على هذا الموقع اسم قرطاجنه ، والتى سيكون مقدراً لها بعد بضعة قرون ، وبعد أن تزول فينيقيا كقوة سياسية فى شرق البحر الأبيض ، أن تكون هى مركز القوة والسلطان والإشعاع فى هذا الجزء من حوض البحر الأبيض . ولقد كان الفينيقيون هم أول من أثبت أن الحضارة والمدنية تسير فى ركاب التجارة والتبادل التجارى ، فقد وجدت آثار مصر ، وآثار مصنوعاتها حيث ذهب الفينيقيون

وهذا ما يفسر وجود الآثار المصرية فى الجزر البريطانية[1].

على أن أعظم دين تداين به فينيقيا الحضارة الإنسانية إذا جاز هذا التعبير، هو تبسيطها الحروف الأبجدية التى اخترعها المصريون، وتحديد هذه الحروف بـ ٢٢ حرفا فى صورة مبسطة مجردة سهلة الاستعمال، ونشر هذه الحروف الهجائية فى حوض البحر الأبيض. والإجماع بين الباحثين على أن الأغريق تلقوا هذه الحروف عن فينيقيا وعن الأغريق والفينيقيين إلى بقية شعوب البحر الأبيض.

---

(١) دورانت المصدر السابق ص ٢١٣ .

الفصل الثالث

تطور الاديان والعقائد ـ اخناتون فى مصر ـ اليهودية وبنو اسرائيل ـ زرادشت واله النور ـ بوذا ومحاربة الالم ـ كونفشيوس معلم الصين

★★

مصر ترفع لواء التوحيد :

إذا كان الإنسان فى مصر قد رفع منذ عصر مبكر مشكاة الحضارة واللغة والكتابة والهندسة والطب والكيمياء وبقية الصنائع ، فقد كان مقدراً له ، وهو العريق فى تدينه كما رأينا ، أن يسهم بأوفر نصيب فى حضارة البشر الروحية ، عن طريق إطلاق أول دعوة لتوحيد الألوهية ، وتصوير الله بصورة زاهرة مشرقة تفيض بالخير والمحبة ، وتخلصها من أحابيل الكهان وخداعهم وطقوسهم ، وطلاسمهم .

وكان الإنسان الذى جاء يحمل للبشر هذا النور ملكا فرعونا وهو أمر لم يسبقه إليه سابق ، ولم يكرره من بعده التاريخ ، فالأنبياء الذين عرفهم البشر ، لا يمكن إلا أن يكونوا من عامة الشعب ، فما كان لملك يؤلهه الناس ويعبدونه فى أكثر الأحيان ، أن ينزل عن عرش

الألوهية طائعاً مختاراً وأن يطلب من الناس الكفران به وعبادة الله الذى يعلو فوق الجميع ويسوى بين الناس .

ولكن أمحوتب الرابع فرعون مصر (١٣٧٥ — ١٣٥٨ ق.م) كان هو الإنسان الفذ الذى أحدث هذا الحدث فى التاريخ . ولقد اعتبر أمحوتب الرابع الذى غير اسمه إلى اخناتون أى روح آتون فى نظر معاصريه من رعاياه ، كافراً ومجنوناً وملحداً ، بل اعتبر إنساناً مخربا يحطم الإمبراطورية المصرية ، أول إمبراطورية عرفها التاريخ ، والتى شادها تحوتمس العظيم (١٥٠١ — ١٤٤٧ ق . م) من خلال سلسلة المعارك الظافرة والانتصارات المجيدة التى بهرت العالم فى ذلك الزمان ، والتى ترتب عليها أن أصبحت رقعة مصر تشمل فلسطين وسوريا وفينيقيا وتصل إلى نهر الفرات وإلى جبال طوروس .

وبدلا من أن يتابع هذا الفرعون خطة آبائه وأجداده الذين بعثوا مصر من جديد إلى مثل ما كانت عليه فى عهد الأهرام ويزيد ، إذ أصبحت الحياة أكثر غنى بالفنون ومظاهر الاستمتاع ، بدلا من أن يكثر من استجلاب الذهب والفضة من البلاد التابعة ويقر الأمن والنظام ويؤدب العصاة والمتمردين ممن تحدثهم أنفسهم بعصيان فرعون مصر ، إذا هو يدعو هذه الدعوة (المنكرة!!) إلى

السلام والمحبة والتساوى بين البشر تحت ظل إله واحد (آتون) روح الوجود وخالقه وسيد العالمين .

صلاة أخناتون :

ويناجى أخناتون ربه آتون بكلمات عذاب ، ما أكثر ما يقارنها الأوربيون المسيحيون بمزامير داود[1] ، إذ يقول فى صلواته :

أنت خالق الجنين فى بطن أمه ، أنت خالق نطفة الإنسان ، أنت واهب الحياة للجنين فى رحم أمه ، أنت واهب الحياة للفرخ فى البيضة فاذا أتمت خلقه ثقب بيضته وخرج منها صائحا جهده وواثبا بقدميه .

ما أكثر مخلوقاتك التى نجهلها ، أنت الإله الأوحد ، لا شريك لك فى الملك ، خلقت الأرض بارادتك ، ولما كنت وحيداً فى هذا الكون ، فقد خلقت الإنسان والحيوان الكبير والصغير ، والمخلوقات التى تدب على الأرض أو تطير بأجنحتها . أنت الذى أحللت كل إنسان فى سوريا والنوبة ومصر فى موضعه ، وأنعمت عليه بحاجاته ، فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش أيامه المحدودة .

---

(١) بريستيد — تاريخ مصر القديمة (بالعربية) ص ٢٤٧ .

لقد اختلفت ألسنتهم وأجسامهم وجلودهم فسبحانك من مميز لخلقك .

وهكذا نرى اسم السورى يذكر إلى جوار المصرى إلى جوار النوبى باعتبارهم جميعاً أبناء لرب واحد كان يطلق عليه اسم « سيد الحب » « الأب الكائن فى السماء » « الرحمن الرحيم الرؤوف بعباده»

وحيث كانت فينيقيا وأشور وشعوب الأرض فى ذلك التاريخ وبعده تتقرب لآلهتها بالذبائح البشرية ، وتقيم مصر هيا كلها ومعابدها ضخمة جبارة « كمعبد الكرنك » ومعتمة مظلمة لتخلع قلوب البشر وتملأهم رهبة وخشية وروعة ، هاجر اخناتون من طيبة موطن عبادة آمون ، ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وارتحل شمالا حتى مدينة البلينا وأنشأ عاصمة ديانته الجديدة فى تل العمارنة ، وأقام هيكلا عجباً للرب الواحد الأحد .. لقد كان الهيكل يتألف من ساحة كبيرة مكشوفة يغمرها نور الشمس نهاراً ، وتظلها كواكب السماء بالليل ، وفى بعض أجزائها سقائف وحجرات لسكنى الخدم ، وموظفى المعبد، وفيها خلا مائدة القربان التى وضعت فى وسط الساحة ، لم يرتفع فى هذا المعبد تمثال أو نصب أو تابوت للرب ، وأحيط المعبد بعد ذلك بالحدائق الغناء التى استنبتت فيها أجمل الزهور والرياحين ، وأجريت فيها جداول الماء ، وأنشئت فيها أحواضه لتسبح فيها الطيور ذات الريش الجميل والدواجن من بط وأوز ، ذلك أن الأزاهير والطيور والمياه والحيوانات والأشجار ،

كلها كائنات تسبح بحمد الرب الخالق ، وتشهد ببديع صنعه وعظيم آلائه[1].

ذلكم هو اخناتون أول دعاة توحيد الألوهية ، وتساوى البشر وتآخيهم فى تعاون وسلام ومحبة .

الثورة ضد اخناتون :

وغنى عن البيان أن هذا الصوت الإلهى الرفيع قد بدا كما ذكرنا فى ذلك الوقت شاذاً وغريباً ، فلا عجب إذا ثار عليه كهنة آمون الذى كان هذا الدين الجديد يقوض سلطانهم وينزلهم عن عرشهم وساعدهم على ثورتهم ، تمرد الشعوب فى سوريا وفينيقيا وفلسطين ، وبدلا من أن يرسل لهم اخناتون عجلاته الحربية كما فعل تحوتمس من قبل وكما سيفعل رمسيس من بعده ، أرسل اليهم هداة يدعونهم إلى الدين الجديد ، دين الرحمة والحب والمساواة . وكانت هذه دعوة سابقة لأوانها فى هذه العصور الخشنة فعمت الثورة أرجاء مصر ، ومات اخناتون أو بالأحرى قتل على يد كهنة آمون والشعب الثائر ، وأسرع خلفه توت عنخ آتون فتبرأ من اسم آتون ولاذ من جديد بآمون وأصبح اسمه « توت عنخ آمون » كما خف سريعا إلى طيبه مقدما القرابين لإلهها آمون . وإن الإنسان ليحار . . . أهى محض صدفة أم هو تخطيط معين من القدر ، أن يكون توت عنخ آمون

(١) بريستيد — تاريخ مصر القديمة ، ومن وحى الجنوب (المؤلف) .

هذا هو الذى يقدر له أن يهز وجدان العالم هزا فى القرن العشرين، ويبعث ذكرى اخناتون ودعوته إلى التوحيد ، عندما اكتشفت مقبرته لأول مرة عام ١٩٢٤ فروع العالم وما زال يروع بأعظم كشف أثرى فى التاريخ ، جعل حضارة مصر القديمة وفنون مصر القديمة وغنى مصر القديمة على كل لسان فى العالمين .

الديانة العبرية وبنو إسرائيل :

وقد حاول الكثيرون أن يربطوا بين دعوة اخناتون ، ودعوة العبرانيين المتأخرة إلى التوحيد ، باعتبارها جاءت فى الترتيب الزمنى بعد دعوة اخناتون ، ولكن المطالع لكتاب العهد القديم (التوراة) الذى يتخذه اليهود كتابا مقدسا ، لا يجد مصداق هذا الرأى ، بل يجد عكسه على خط مستقيم (فيهوه) إله اليهود (الخاص بهم) أو إله إسرائيل كما يلقبونه ، يسمى دائما « رب الجنود » وهو رب دموى كأى إله من الآلهة الوثنية فى ذلك الوقت، يطالب اتباعه بإبادة جميع الشعوب التى تعترض سبيلهم بنفس أسلوب اشوربانيبال ، وبنفس الأسلوب الذى سوف يتبع مع اليهود أنفسهم على مر العصور .

ولعل ما هو أغرب من ذلك كله فى وصف هذا الرب الإسرائيلى (الخاص بهم) أنه محدود القدرة ، وهو غير معصوم عن الخطأ ، وهو يندفع فى ثورته وغضبه ، فيزجره موسى قائلا « ارجع عن

حمو غضبك واندم على الشر لشعبك — فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه »[1] .

والمطالع لـكتاب العهد القديم ، الذى حوى تاريخ اليهود على مر السنين ، يصادفه من أمثال ذلك ما يدهش ويبعث الاستنكار فى النفس ، ولـكنه مع ذلك قد أخذ مكاناً كبيراً فى دنيا التاريخ والأدب والحياة الروحية لبنى الإنسان ، إذ قدر للمسيح فيما بعد أن يخرج من هذا الشعب . وأيا كان الرأى فى العهد القديم ، فهو يمثل أقدم كتاب متداول يضم بين دفتيه علوم العالم القديم ومعارفه وحضارته ، كما كانت تتمثل فى أرض مصر وأشور وبابل وفارس وفلسطين وفينيقيا وسوريا .

الوصايا العشر :

وقد اشتهرت الديانة اليهودية بوصاياها العشر التى دعا إليها موسى بعد إخراجه اليهود من مصر حوالى عام ١٢٠٠ ق . م ، باعتبارها وصايا الله لشعبه إسرائيل. فهى أول تعاليم سماوية لا يزال يتعبد بها حتى الآن بين طائفة اليهود وإليك نصها :

١ — أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من دار العبودية فلا يكن لك آلهة أخرى تجاهى .

(١) سفر الخروج — الفصل الثانى والثلاثون — ١٣ ، ١٤ وانظر أيضا — دورانت — جزء ثان مجلد ١ — ص ٣٤١ وعبد الله التل — خطر اليهودية العالمية .

٢ — لا تصنع لك منحوتاً ولا صورة شيء مما فى السماء من فوق ولا مما فى الأرض من أسفل ولا مما فى المياه من تحت الأرض.

٣ — لا تحلف باسم الرب إلهك باطلا ، لأن الرب لا يزكى من يحلف باسمه باطلا .

٤ — اذكر يوم السبت لتقدسه .

٥ — أكرم أباك وأمك لكى يطول عمرك فى الأرض التى يعطيك الرب إلهك.

٦ — لا تقتل .

٧ — لا تزن .

٨ — لا تسرق .

٩ — لا تشهد على قريبك شهادة الزور .

١٠ — لا تشته بيت قريبك ، ولا تشته امرأة قريبك ، ولا عبده ،ولا أمته ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا شيئا مما لقريبك.

ولقد اعتبر بنو إسرائيل دائماً هذه الوصايا خاصة بهم فى علاقتهم ببعضهم باعتبارهم شعب الله المختار ، أما فى علاقتهم ببقية الشعوب فهم فى حل من تطبيق هذه الوصايا . ولم تتجه العقيدة اليهودية نحو التوحيد بمعناه الذى نفهمه إلا فى القرن الخامس ق . م على يد أشعيا الثانى .

وهـذا ما يجعلنا نخالف القائلين بأن الديانة اليهودية قد تأثرت بدعوة اخناتون .

زرادشت نبي النور وعدو الظلام :

والرأى الذى نرجحه أن تطور الديانة اليهودية نحو صورة أصفى وأكمل من التوحيد فى القرون المتأخرة ، قد جاء فى خلال فترة أسرهم فى بابل(١) ، حيث كان إلى الشرق منها قد بدأ دين جديد يغمر فارس التى كانت تدعى فى ذلك الوقت ميديا ، ويدعو إلى مبادىء سامية وإلى تصور أكثر رقيا لماهية الله الخالق ونسبته إلى النور ، وإن كان هذا الدين لم يرق إلى مستوى التوحيد الكامل وجنح إلى الثنائية ، بفكرة أن إله الظلام يواجه إله النور ، والشر يواجه الخير ، فكان بذلك سابقا لكل الذين جاءوا من بعده محاولين تفسير الطبيعة من خلال الثنائية . . . أو بالأحرى من خلال المتناقضات (الديالكتيك) . وكان صاحب هذا الدين الجديد هو زرادشت كما سمى بلغة الفرس الحديثة أو زوروواستر كما سماه الأغريق فيما بعد ، حيث يحتل الحديث عنه مكاناً بارزاً فى تاريخ هيرودوت .

(١) كان نبو خذناصر ملك بابل قد دمر مدينة أورشليم عاصمة اليهود وساقهم جميعا أسرى إلى مدينة بابل فى القرن السادس قبل الميلاد .

وقد حدد الإغريق لحياة زرادشت تاريخاً سابقاً على تاريخهم بخمسة آلاف سنة ، ولكن مؤرخا بابليا قرب هذا التاريخ إلى ألفى عام ق . م . أما المؤرخون المحدثون الذين يعتمدون على البحث والتنقيب فيحددون تاريخ زرادشت فى فترة تتراوح بين القرنين العاشر والسادس ق . م[1]

<u>أهورا مزدا الإله الحق :</u>

ولقد وجد زرادشت قومه يعبدون آلهة شتى هى آلهة الهنود من قبلهم ، ويختلف الرأى هل الهنود من الفرس ، أم الفرس من الهنود ، ولكن المحقق أن الاثنين يضمهم الأصل الآرى الذى يعتبر كتاب الفيدا المقدس هو أقدم كتاب دينى له ، وكتاب الفيدا يتحدث عن عشرات من الآلهة . . . آلهة لكل شىء ولكل قوة وظاهرة طبيعية — بل إن فى الفيدا نصوصا تتحدث عن مئات الألوف من الآلهة ، وعلى هذه الحالة وجد زرادشت قومه وهم عاكفون على النصب والتماثيل والأصنام من كل شكل ولون وطراز ، فأنكر عليهم ذلك كل الأنكار ودعاهم إلى عبادة الإله الحق الواحد الأحد « أهورا مزدا » إله النور ، وكما خاطب أخناتون آتون روح الشمس المشرقة ، فكذلك فعل زرادشت فراح يخاطب مزدا بالعبارات التى تفيض بالإجلال والتعظيم .

---

(١) دورانت — قصة الحضارة — جزء ٢ مجلد (١) ص ٤٢٥

« من ذا الذى رسم مسار الشموس والنجوم يا أهورا مزدا ، من الذى يجعل القمر يتزايد ويتضاءل ، من ذا الذى رفع السماء ووضع الأرض من تحتها ، من ذا الذى أمسك السماء أن تقع ، من ذا الذى حفظ المياه والنباتات ، من ذا الذى سخر للرياح والسحب سرعتها ، من ذا الذى أخرج العقل الخير ياأهورا مزدا(١) ».

وكان لأهورا مزدا سبعة مظاهر أو سبع صفات وهى : النور والحق والخير والخلود والعقل والطيب والسلطان .

أهريمن إله الشر :

وفى مواجهة اهورا مزادا الذى كان يمثل فى الحياة كل ما هو حق وخير وعدل وحسن ، كالصحة والعافية البدنية والعلم والمعرفة ، والبناء والإنشاء والتعمير ، والخصوبة والنظافة ، والحب والأمن والسلام ، والوفاء والصدق والإخلاص ، يقف أهريمن قوة الظلام والشر ليحدث فى الدنيا كل ما هو حزين وكئيب وضار ومؤذ ومعتم ؛ فالمرض والجذام والوباء والموت والدمار والخراب والظلم والحشرات المؤذية ، والجراد والقمل والجرب والقحط والليالى المظلمة ، والشتاء القارص ، والفقر والخطيئة ، كل ذلك من صنع أهريمن إله الظلام والشر ؛ وأصبح جوهر دعوة زرادشت لأتباعه الصالحين

(١) دورانت — قصة الحضارة — جزء ٢ مجلد (١) ص ٤٢٨

أن يقفوا إلى جوار أهورمزدا إله النور لينصروه على إله الشر بالقيام بالأعمال الصالحة بالبناء والإنشاء والتعمير ؛ بالحب بالسلام بالرحمة ، ولننقل الآن بعض فقرات من كتاب زرادشت المسمى « ألأفستا » لنرى إلى أى حد وصل الإنسان فى القرن العاشر قبل الميلاد فى بلاد فارس إلى التعلق بالمثل العليا فى الأخلاق والفضيلة والمعاملات .

« إن من يزرع الخير إنما يزرع القداسة — إننى ألعن الشيطان أهريمن ، وأقرر عبوديتى لمزدا ، وتبعيتى لزرادشت ، وعدوانى للشياطين وتمجيدى للملائكة . إننى أحرم السرقة وخطف المواشى ، وأحرم النهب والعدوان على قرى المخلصين لمزدا ، وأحترم حق أصحاب البيوت فى احترام مساكنهم وحرية إدارتهم ليعيشوا مع قطعان ماشيتهم ، إننى أقسم ويدى مرفرعة مخلصاً طائعاً ، أننى لن أسلب ، ولن أعتدى منذ الآن على الجماعات المؤمنة بمزدا ، ولن أحاول البتة أن أنتقم منهم انتقاما جسديا أو دمويا » .

« ليكن فى هذا البيت انتصار الطاعة وهزيمة العصيان ، ليسد فيه الحق والصدق ضد الكذب ، ليفشو بين جنباته السلام والأمن ، لا النزاع والشجار والقلق ، ليتصف بالكرم لا البخل ، والتواضع لا الكبرياء ، لتكن العدالة لا الظلم شعاره[1] .

---

(١) فى الإيمان والإسلام للمؤلف — ص ١٨ .

وإذا كان دين زرادشت قد حرف فيما بعد ، واعتبر بمثابة دين لعبادة النار التى كانت توقد فى المعابد رمزاً على النور ، فهو فى رأى الكثيرين من الدارسين فى الأديان يمثل صورة من أبهى صور العبادة :

الحضارة الفارسية :

ولا عجب وهذه تعاليم الدين ومبادئه ، دعوة قوية إلى البناء والتعمير ومحاربة التخريب والفساد ، فلا عجب إذا كان نقطة انطلاق لبلاد فارس ، فإذا هى فى هذه الحقبة من التاريخ تطلع على الوجود كأعظم قوة عرفها البشر حتى ذلك العهد ، لا تقف عند حد الرقعة التى وصلت إليها الإمبراطوريات التى سبقتها (مصر — وبابل وأشور) والتى ضمت فى أوسع مناطقها الرقعة من الأرض الممتدة من الخليج الفارسى حتى شاطىء البحر الأبيض وضفاف النيل ، بل لقد امتدت جنوباً لتشمل حوض السند ؛ وشمالا لتشمل القوقاز ومنطقة بحر قزوين .

ولمع فى سماء التاريخ اسم كورش الملك العادل الرحيم(١) وخلفه قمبيز ابنه الذى لم يستطع أن يصل إلى شأو أبيه فى الاتزان

(١) يقدس اليهود ذكرى كورش لأنه كان هو المنقذ الذى أنقذهم من أسر بابل وأعادهم إلى بيت المقدس .

والعدل والرحمة . وإن كان قد استطاع أن يدخل إلى مصر غازيا ، ومن بعدهما جاء دارا الأول أو دارا الأكبر (٥٢١ — ٤٨٥ ق . م) والذى كان مقدرا له أن يبدأ سلسلة الحروب والمعارك التى دارت مع هذه القوة الجديدة الوليدة قوة الإغريق ، والتى قد حان الوقت لنتحدث عنها منتقلين بذلك إلى الحديث عن أوربا التى بدأت تدخل التاريخ ، ولكن آسيا ما تزال تشدنا شدا وما زال فى هذا الحديث بقية . . . ومازالت كواكب من البشر أظلت العالم فى القرن السادس ق . م تزين صحف الحضارة الإنسانية أجمل تزيين .

الهند وبوذا معلمها :

رجحنا فى مطلع هذا الكتيب ، على أساس من الاستقراء والاستنتاج ، أن تكون الهند هى مهد الجنس البشرى ونقطة انطلاقه ، ومع ذلك فإن تاريخ الهند القديم ، هو من أغمض التواريخ حيث يلفه الضباب كهذه السحب التى تملأ سماء الهند ، ولم تترك الأمطار الغزيرة قديماً آثاراً فى الجنوب ، وليس إلا فى الشمال الغربى ، عند حوض نهر السند حيث اكتشفت آثار فى (موهنجودارو) التى يرجع تاريخها إلى ٣٠٠٠ ق . م ولم يحدد المؤرخون حتى الآن مدى علاقتها بحضارة بلاد ما بين النهرين ، من حيث أسبقية

إحداها على الأخرى ، وعندما ينقشع الضباب عن تاريخ الهند ككل ، نجد أنفسنا فى الفترة من عام ١٢٠٠ — ٨٠٠ ق . م حيث يسيطر الجنس الذى يسمونه بالآرى على بقية الأجناس الهندية ، مخلفا لنا كتب الهند المقدسة (الفيدا) والمكتوبة باللغة السنسيكريتيه ، حيث العشرات والمئات والألوف من الآلهة كما أشرنا من قبل ، وحيث الأسماء التى تقابلنا فى ديانة الفرس القديمة ، وتقابلنا عند الإغريق والرومان والقبائل (النوردية) فى شمال أوربا ، وقبائل الجرمان وغيرها من أمثال اندرا (إله الهواء) وأجنى (آلهة النار) وسوما (آلهة الخمر) وفارونا حامى نظام الكون .

ويطالعنا هذا المجتمع الهندى الفريد فى تكوينه من حيث انقسامه إلى طبقات (متحجرة) لا يجوز لأى من المنتمين إلى واحدة منها أن يتجاوزها إلى الطبقات الأخرى فضلا عن أن يتزوج بمن ليس من طبقته ، إذ أن مثل هذا الزواج لا ينجب إلا ملعونين مذمومين وهم المنبوذون والأنجاس . أما هذه الطبقات فهى طبقة (البراهما) أى الكهنة وهى أرقى الطبقات ثم تليها (كاشتريا) طبقة المحاربين والنبلاء . ثم الطبقة الثالثة (الويش — أو الفازيا) وهى تشمل أرباب المهن والحرف والزراع ، وأخيراً طبقة (الشودرا) وهم الخدم وأرباب المهن الدنيا والحقيرة .

والرأى الراجح أن هذه الطبقة الأخيرة هى أول من عزلهم الآريون لسواد لون جلدتهم .

وليس لهذا التقسيم الطبقى أى أساس من الدين الهندى القديم كما قد يتصور البعض ، فليس فى كتب الفيدا ما يشير إليه . وليس يتسع المجال للإفاضة فى الحديث عن دين الهند الذى لا تقوم حياة الهند فضلا عن حضارتها إلا عليه ، فهو من الأمور المستعصية التى أعجزت الباحثين عن الإلمام فضلا عن الإحاطة به[1] .

على أن الديانة الهندوكية لا تكاد تذكر إلا ويتبادر إلى الذهن على الفور الأصلان الجوهريان اللذان تقوم عليهما :

١ — وحدة الوجود .

٢ — عقيدة تناسخ الأرواح .

فأما وحدة الوجود فتتلخص فى أن ليس هناك إله خالق وكون مخلوق ، وإنما هو إله واحد فاض منه الكون بكل أجزائه ، فليس فى الوجود إلا الله . . . وكل ما تقع عليه العين هو مظهر الوجود الواحد ، لا الأرض والسموات والأشجار والغابات فحسب ، بل وكذلك الإنسان والحيوان أو كما جاء فى الجيتا : العارف الذى يعبد الله ، يرى الكثرة فى الوحدة ، والوحدة فى الكثرة ،

---

(١) أمة تبعث — للمؤلف

وأينما يتولى يرى وجه الله ، إنه تعالى فى كل شيء وهو الحى الذى لا يموت وهو الرب الذى يقوم به كل شيء(١) .

وهذا الفكر الذى سبق به الهنود ، لا يفتأ يقابلنا فى كل زمان ومكان عند مختلف الأمم والشعوب ، ومئات وألوف من الفلاسفة والمفكرين ، وما بعض متصوفة المسلمين إلا من معتنق هذا المبدأ على وجه التحقيق ، حيث يقول لنا الحلاج :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

إنى مغرق قوم نوح ومهلك عاد وثمود . . . أنا الحق .

وتصادفنا ذات الفكرة عند المسيحيين والعدد الكبير من كبار مفكريهم وفلاسفتهم .

عقيدة التناسخ :

أما فكرة الهندوكية الثانية ، فهى عقيدة التناسخ التى تتلخص فى أن روح الإنسان تتقمص بعد وفاته ، صورة جديدة وشكلا جديدا تبعا لأعماله ، فإن كانت أعمالا خيرة تقمصت روحه جسد إنسان من طبقة أعلى ، أما إن كانت أعماله شريرة ، فقد تتقمص روحه

(١) أمة تبعث — للمؤلف

جسد حيوان مفترس كذئب ، أو ثعبان أو عقرب يلعنها بنو الإنسان ويطأوها بالنعال .

وكانت فكرة التناسخ هذه وأبديتها تعتبر أعظم لعنة يعيش فيها الإنسان ، ولذلك فقد قيل إن الإنسان إذا أحرقت جثته بعد موته وألقى بها فى مياه الكنج ، توقفت عملية التناسخ ونعم بالراحة الأبدية ... ولكن ذلك ظل أمرا مشكوكا فيه .

ثم جاء بوذا :

ثم كان بوذا . وشخصية بوذا لا يمكن أن توضع إلا فى صف أصحاب الرسالات الكبرى فقد أحدث أثرا فى حياة مئات الملايين من البشر ولا يزال يحدث حتى الآن .

ومع ذلك فقد خلت تعاليم بوذا عن الحديث عن الله ، ولم يجعل تعاليمه إلى الإنسان أوامر صادرة لبنى الإنسان من الله بل صادرة منه شخصيا ، ولقد اشتهر عنه قوله :

« لست أعرف شيئاً عن سر الإله ، ولكنى أعرف أشياء عن بؤس الإنسان » . وربما استطعنا أن نفسر ذلك بأنه اكتفى بما جاء فى الفلسفة الهندوكية من كلام كثير فى هذا الموضوع ... وأنه أراد أن يضع مبادىء لسلوك الإنسان لتخلصه من الألم فى هذه الدنيا ،

وتضع حداً للعنة التناسخ الأبدى ، بإيصال الإنسان إلى حالة «النرفانا» التى ترمز للنعيم الأبدى .

ومن عجب أن بوذا ، الذى لم يقل شيئا عن الله ، قد تحول هو نفسه بعد موته إلى إله تشاد له المعابد والهيا كل ، وتقام له النصب التى يتقرب إليها أتباعه بالقرابين والتقدمات باعتباره المعلم الأكبر وروح الوجود والـكون .

قصة بوذا :

ويشبه بوذا أخناتون إلى حد ما من ناحية أنه ولد فى بيئة السلطان والنفوذ ، فقد كان ولى عهد لأبيه أمير إحدى ولايات الهند الشمالية ، وقد عاش بوذا حياته الأولى كما يحيا أمثاله من الأمراء العاطلين المدللين ، حيث لاهم لهم إلا الاستمتاع بالحياة . وعندما أدرك التاسعة عشرة من عمره تزوج من ابنة عمه الأميرة الجميلة ، التى لم تلبث أن أنجبت له غلاما ذكيا .

وقد حدث أن خرج بوذا ذات يوم من الأيام فى مركبته التى يسوقها أحد أتباعه ، فإذا نظره يقع لأول مرة على رجل عجوز قد أثقلت السنون كاهله فراح يدب وقد انحنى ظهره فى صورة مؤلمة ، فانزعج لمرآه . . . بينما قال له سائق عربته « هذا يا مولاى

هو طريق الحياة » فعاد بوذا كئيبا وقد عزف عن نزهته .

حتى إذا عاود الخروج مرة ثانية ، إذا نظره يقع على انسان شحاذ قد هرأه الجوع والذل وشوهه البرص . . فازداد فزع بوذا وجزعه بينما كان سائقه يقول له :

« وهذا أيضا طريق الحياة يا مولاى »

فانطلق بوذا وقد استبد به الذعر ، فإذا هو يرى جثة عارية ملقاة على الطريق وقد جفت ونتنت ، وإذ أوشك أن يغمى على بوذا من هذا المنظر كان صاحبه سائق العربة يهمس له « وهذه ياسيدى هى نهاية الحياة » .

وبدأت قصة بوذا ، فقد قرر أن يهجر القصر وحياة السلطان والبذخ ، وأن يكرس نفسه للبحث عن حقيقة الحياة ، فخرج من قصره ، حتى إذا صادف أول متسول تبادل معه ملابسه الثمينة بأسماله الباليه ، وراح يضرب فى بيداء الأرض هائما ، جائعا شريدا ، معذبا نفسه ، مما هز قلوب البعض فرأوا فيه استاذا ومعلما فتبعوه وهم يبكون من فرط ألمهم على مايفعله بنفسه وقد سلك طريق بعض النساك والبراهمة ، عندما يفرطون فى إجاعة الجسد وتعذيبه أشد العذاب للوصول إلى المعرفة . ولكن ذلك لم يجد بوذا شيئا سوى اضطراب حياته وتشويش فكره ، ففاجأ أصحابه

الملتفين حوله ذات يوم بأن طلب منهم الطعام والشراب ، فأصابهم ذلك بخيبة أمل شديدة ، وتفرقوا عن هذا الإنسان الذى ضعف وعاد إلى فتنة الجسد . . إن بوذا ليس هو القديس الذى تصوروه إنه يأكل ويشرب كبقية الناس .

وفى ذات ليلة بينما كان بوذا يعيش وحيدا يكافح الشك والقلق فى الغابة تحت إحدى الأشجار « التى أصبحت خالدة » إذ هبطت عليه سكينة عظيمة غمرت قلبه . وعندما استيقظ فى الفجر لم يكن هو جوتاما الذى كان بالأمس ، بل بوذا أى المتنور ، ذلك أن الحقيقة قد انكشفت له فأدرك سر الآلام التى يتكبدها البشر ، وعرف أسبابها وطريق علاجها . فطلع على الناس بتعاليمه الخالدة التى تهز النفس أيا كان تفكيرها وكانت عقيدتها وكان إيمانها .

لخص بوذا تعاليمه فيما أسماه « الحقائق النبيلة الأربع » :

الحقيقة الأولى : الحياة ألم — منذ يولد الانسان حتى يموت والأكدار تلاحقه والآلام تسيطر عليه .

الحقيقة الثانية : سبب الآلام — رغبات الإنسان وشهواته سواء كانت مادية أو معنوية ، فليست الرغبة سوى نار تحرق صاحبها ، وكلما تحققت الرغبات ولدت رغبات جديدة أكثر اشتعالا ، فكأنها النار يصب عليها البترول .

الحقيقة الثالثة : *إيقاف الألم* — عن طريق التحرر والخلاص من الرغبات « وهذا هو جوهر البوذية »

الحقيقة الرابعة : *كيفية منع الألم* — وتتلخص فى ثمانية مبادىء .

١ — الإدراك الصحيح للحقائق الأربع .

٢ — الأهداف الصحيحة — بالتخلى عن الملذات وعدم اضمار الحقد أو الحسد أو الكراهية أو رغبة الايذاء

٣ — القول الصحيح — الابتعاد عن كل زور وبهتان فى القول وعن السب والإهانة وكل ألفاظ خشنة أو ثرثرة فارغة .

٤ — السلوك الصحيح — وهو يتناول فضائل الحياة مع الضغط على التحذير من القتل ، وأخذ ماليس من حق الإنسان وكل صنوف الاستهتار أو التحلل والاستغراق فى الشهوات .

٥ — الجهد الصحيح — وفى هذ المبدأ يقول بوذا « لسنا فى الحقيقة سوى ثمرة لمايعتمل فى تفكيرنا — وعندما يتكلم الإنسان ، أو يتصرف بفكرة شريرة فإن الألم يتبع ذلك على الفور — وإذا تكلم أو تصرف بأفكار خيرة فإن السعادة تتبع ذلك كما يتبع الظل الشىء دائما

٦، ٧ — العقلية الصحيحة — ويندرج تحتها — ضبط النفس، ويقول بوذا فى شرح هذا المبدأ . إذا كان هناك رجل قد انتصر على ألف رجل فى ألف معركة — وثمة رجل قد انتصر على نفسه ، فإن هذا الأخير هو أعظم الرجلين [١] .

٨ — النشوة الصحيحة — وتلك هى ختام المراحل التى لا يحصل عليها الإنسان إلا من خلال التأمل والتفكير العميق للوصول إلى الإشراق الروحى ، فيصبح الإنسان حرا من كل العواطف التى تربطه بالحياة ، ويدخل بذلك إلى حالة السكينة والسلام سكينة «النرفانا»

وهكذا ، قبل أن يطلع على الدنيا يسوع المسيح حاملا للدنيا رسالة الحب والسلام والزهد والتواضع ، كان بوذا قد سبقه إليها بستة قرون . وإذا كان يسوع المسيح قد ترعرع فى بيت صغير متواضع ، هو بيت يوسف النجار ، فإن ذلك يتسق مع ثورته بعد ذلك على المال والغنى والسلطان ، ولكن غير المتسق والذى يخالف طبائع الأشياء ، أن يكون بوذا ، سليل الملوك ، والمترعرع فى بيئة

---

(١) ما أشبه هذا القول بقول سيدنا محمد إذ عاد من إحدى الغزوات «عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس» .

الغنى والعز والسلطان ، هو الداعى لهذه المبادىء المتجردة السامية العجيبة ، فلا عجب وهذا شأنه أن يؤثر كل هذا التأثير العجيب ، ولا يزال يستولى على أفئدة المئات والألوف من كبار المفكرين والفلاسفة من رجال أوروبا وأمريكا حتى فى هذا العصر الحديث(١) .

الملك أشوكا والحضارة البوذية :

وكما أنتجت تعاليم زرادشت ملكا حضاريا عظيما ، فكذلك كان شأن تعاليم بوذا ، فقد شقت طريقها فى خاتمة المطاف إلى قلب أحد ملوك الهند وهو « أشوكا » فأعلن على رؤوس الأشهاد عهده أن ينبذ روح العسكرية والجندية ، وأنه لن يحارب بعد اليوم ولن تعرف الدنيا على يديه سوى السلام وأنه سيكرس حياته لنشر التعاليم البوذية . ذلكم هو أشوكا الذى امتد سلطانه على شبه الجزيرة الهندية كلها ابتداء من أفغانستان حتى طرفها الجنوبى ، مكونا بذلك أول وحدة هندية يعرفها التاريخ عام ٢٦٤ ق.م . وقد استمر حكم أشوكا ٢٨ سنة تعتبر من أزهى صفحات التاريخ الإنسانى بأ كمله ، فقد أوقف حياته على التعمير ، فنظم جماعات لم يكن لها عمل إلا حفر الآبار فى طول الهند وعرضها ، وجماعات لتغرس الأشجار التى تزود الناس بالثمار والظل ، وأنشأ المستشفيات ونظم مزارع

---

(١) يعتبر تولستوى أعظم كتاب الروس من المتأثرين بالمبادىء البوذية ، أما غاندى فهو تلميذه فى دعوته إلى عدم العنف .

خاصة لإنبات الأعشاب الطبية لمداواة المرض ، وأنشأ ما يمكن أن نسميه وزارة خاصة للعناية بمنكوبى النظام الطبقى فى الهند ، وهيأ السبيل لتعليم المرأة ، وأعاد تنظيم جماعات الرهبان البوذيين ، ودعاهم إلى تخليص العقيدة البوذية من الخرافات والإضافات والانحرافات ، داعيا إياهم من جديد للعودة إلى بساطة تعاليم المعلم الكبير . وأوفد البعثات تبشر بدين بوذا ، دين المحبة والسلام وكراهية العنف إلى أرجاء العالمين ، إلى كشمير وسيلان وفارس . . . بل وإلى مصر ، أو بالأحرى عاصمة مصر وعاصمة الدنيا آنذاك ونعنى بها مدينة الإسكندرية(١) .

وكونفشيوس فى الصين :

ولا يكاد بوذا يذكر كأحد معلمى الإنسانية ، حتى يذكر كونفشيوس على الفور والعكس بالعكس ، فإلى الشمال الشرقى وإلى الشمال من الهند تقع هذه البلاد العظيمة الرهيبة التى تكاد تؤلف ربع الدنيا . فكأنها نصف آسيا تقريبا على مر الأيام والعصور ، ومساحتها كقارة أوربا تقريبا ومع ذلك فهى تضم شعبا واحدا ، يتكلم بلغة واحدة ، ويكتب بطريقة واحدة وله طباع وعادات واحدة ، بالرغم من أن عدده اليوم يناهز السبعمائة مليون ، فلاعجب

---

(١) دورانت — قصة الحضارة .

وهذا شأن الصين أن يكون تاريخها ضاربا فى القدم إلى أبعد مايصل إليه الإنسان ، وإذا كنا قد استلهمنا فكرة القدم مما توجد عليه الهند وشعوبها من اختلاف فى اللغات والأشكال والألوان ، فإن فكرة هذه الوحدة الصينية الفريدة المثال ، يمكن بدورها أن تكون الوجه الثانى للقدم ، وكيفما كان الأمر فإن بقايا « انسان بكين » التى عثر عليها جعلت علماء الأركيولوجى يقررون أن حضارة العصر الحجرى الأوسط ، قد وجدت فى الصين منذ عشرين ألف سنة ، وأرجح الآراء اليوم تعتقد أن الثقافة الصينية قد دامت سبعة آلاف سنة متواصلة غير منقطعة ، وهى ظاهرة قل أن توجد فى مكان على ظهر الأرض غير الصين « باستثناء مصر القديمة » فلا عجب وهذا شأن الصين أن تفتن عقول المفكرين والعلماء والحكماء لا فى العصور القديمة فحسب عندما زارها ماركوبولو وابن بطوطة وقالا عنها ما قالا ، بل فى العصور الحديثة جدا ، فى عصر النهضة الأوربية العارمة فى القرن الثامن عشر ، فهذا فولتير يقول لنا :

لقد دامت هذه الإمبراطورية أربعة آلاف عام دون أن يطرأ عليها تغيير يذكر فى القوانين أو العادات ، أو اللغة ، أو فى أزياء الأهلين ، وإن نظام هذه الإمبراطورية لهو فى الحق خير ما شهده العالم من نظم .

وقال الكونت كيسرلينج بعد أن توفر على دراسة حياة الصينيين وتاريخهم عن كثب فى كتاب له يعد فى رأى الثقات من أغرز الكتب علما :

« لقد أخرجت الصين القديمة ، أكمل صورة من صور الإنسانية وكانت فيها صورة مألوفة عادية ، وأنشأت أعلى ثقافة عامة عرفت فى العالم كله ، وإن عظمة الصينيين لتتملكنى وتؤثر فىّ كل يوم أكثر من ذى قبل ، وإن عظماء تلك البلاد ، لأرقى ثقافة من عظماء بلادنا ، وإن أولئك السادة لهم طراز سام من البشر وسموهم هذا يأخذ بلبى . إن تحية الصينى المثقف لتبلغ حد الكمال ، وليس ثمة من يجادل فى تفوق الصين فى كل شأن من شئون الحياة ، ولعل الرجل الصينى أعمق رجال العالم على بكرة أبيهم(١) .

ولن أزيد فى هذه العجالة عما ساهمت به الصين فى حضارة البشر منذ العهود القديمة ، أكثر من أن أذكر القارئ العزيز أنه قد يتلفظ اسم الصين ومنتجات الصين أكثر من عشرات المرات كل يوم وهو يتحدث عن حاجاته الأساسية ، فأطباق الطعام « الصينى » إنما ترمز لهذا التراث الجميل الذى قدمته الصين للبشرية وهو الخزف الأبيض المنقوش الذى يعتبر أنظف وأصح إناء ، لا ليأكل فيه

(١) دورانت — الجزء الرابع – مجلد (١) ص ٩ .

الإنسان فحسب ، بل وليضع فيه مختلف المواد الطبية وهو آمن عليها من التلوث .

وعندما تطلب كوبا أو فنجانا من الشاى كأجمل وألذ ما تشرب الإنسانية من مشروب جميل صحى ، فنحن نبارك من حيث لا ندرى الصين التى قدمت لنا هذا المشروب والمشتق اسمه من اسمها ، وعندما تختال عرائسنا فى ثوب العرس المصنوع من الحرير الطبيعى ، أو يختب رجالنا فى أقمصتهم الحريرية كأفخم ما يمكن أن يلبسوا ، فليس ذلك بدوره إلا من مبتدعات الصين ، وعندما نستطيب طعم الأرز كأفخر طعام ، فلا يجب أن ننسى أنه بدوره من هدايا الصين .

وعندما نؤرخ لانتشار الثقافة والعلوم بعد اختراع الطباعة والورق الحديث ، فيجب أن نقدم شكرنا للصين ، فقد كانت بلا جدال أو شبهة مخترعة الطباعة ومزاولتها على أوسع نطاق قبل أن يصنع جوتنبرج آلة طباعته الأولى فى ألمانيا بعدة قرون . بل وحتى عندما نتحدث عن حروبنا الحديثة . . . وكيف تحولت من حروب محدودة تدور بين الفرسان، إلى حروب شاملة مخربة مدمرة ، فقد كانت الصين هى مصدر البارود ومكتشفته . وعندما تروعنا الصواريخ الصاعدة إلى السماء ، فإن الصين ترد على الفور كأقدم صانعة للصواريخ ؛ وعندما نقرر أن الكشوف الجغرافية الحديثة

عبر البحار ما كانت لتتم بغير « البوصلة » فعلينا أن نذكر فضل الصيني . وهكذا صنعت الصين مئات الحاجات التي نستخدمها في حياتنا اليومية والعلمية ، ويتصورها الكثيرون من نتاج أوربا ، أو من صنع التطور الحديث وهي ليست في حقيقتها إلا من صنع الصين وإنتاجها ، وسبقت بها البشرية الحديثة بالعديد من القرون ، فالتعامل بأوراق النقد ، ونظام البنوك والتأمين ، وتحقيق الشخصية والسفن الكبرى من عابرات المحيط ، كل ذلك من صنع الصين منذ عصر مبكر(١) .

كونفشيوس :

ولا يكاد اسم الصين يذكر ، إلا ويرد على الفور اسم كونفشيوس الذي كان أول من كتب تاريخها ، وحفظ تراثها القانوني والأدبي ، ثم رسم طريق السلوك في الحياة لكل خلية من خلايا المجتمع ابتداء من الصبي الصغير حتى الملك الكبير في العسر مثل ما في اليسر ، في الصحة مثل ما في المرض ، في الحرب والسلام على السواء ، للرجل مثل ما للمرأة ، للعالم مثل ما لغير المتعلم . والإجماع منعقد على أن أعظم رجل صبغ ويصبغ حياة الصينيين منذ خمسة وعشرين قرناً هو كونفشيوس .

وليس كونفشيوس نبياً ولا هو قديس ، بل وليس من طراز

بوذا الباحث عن سلام النفس وخلاصها من خلال الزهد والتجرد .. وإنما هو معلم بالمعنى الفنى لهذه الكلمة ، هو مدرس ومعلم وسياسى ، وهو فيلسوف بالقدر اللازم لإحسان سياسة الفرد والجماعة والدولة . وقد كان ذلك شأن الصينيين دائماً ، فلم يشغلهم ماوراء الطبيعة بقدر ما أهمتهم وشغلتهم هموم الدنيا ومشكلاتها ومحاولة التغلب عليها . ويمكن اعتبار كونفشيوس أعظم من كتب فى سياسة الأمم والجماعات ووضع القواعد التى يراها مؤدية لسعادة الجنس البشرى . وقد رسم بكل تفصيل ودقة كل ما ينبغى للفرد ، كل فرد ، أن يحصله ويتعلمه ويجيده لكى يجعل من نفسه «الإنسان الكامل» ورسم بكل دقة وتفصيل ، كل ما يلزم لتنظيم علاقات أفراد الأسرة الواحدة ، لكى تكون أسرة سعيدة وناجحة .

ورسم بإسهاب وفى غير ملل أو كلل ، كل ما يلزم للحاكم وجهاز الحكم ، من مبادىء وقواعد ونظم لكى يتحقق ما نسميه اليوم بمجتمع الرفاهية والعدل ، ولكى يسعد المحكومون .

وعاش كونفشيوس طول عمره يطوف فى أرجاء الصين ، باحثا عن الملك والأمير الذى يتخذ منه وزيراً لكى يطبق مبادئه فى فن الحكم والإدارة وقيادة الجماهير وإسعادهم ، فلم يظفر بأمنيته إلا مرة واحدة ، إذ ولاه أحد الأمراء زمام الأمور ، ولكن

دسائس البلاط وغيرة بقية الأمراء من نجاح كونفشيوس انتهيا به إلى العزل والعودة إلى تشرده من جديد فى البحث عن ملك أو أمير عادل يرضى بأن يكون تلميذاً له . ولم يبق أمام كونفشيوس فى خاتمة المطاف إلا أن يلقن مبادئه لعشرات من التلاميذ الذين التفوا حوله يتعلمون منه ، ومات كونفشيوس مقهوراً عام ٤١٩ ق . م خائب الأمل لعدم استطاعته أن يحقق حلمه العظيم فى تحويل الصين إلى ما أطلق عليه اسم « جمهورية التوافق العظيم » حيث تتحول الدنيا كلها إلى جمهورية واحدة يتعاون الناس فيها فى إخلاص ومحبة ، عاملين من أجل السلام العالمى . وفى هذه الدولة لن ينظر الإنسان لوالديه باعتبارهم آباءه من دون البشر ، كما لن ينظر إلى أبنائه ، باعتبارهم أولاده من دون الناس أجمعين ، حيث يحصل كل رجل على حقه ، وكل امرأة على شخصيتها ، حيث تختفى الأنانية ولا تجد نافذة لتطل منها ، حيث يتطهر وجه الأرض من اللصوص والمجرمين والخونة والأشرار ، فقد تحولت الدنيا كلها إلى التوافق العظيم (١) .

نقول لم يكد كونفشيوس يختم حياته ، حتى انتشر تلامذته فى أرجاء الصين ينشرون مبادئه وتعاليمه ، التى لم تلبث أن أخذت طابع القداسة وأصبحت دينا للصينيين .

---

(١) Religious Leaders, ص ٦٧

الإنسانية :

ويمكن تلخيص تعاليم كونفشيوس التى ملأت عشرات المجلدات ومئات الكتب فى كلمة واحدة وهى « الإنسانية » .

فالفضيلة بالنسبة للإنسان الفرد هى أن تحب الناس ، والحكمة فى أن تفهمهم . وإذا كانت الأسرة هى صورة المجتمع ، فإن الجنس البشرى كله يؤلف أسرة واحدة ، فيقول أحد تلامذته .

ما بين البحار الأربعة ، جميع الناس إخوة .

ويقول كونفشيوس ، إن الرجل الفاضل حقا الذى يريد أن يبنى كيانه الخاص ، يجب أن يفعل ذلك من خلال بناء كيان الآخرين. والذى يريد النجاح لنفسه ، عليه أن يكافح من أجل إنجاح الآخرين وأن تكون قاعدته الذهبية هى « أن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به[1] .

ويزيد كونفشيوس الأمر تفصيلا فى واجبات الرجل الفاضل أو « الإنسان الكامل » — يجب أن يكون فياضا بالعطف على الناس جميعاً ، لا يغضبه أن يسمو غيره عليه ، فإذا رأى أفاضل الناس فكر فى أن يكون مثلهم ، وإذا رأى سفلة الناس ، عاد إلى

(١) دائرة المعارف البريطانية . مادة كونفشيوس .

نفسه يتقصى حقيقة أمره . والإنسان الكامل يضع نصب عينيه أمورا لا ينفك يقلبها فى فكره :

١ — بالنسبة لعينيه يجب أن يرى بوضوح .

٢ — بالنسبة لحديثه ، يجب أن يكون مخلصا .

٣ — بالنسبة لوجهه ، يجب أن يحرص دائماً على أن يكون وقورا .

٤ — وفى تصريف شئون عمله ، يجب أن يكون حريصا على بذل أقصى عنايته .

٥ — وفى صلاته بالآخرين ، يجب أن يبعث فيهم الاحترام لشخصه .

٦ — وفى الأمور التى يشك فيها ، يجب أن يحرص على سؤال الآخرين ممن يعلمون .

٧ — وإذا غضب فيجب أن يفكر فيما يجره عليه غضبه من الصعاب .

٨ — وإذا لاحت له المكاسب فكر فى العدالة والاستقامة .

ذلكم هو كونفشيوس حكيم الصين ومعلمها ، فهل يدهشنا الآن لماذا تفوقت الصين على سائر العالمين فى القديم ، وأسهمت بأكبر نصيب فى حضارة الإنسان ، وهل يدهشنا الآن أن نراها

وقد نهضت لتلحق بأعظم دول العالم ، وحيث لا تزال لغة القوة هى اللغة السائدة ، فقد جربت الصين قنبلتها الذرية ، ولـكن لا نستبق الحوادث ولنرجع إلى حديثنا عن التاريخ القديم ... تاريخ ما قبل الميلاد ، وقبل أن نفرغ من طىّ صفحة آسيا وشمال أفريقيا مؤقتاً ، لنفتح صفحة أوربا ، يجدر بنا أن نقدم قائمة الحساب ، حساب الشرقين القريب والبعيد إلى تراث الحضارة الإنسانية :

« على هذا المسرح الآهل بالسكان والثقافات المتباينة نشأت الزراعة والتجارة والخيل المستأنسة والمركبات ، وسكّت النقود ، وكتبت خطابات الاعتماد ، ونشأت الحرف والصناعات ، والشرائع والحـكومات ، وعلوم الرياضة والطب وطرق صرف الميـاه ، والهندسة والفلك ، والتقويم والساعات ، وصورة دائرة البروج ، وعرفت الحروف الهجائية والـكتابة واخترع الورق والحبر — وألفت الـكتب والموسوعات ، وشيدت المـكتبات والمدارس ، ونشأت الآداب والموسيقى والتحف وهندسة البناء وصنع الخزف المطلى المصقول ، والأثاث الدقيق الجميل ، ونشأت عقيدة التوحيد ، ووحدة الزواج واستخدمت أدهان التجميل والحلى ، وعرف النرد والداما ، وفرضت ضريبة الدخـل ، واستخدمت المرضعات ، وشربت الخمور .

عرفت هذه الأشياء كلها واستمدت منها أوربا وأمريكا ثقافتهما على مدى القرون عن طريق كريت واليونان والرومان .

وقصارى القول أن « الآريين » لم يشيدوا صرح الحضارة ، بل أخذوها عن بابل ومصر ، وأن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاء ، لأن ما ورثوه منها ، كان أكثر مما ابتدعوه[1] .

(١) دورانت — قصة الحضارة — جزء ٢ مجلد (١) ص ٩

الفصل الرابع

الحضارة الإغريقية

بلاد الاغريق ـ الياذة هوميروس ـ الالعاب الاولمبية ـ الديانة الاغريقية ـ الفلسفة ـ العلماء والفلاسفة ـ سقراط وافلاطون وارسطو ـ الشعر والتمثيل ـ الفرس والاغريق ـ الاسكندر فى الشرق ـ الهيلينية أو امتزاج الحضارة المصرية بالاغريقية ـ مدينة الاسكندرية

★★

الإغريق :

هم سكان ما يعرف اليوم ببلاد اليونان ، أى سكان شبه جزيرة البلوبونيز ، وشبه جزيرة أتيكا ، وما اشتهر يوما باسم تراقيا. ويقول مؤرخو الأوربيين الحريصون كل الحرص على إثبات تفوق الجنس الآرى ، إن الإغريق القدامى من الجنس الآرى ، وأنهم كانوا يسكنون فى بادئ الأمر فى منطقة بحر قزوين ثم هبطوا منها نحو سواحل غرب آسيا الصغرى وجزر الأرخبيل وشبه جزيرة اليونان. وكانوا فى أول عهدهم كشأن بقية أسلافهم من آريى أوربا ، برابرة متوحشين بالقياس إلى ما كان الإنسان قد توصل إليه من حضارة

ومدنية . فوجدوا فى هذا الجزء من العالم الحضارة (الايونية) أو الحضارة الأيجية نسبة إلى بحر إيجه ، وهى حضارة شادها شعب كان قد أصبح على درجة عالية من الحضارة ، لاتصاله بمصر القديمة إما مباشرة أو عن طريق فينيقيا ، وكانت زعامة هذه الشعوب الحضارية والروحية تنتهى إلى جزيرة كريت أو بالأحرى عاصمتها مدينة كونوسس حيث اكتشف من الآثار ما يدل على حضارة ترجع إلى أربع آلاف سنة قبل المسيح متأثرة بالحضارة المصرية .

على أن الأغريق القدامى قد برهنوا على أنهم شعب محب للعلم والمعرفة ، سباق إلى التمدن والتحضر ، فقد اغترفوا من منهل التراث الحضارى الذى سبقهم ، ولم يلبثوا أن أضافوا إليه إضافة جديدة جديرة بأن تنسب إليهم وأن ينالوا فخرها ، وهى تأصيل المعارف الإنسانية ، وصوغها فى شكل نظريات عامة تجريدية ، ثم تنظيم هـذه المعارف وتبويبها وتقسيمها من خلال إعلاء سلطان العقل البشرى ، واكتناه أسرار الطبيعة بواسطته ومن خلاله ، باستعمال ملـكة النقد والشك والتمحيص ، رافضين قبول الحقائق الجاهزة التى لايقوم عليها دليل أو برهان .

ولقد أدى ذلك إلى أن جعل من الأغريق معلمين لغيرهم من الشعوب وكل من اتصل بهم من خلال الحرب أو السلم ، ابتداء

من الرومان ، حتى الفرس والهنود والعرب فى خلال ازدهار حضارتهم ، وأخيرا فى أوربا الحديثة .

الياذة هوميروس :

وتعتبر الياذة هوميروس وأوديسيته التى يفرضون لها تاريخا تقريبياً عام ٩٠٠ ق.م أول تاريخ مكتوب لا للأغريق فحسب ، بل لأوربا كلها [١] .

والإلياذة هى هذه الملحمة الشعرية التى تصور حرب الأغريق ضد طرواده (حوالى عام ١١٩٦ ق.م) والتى انتهت بانتصار الاغريق .

وكان الاغريق خلال عدة قرون من تاريخهم يتألفون من قبائل متحاربة متعادية ، لم تلبث كل قبيلة من هذه القبائل أن أنشأت لنفسها مدينة خاصة بها . وهكذا امتلأت شبه الجزيرة اليونانية بعديد من المدن التى تؤلف كل منها دولة مستقلة ، وتتميز بطابع خاص وقوانين وأنظمة وحضارة خاصة ، ولذلك فسرعان ما اشتبكت هذه المدن فيما بينها فى عديد من الحروب ، بينما دخل بعضها فى مخالفات ضد البعض الآخر ... وساد السلام بين هذه المدن حينا ، واشتعلت الحرب فى أكثر الأحايين .

---

(١) A History of Europe . A Grant. p.L

اسبرطة وأثينا :

وبرزت من هذه المدن مدينة اسبرطة التى اتخذت من الصحة وقوة الجسم والتمرس على الحرب والقتال دينا وأسلوبا وهدفا للحياة فى ذات الوقت . وظلت تحكم بقواعد صارمة فى النظام والتربية ، من وضع « ليكرغ » قائدها ومشرعها وملكها .

على أن مدينة أخرى ، كانت الحياة فيها أقل صرامة وقيودا وأكثر مرحا وفنا وتمثيلا (وفلسفة) هى التى قدر لها أن تلمع فى تاريخ الاغريق وتعلو على غيرها من المدن ، وتلك هى أثينا التى تعتبر « صولون » هو أبوها الروحى ومشرعها ، وبركليس هو صاحب عصرها الذهبى . وإلى جوار أثينا واسبرطة ، كان حشد آخر من المدن الاغريقية التى تنال كل واحدة منها شهرة خاصة مثل كورنثه وطيبة وأرجوس ، ودلفى ، وفى هذه المدينة الأخيرة كان الوحى يهبط على كهانها وعرافيها ، فمن أراد استفتاء الآلهة فى أمر يغم عليه فى جميع أنحاء اليونان ، فقد كان عليه أن يحج إلى دلفى ويقدم القرابين للآلهة لكى يتلقى من خلال كاهن المعبد ... رأى الآلهة فى مشكلته .

الألعاب الأوليمبية :

على أنه لا اسبرطة مدينة القوة العسكرية ، ولا أثينا مدينة القوة الفكرية ، ولا دلفى مدينة القوة الروحية ، بالتى عملت

على توحيد الأغريق ، مثل ما عملت مدينة أوليمبيا حيث كان اليونانيون يلتقون بها ، فى سلام وأمن ، مرة كل أربع سنوات ، ليتسابقوا فيما بينهم أيهم بطل الابطال فى السرعة ، أو الوثب ، أو الجرى ، أو الملاكمة ، أو رمى القرص أو الجلة أو الرمح ... إلخ . ذلك أنه إذا كان للاغريق دين مشترك فهو عبادة الصحة والجمال حيث يقول سميندس أحد أعلامهم :

إن أحسن مايستطيع الإنسان أن يتمتع به هو الصحة الجيدة . وتأتى بعد الصحة جمال الشكل وحسن الطبع ، ثم تلى ذلك الثروة ينالها الإنسان من غير غش أو خداع ويأتى فى المرتبة الرابعة ، أن يكون الإنسان فى نضرة الشباب بين الأصدقاء والخلان .

بينما يقول هوميروس فى أوديسيته « ليس ثمة مجد يستطيع الانسان أن يناله طوال حياته ، أعظم مما يناله بيديه وقدميه[1] » .

الدين الأغريقى :

ويختلف دين الأغريق عن كل مامر بنا من الأديان « عدا العبرية » ، فى أنهم لم يتخيلوا العديد من آلهتهم إلا على صورة إنسانية بحتة بكل مافى الانسانية من نقائص فى بعض الأحيان ، فالآلهة تغش وتخدع وتسطو وتنهب بل وتفسق وتزنى بزوجات

(١) دورانت جزء أول ـ مجلد «٢» ص ٣٨٥

الآلهة الأخرى ، وزوجات الإنسان على السواء . وليس من فارق بين الإنسان والإله إلا أن الإنسان قصير العمر فهو يموت ، أما الآلهة فخالدة لاتموت . بل وباستطاعة الإنسان دائماً أن يرقى إلى رتبة الآلهةفيصبح من الخالدين من خلال الأعمال البطولية التى يقوم بها مثل هرقل . ومن ناحية أخرى فما أكثر مايتصل الآلهة ذكوراً وأناثا بأفراد من البشر فينجبون منهم ومنهن أنصاف آلهة .

فالإنسان وصورة الإنسان وخلق الإنسان ، كان عند الأغريق هو أعلى صورة فى الوجود فلا تعلوها صورة أخرى .

وقد احتاج المجتمع الأغريقى إلى بضعة قرون ، قبل أن ترتفع من بين المفكرين والفلاسفة أصوات الاحتجاج ضد هذه الفوضى فى تصور الألوهية ، فراح اكسينوفان يقول :

« إن الناس قد أساءوا إلى الله فصوره كل بحسب حالته ، فالزنوج يجعلون الآلهة سود الشعر فطس الأنوف ، بينما التراقيون يجعلون الآلهة زرق العيون ذهبيي الشعر ، ولو استطاعت الخيول والأبقار أن تصور الله ، لصورته فى صورة الخيول والبقر . وعلى هذا الأساس فإن الناس قد صورت الآلهة بصورة الإنسان ، ولم تكتف بهذا ، بل أضافت أيضاً إلى الآلهة الأفعال الإنسانية الدنيئة ، خصوصاً عند هوميروس وهزيود . والواقع أن كل ذلك

يتنافى أشد التنافى مع التنزيه الواجب لله ، لأن الله منزه كل التنزيه عن أن يتصف بصفات البشر ، فلكى نحتفظ للألوهية بقدسيتها ، لابد أن ننزهها عن صفات الإنسان . ولما كان الله هو الكمال ، فإن الله أيضاً واحد ، لأن الآلهة لا يمكن أن يتفق مع مقامها أن تكون خاضعة لشيء ، كما أن الآلهة من ناحية أخرى ، ليست فى حاجة إلى أن تتخذ خدما أو أتباعا . ولذلك فليس هناك إله أكبر تحته آلهة أو بجواره آلهة . بل لابد من إله واحد قديم أزلى منزه عن الجسدية(١) .

الفلسفة الاغريقية :

وإذا كان اكسينوفان قد توصل بالتفكير المنطقى البحت إلى توحيد الله وتنزيهه فإن ذلك يدلنا على موطن تفوق الاغريق وعظمتهم ، فهم واضعو علم الطبيعة كما نفهمه الآن ، وهم واضعو الفلسفة التى تغذى عقولنا وأفكارنا حتى الوقت الحاضر . وباستطاعتنا أن نقول فى غير تردد إنهم واضعو أسس العلوم كلها ، بحيث أصبح من الميسور تعلمها على كل من يرغب فى التعليم ، متى كان قادراً على القراءة والكتابة والحساب .

لقد أقام المصرى القديم كما رأينا أعظم المبانى التى عرفها البشر

---

(١) انظر للمؤلف كتاب « فى الايمان والاسلام » .

فى التاريخ القديم أو الحديث ، ونحت التماثيل ، واستخرج المعادن ، ورصد البابليون الكواكب والنجوم ، وطاف الفينيقيون البحار ، ولكن هؤلاء جميعاً قد حبسوا العلوم فى صدورهم ، يلقنونها لأبنائهم وورثتهم تلقينا ذاتيا ، فظلت المعارف الإنسانية والفنون والصناعات تتم من خلال الممارسة والتجربة العملية وكثيرا ما كانت تعتبر ضربا من ضروب السحر والكهنوت ، وهى فى كل الأحوال من الأسرار التى لا تفشى أو تذاع .

أما اليونانيون ، فقد كانوا أول من صاغ العلم نظريات كما قدمنا ، وألفوا الكتب فى الهندسة والرياضة والطب والتاريخ والجغرافيا ، والموسيقى والشعر والفلسفة والمنطق وعلم الحيوان . وقد كانت هذه الكتب هى السبيل المباشر لنقل هذه المعارف بصورة منظمة إلى كل من جاء بعد ذلك من أجيال .

طاليس :

ويبدأ تاريخ أعلام الفكر الأغريقى بطاليس (٦٤٠ ق . م) والذى يرمز تاريخه للصلة بين مصر والأغريق وكيف تلقت الثانية العلم عن الأولى ، فالرأى الثابت فى شخصية طاليس أنه من أبوين فينيقيين وأنه تلقى معظم تعليمه فى مصر والشرق الأدنى[1] وكان طاليس

(١) دورانت — المرجع السابق — ص ٢٥٠ .

على ما تقول الروايات الأغريقية هو أول من أدخل العلوم الرياضية والفلكية إلى بلاد اليونان وقد أجمع الأغريق على تلقيبه بالحكيم واعتبروه على رأس حكمائهم السبعة .

وقد سئل طاليس مرة عن أصعب الأشياء فقال هو « أن تعرف نفسك » ولما سئل عن أسهلها ، قال هو « أن تسدى النصح لغيرك » وسئل ما هو الله فأجاب هو « ما ليس له بداية أو نهاية » وسئل كيف يستطيع الناس أن يعيشوا عيشة الفضيلة والعدالة فأجاب « ألا نفعل نحن ما نلوم غيرنا على فعله » .

بركليس :

ثم تترى بعد طاليس أسماء النجوم والأعلام من أبطال الأغريق ومشاهيرهم فى مختلف ميادين الحياة ، وقد كان من الممكن أن تعد هذه الأسماء من الأساطير والخرافات لولا أنهم تركوا آثارهم المادية المعنوية خالدة على مر الزمن .

فهذا زعيمهم بركليس ، يقوم معبدا الأكروبوليس والبارتنيون ، اللذان أنشأهما وزخرفهما الفنان فدياس ، فى أثينا شاهداً على عصر الأغريق الذهبي . . ليس فقط فى دنيا الفنون أو العلوم والفلسفة ، بل فى دنيا الحكمة والسياسة ، حيث بلغت الديمقراطية أوجها ، ولا يزال البشر يستعملون كلمة الديمقراطية حتى اليوم ، وكثيرون

لا يعرفون أنها الكلمة اليونانية التى صكها الأغريق فى هذه الفترة والتى تعنى كلمة حكم الشعب بالشعب وللشعب . فالشعب كل الشعب هو الذى يختار حكامه فى انتخابات حرة ، وقد ظل الشعب يختار بركليس حاكما له فى الفترة من ٤٦٧ — ٤٢٨ ق . م أى نحو خمسة وثلاثين عاما وهو يجدد انتخابه عاما بعد عام .

وكان الشعب كل الشعب يصوت على القوانين ، ويحكم فى القضايا ، ويشهد الألعاب ، وحفلات التمثيل .

ولم يكن يعيب هذه الديمقراطية إلا أنها كانت تشبه ديمقراطية الأمريكان فى هذه الأيام ، وهو أنها على رائع عظمتها وقف على فريق دون فريق ، فكما يأباها الكثيرون من الأمريكان على الزنوج حتى بعد صدور القوانين التى تحظر التفرقة . . . فقد كان الأغريق لا يعترفون بالحرية والتمتع بالحقوق المدنية إلا لأبناء المدينة دون غيرهم . . . أما من عداهم من الشعوب فليسوا سوى عبيد وأرقاء ، أو أجلاف برابرة فى أحسن الحالات .

العلماء والفلاسفة :

على أنه لا ديمقراطية الأغريق ، أو فنانوها العظام ، أو آثارها الخالدة هى التى جعلت من أثينا معلمة العصور الحديثة ، قدر ما كان ذلك هو الأثر المباشر لعلمائها وفلاسفتها الأفذاذ ، وأينا لم يدرس

فى المدرسة نظرية فيثاغورس الرياضية . وقد بقى أن نعرف أنه كان أول من تحدث عن دوران الأرض حول الشمس التى هى عبارة عن كرة ملتهبة من النار .

ويتلقى عنه انكساغوراس علمه ، ليقول لنا فى وضوح أسباب الكسوف والخسوف :

« ان القمر يخسف إذا توسطت الأرض بينه وبين الشمس ، كما تكسف الشمس إذا توسط القمر بينها وبين الأرض وربما كانت بعض الأجرام السماوية مسكونة عليها خلائق كالأرض ، وعليها يقوم ناس وحيوانات(١) .

ثم يلمع اسم بقراط أبو الطب والذى شرّح الحيوانات ، وفسر فسيولوجية النوم وقرر أن المخ هو العضو الرئيسى فى عالم التفكير . وعرف الصحة بأنها التوافق بين أجزاء الجسم المختلفة . وكذلك اسم جالينوس صاحب الكتب الطبية الخالدة . وهيرودوت المؤرخ الذى يلقب باسم « أبو التاريخ » والذى ما فتئنا ننقل عنه من حين لآخر .

ويدوى اسم ديمقريطس فى أيامنا الحاضرة كما لم يدو من قبل

---

(١) دورانت — قصة الحضارة — جزء ٢ — مجلد ٢ (ص ١٨٠) .

اسم عالم أو فيلسوف أغريقى ، باعتباره صاحب نظرية الذرة ، وأن الكون كله يتألف من الذرات والفراغ ، وهو آخر ما انتهى اليه علم الطبيعة . ثم أنبادوقليس مبدع نظرية العناصر الأربعة التى يتألف منها الكون وهى الهواء والنار والماء والتراب ، والتى ظلت مهيمنة على العالم الإنسانى حتى القرن التاسع عشر . على أن أروع ما جاء به أنبادوقليس هو تقريره بأن الطبيعة تنطوى على قوتين رئيسيتين هما : قوة الجذب ، وقوة الطرد أو قوتا الحب والبغض .

سقراط وأفلاطون وأرسطو :

ثم يأتى ثالوث الحكمة والفلسفة الذى يبدأ بسقراط الذى أوثر عنه قوله « الخير أعظم الخير هو فى حديثى كل يوم عن الفضيلة ، وفحصى عن نفسى وعن غيرى ، لأن الحياة التى لا يفحص عنها غير خليقة بالرجال » .

ولم تكن الفلسفة عند سقراط هى الدين ، أو ما وراء الطبيعة ، أو الطبيعة نفسها ، بل كانت علم الأخلاق والسياسة وكان يتخذ من المنطق مدخلا ووسيلة اليهما ، وهو مبدع فكرة انبثاق الحقيقة من خلال المحاورة والجدل « الديالكتيك » وليس هناك ما يعلو عند سقراط على المعرفة ، فهى أسمى الفضائل كلها ، كما أن الجهل هو شر

الرذائل وإذا عرف الإنسان فلا يمكن إلا أن يعمل صالحاً ، وأما إذا جهل فقد وقع فى الشر والدنس .

وقد كان من المتناقضات التى تشاهد فى كل عصر وزمان ، أن يكون مصرع هذا الفيلسوف القديس على يد الديمقراطية الأثينية فقد كان الشعب هو الذى صوت بإعدامه لتجديفه فى حق آلهة اليونان .

أفلاطون :

على أن سقراط قد بعث بعد موته كأعظم ما يكون البعث وخلد إلى أبد الآبدين على يد تلميذه أفلاطون ، الذى ألف لنا محاورات على لسان سقراط ، لا ندرى أيها من قول سقراط على الحقيقة وأيها من انشاء أفلاطون .

وأفلاطون هو رأس التفكير المثالى الذى يجعل الفكرة سابقة على المادة فهى خالقتها ، وذلك فى مقابل أصحاب التفكير المادى الذين يعتبرون المادة سابقة على الفكرة . والله عند أفلاطون هو المحرك الأول الذى لا يتحرك ، وهو يحرك كل شىء وينظمه حسب القوانين والأشكال الأزلية وهى الأفكار « المثل » التى لا تتبدل . وأرقى الأفكار « المثل » هو الخير . ويرى أفلاطون فى بعض الأحيان أن هذا الخير هو الله نفسه . ولكنه فى أكثر الأحيان

يعتبر الخير أداة الخلق الهادية المرشدة ، والشكل الأعلى الذى تنجذب إليه كل الأشياء . وإدراك هذا الخير ، ورؤية هذا المثل الأعلى الذى يشكل عملية الخلق ، هو أسمى غاية تبتغيها المعرفة(١).

أرسطو أو المعلم الأول :

ثم يجىء جبار العقل وثالث الثلاثة أرسطوطاليس والذى ما من رأى أو فكر فى حياتنا المعاصرة ، سواء فى العلوم الطبيعية أو الجغرافية والفلكية ، أو فى العلوم الفكرية من فلسفية ومنطقية وتربوية وسياسية أو حتى فنية ، إلا ويذكر فيها اسم أرسطو أو يشار إليه ابتداء من الشعر والتأليف المسرحى حتى علم الحيوان والطبيعة والأخلاق فكل هذه قد تكلم فيها أرسطو وأبدع ، حتى وهو يخطىء فى بعض نظريات العلم الحديث . فلا عجب إذا افتتن به العرب فراحوا ينقلون عنه ويغترفون من فيض علمه ويطلقون عليه وهم المسلمون الموحدون ، لقب « المعلم الأول » .

وحسبنا أن ننقل لك فقرة . . فقرة واحدة من ألوف الفقرات التى قال بها المعلم العظيم ، لنرى على سبيل المثال كيف أن فكرة التطور التى تنسب إلى داروين والتى اعتبر من أجلها أعظم علماء

(١) دورانت — المصدر السابق — ص ٤٧٩ .

العصر الحديث ، ليست سوى واحدة من آراء ارسطو وأفكاره قال بها قبل داروين بأكثر من عشرين قرنا :

« تسير الطبيعة قليلا من الأشياء غير الحية ، إلى الحياة الحيوانية بطريقة يستحيل معها أن تحدد تحديداً دقيقاً ، متى تنتهى هذه وتبدأ تلك . فجنس النبات مثلا يأتى بعد الجمادات غير الحية ، فى سلم الرق ، وهذا النبات لا حياة فيه نسبياً ، إذا وازنا بينه وبين الحيوان ولكنه حى إذا وزن بالأشياء الجامدة . وفى النبات سلم تصاعدى مستمر نحو مرتبة الحيوان ، ففى البحر أشياء لا يستطيع الإنسان أن يقول أهى حيوان أو نبات ، فالاسفنج مثلا شبيه بالنباتات من جميع الوجوه . وبعض الحيوانات ثابتة فى مكانها لا تنتقل منه وإذا انتزعت منه هلكت ، أما من حيث الحساسية فإن بعض الحيوانات لا يظهر فيها ما يدل عليها ، وبعضها تظهر فيه غامضة ، وهذا التنوع بعينه يظهر فى سلم الرق الحيوانى[1] .

أما أرسطو صاحب المنطق ، ومن أثبت وحدانية الله باعتباره واجب الوجود لذاته ، فقصته أشهر من أن تعرف وقد كانت هى السبب الذى حمل العرب على إطلاق هذا اللقب العجيب عليه لقب « المعلم الأول » .

---

(١) دورانت — المرجع السابق (ص ٥٠٢)

الشعر والتمثيل :

وليست تقل أسماء ايخيلوس ويوربيدس وسوفوكليس وارسطوفان، شهرة أو لمعانا فى دنيا الفن عن شهرة السابقين فى دنيا العلم ، ومن من المثقفين فى العالم كله — بما فيه مصر — لم ينعم بمشاهدة مسرحية أوديب التى ألفها سوفوكليس ومثلت على مسارح أثينا لأول مرة عام ٤٦٨ ق . م ولا تزال وستظل تمثل على المسارح حتى اليوم والغد . . . وقد بقى أن نعرف أن مسرحية أوديب ليست سوى واحدة من ١١٣ مسرحية مماثلة ألفها سوفوكليس .

الاتصال بين الفرس والروم من خلال الحرب :

ولما كان الإغريق كالفينيقيين يشتغلون بالتجارة الدولية على أوسع نطاق ، بل إن شعار (بركليس) كان يدور حول البعد عن الحرب فى كل ما يمكن أن يتحقق من خلال التجارة . ومن هنا كان الإغريق —وإن لم تجمعهم وحدة سياسية واحدة — منتشرين فى حوض البحر الأبيض كله ، وخاصة فى بحر ايجه والبحر الادرياتيكى وعلى شواطىء إيطاليا الشرقية ، وفى شمال إفريقيا ، بل وفى مصر نفسها . حيث كانوا أصدقاء وحلفاء لفراعنة مصر فى هذه الفترة . وقد جعلهم هذا الانتشار والتفوق فى البحر خطراً على امبراطورية فارس التى كانت قد وصلت فى هذه الفترة إلى أوج اتساع رقعتها

وعظمتها كما قدمنا . فكان أن خشيت فارس على ممتلكاتها فى غرب آسيا الصغرى ، من قوة الأغريق النشطة الزاحفة ، فأعد (دارا) الأول جيشاً لغزو الاغريق ، ولكن محاولته باءت بالفشل ، كما فشل من بعده اجزرسيس ، وخلدت على مر التاريخ معارك ماراتون وترومو بيل حيث استطاع شعب صغير أن يدافع عن نفسه ضد جيوش تفوقه فى العدد والعدة وحتى عندما تفوقت عليه هذه الجيوش فى البر ، فقد استطاع أن يهزمها فى البحر (موقعة سلاميس) مؤكدا لأول مرة فى التاريخ الحقيقة التى تجعل الكلمة الأولى فى السيطرة والقوة ، لسيادة البحر . وقد كانت هذه المخاطر التى تعرض لها الأغريق حافزاً يدفعهم للتجمع والتوحد ، على أن توحيد الأغريق فى صورته النهائية ، جاء على يد فيليب ملك مقدونيا الذى لم يكن الأغريق يعتبرونه إغريقيا ، وكان ابنه الشاب الاسكندر المقدونى تلميذ ارسطو هو الذى قدر له أن يقود الاغريق لهزيمة أعدائهم الفرس فى عقر دارهم ، ولينشر الحضارة الاغريقية فى أنحاء العالم القديم .

الاسكندر فى الشرق :

وعبر الاسكندر بوغاز الهلسبونت (الدردنيل) عام ٣٣٤ ق . م ثم راح ينتصر على جيوش فارسية تفوقه أضعافاً مضاعفة فى العدة والسلاح . وفى فترة وجيزة بحساب تلك الأيام ، كانت فينيقيا

والشام وفلسطين ومصر قد أصبحت تحت سلطان الاسكندر ؛ الذى لقى أعظم ترحيب من المصريين ، ونادوا به ابنا لآمون بعد أن قدم خضوعه بالفعل لآمون . وترك الاسكندر مصر ليتابع فتوحاته عبر الشرق ، ولكنه لم يتركها إلا بعد أن خلف لها ما هو أبقى على الزمن ، وتلك هى مدينة الاسكندرية التى ستظل تشهد كل صباح ومساء على مر الدهور بعظمة منشئها « الاسكندر » .

وجاءت الساعة التى استولى فيها الاسكندر على فارس وجلس على كرسى مملكتها ، ثم راح يجوس خلالها صاعدا نحو الشمال إلى بحر قزوين وما يحيط به ومتجهاً فى الشرق نحو تخوم التركستان وفى الجنوب وصل إلى الأفغان ثم اجتاز منها إلى ممر خيبر قاصداً الهند ومستولياً على حوض السند ، حيث جوبه لأول مرة بالجيوش المزودة بالأفيال ولكنها لم تكن ذات أثر عليه .

وعاد بعد هذه الفتوحات التى لم يسبق لها مثيل إلى عاصمة ملكه الجديدة فى فارس .

الاسكندر والحضارة :

ولم نكن لنحتفل بالاسكندر المقدونى ونتتبع سير حياته لو أنه كان مجرد غاز من الغزاة الفاتحين الذين يخربون ويدمرون لمجرد التخريب والتدمير وترويع الخصوم والأعداء . . . وإنما يأخذ

الإسكندر المقدونى مكانه فى التراث الحضارى الإنسانى لأن نفسه قد امتلأت عقب انتصاراته بفكرة الدولة العالمية الواحدة التى تذوب فيها الأجناس والأديان والقوميات ، وقد رأيناه فى مصر يقدم خضوعه لإلهها آمون ويتقبل بنوته له ، وفى فارس قرر أن يمزج الثقافة الشرقية بالاغريقية فتزوج ابنة دارا عدوه ، وطلب من قواده ورؤساء جيشه أن يقتدوا به فى الزواج من الفارسيات ، وفى ليلة من ليالى سنة ٣٢٤ ق.م أقيم أعظم عرس شهده التاريخ من قبل أو من بعد .. عرس يرمز لزفاف الثقافة الغربية من الثقافة الشرقية .. حيث تزوج الاسكندر وثمانون من زعماء جيشه ... وعدد لا يحصى من جنوده بفارسيات ، وخلع الاسكندر عنه ملابسه الاغريقية وارتدى الملابس الفارسية ، وعاش فى بلاطه الفارسى الجديد ، كما كان يعيش كسرى ، واعتنق نظم الإدارة الفارسية فى الحكم والسياسة وبعد أن رآها أرقى وأحكم وأدق من كل ما عرفه الاغريق من نظم .

على أن عمر الاسكندر لم يطل ليحقق أمنيته فقد مات فى شرخ الشباب ولم يتجاوز عمره ٣٣ سنة ، فأشبه فى حياته الشهب والنيازك التى تبدد ظلمات الليل الحالكة ولكنها لا تكاد تومض حتى تحترق .

مات فى بابل عاصمة حمورابى الملك العظيم ، بعيداً عن مسقط رأسه فى مقدونيا ولكن جثمانه نقل إلى مصر ، إلى مدينته التى أنشأها ،

والتى بقيت من دون آثاره الأخرى نابضة مزدهرة تفيض بالحياة[1].

الهيلينية أو امتزاج الحضارة الإغريقية بالمصرية والشرقية :

ولقد أدهشنى أن أرى أحد الكتاب من الأوربيين[2] ، يصف الإسكندر وأفكاره (بالطموح الصبيانى والغرور الساذج) وعندى أن ليس هناك ما هو حقيق بوصف الغرور الساذج والتفكير الصبيانى ، من قولة هذا الكاتب ، الذى يصف أحد كواكب الجنس البشرى بهذا الوصف لمحض كونه قادراً على كتابته ، فدور الإسكندر فى التاريخ لا يقاس بمدى نجاحه فى توحيد العالم بالفعل ، بل بالآثار والنتائج التى تركها وأعظم هذه النتائج والآثار ، هو ما أصبح يعرف فى التاريخ باسم الحضارة الهيلينية تلك الحضارة التى طبعت الشرق الأدنى وحوض البحر الأبيض كله بطابعها خلال القرون التالية . وكانت الإسكندرية ، وليست أثينا ولا أى مدينة أخرى من مدن الاغريق هى حاملة المشعل فى هذه الحقبة من التاريخ . فقد أنشأ بطليموس الذى حكم مصر بعد وفاة الإسكندر فى مدينة الإسكندرية ، مكتبة لم تكن مجرد مخزن للكتب ، بل مركزاً عالمياً لنسخ الكتب وبيعها ، فتألف حولها جيش من

(١) لا تزال المباحث والمحاولات جارية حتى الآن فى الإسكندرية، للكشف عن مقبرة الإسكندر

(٢) هندريك فان لون « قصة الجنس البشرى » ص ٤٢ .

النساخين الذين لم يلبثوا أن تحولوا إلى علماء ، وسرعان ما تحولت مكتبة الإسكندرية ومتحفها إلى جامعة دولية ، أعادت إلى الإنسانية ذكريات جامعة عين شمس القديمة وعصر بركليس . وبدأت الإسكندرية تشهد عصرا ذهبيا من التنوير والوهج العلمى ، يأخذ بروع ذوى الألباب من علماء الغرب فى أيامنا هذه ، وكما لا تزال أسماء علماء أثينا تدوى فى الآفاق ، فإن أسماء علماء الإسكندرية فى هذه الحقبة من التاريخ تنافسهم الشهرة والخطر فى تراث البشر الحضارى . . . وأينا لا يعرف أقليدس رب الهندسة (الأقليدية) التى ظلت تهيمن على الفكر الإنسانى حتى العصر الحديث ومن منا لا يعرف اسم أرشميدس صاحب النظرية الخالدة عن الأجسام الطافية .

وقد بقى أن تعرف أن قوة البخار التى لم يعد كشفها إلا فى القرن الثامن عشر قد عرفت فى هذه الفترة من تاريخ البشر ، حيث اخترع هيرون الاسكندرى ، قبل جيمس وات بألفى سنة ، ما يجب أن يعتبر أول آلة بخارية فى التاريخ(١) .

ويبهرنا من علماء هذه الفترة أرأتستنيز الذى قاس محيط الكرة الأرضية مقدراً إياه بـ ٢٤٫٦٦٢ ميلا حيث تقدره الآن بأدق آلات قياسنا بـ ٢٤٫٨٤٧ أى بفارق ضئيل لا يكاد يذكر .

وليس أقل الجميع شأنا بطليموس الفلكى صاحب كتاب

(١) هـ.ج. ويلز — مختصر تاريخ العالم ص١٠٤ ودورانت فى قصة الحضارة.

المجسطى الذى فرض نفسه على علم الفلك حتى القرن السادس عشر بنظريته التى تقول بأن الشمس هى التى تدور حول الأرض وليس العكس ، بل إن القبة السماوية كلها هى التى تدور حول الأرض الثابتة ، ولا ينبغى أن يدهش أبناء عصرنا الحاضر أن يكون ذلك هو النظر العلمى ، فقد كانت نظرية بطليموس قادرة على تفسير كل الأحداث الفلكية بنفس الدقة التى تفسرها لنا نظرية دوران الأرض حول الشمس(١) .

ويقول الكاتب العلامة هـ . ج . ويلز تعليقا على حضارة الإسكندرية فى هذه الفترة :

« هنا نجد على وجه التحقيق نقطة البدء لهذه الحياة الذهنية المنطلقة التى نعيش فيها فى أيامنا هذه ، هنا نجد التجميع والتوزيع المنظم للمعارف البشرية . إن تأسيس المتحف والمكتبة مرحلة من أعظم مراحل التاريخ الإنسانى ، إنه نقطة البداية الحقة للتاريخ الحديث(٢) » .

ويحدثنا التاريخ حديثاً عجيباً عن منارة الإسكندرية ، التى ظلت تعتبر إحدى عجائب الدنيا السبع ، أو العجيبة الثانية بعد عجيبة

(١) يقول سير هربرت سبنسر جونس فى كتاب « الفلك العام » ـ يمكن تفسير حركة النجوم اليومية (كما رأينا) إما بفرض أن الكرة السماوية كلها تدور حول محورها أو بفرض أن الأرض نفسها هى التى تدور بينما تبقى الكرة السماوية ثابتة . ويبدو لنا أن الفرض الأخير أكثر قبولا ووضوحا بالرغم من كونه غير ضرورى منطقيا .

(٢) مختصر تاريخ العالم ـ ص ١٠٤

الأهرام . فقد كانت تتألف من أربعة طوابق يبلغ ارتفاع طابقها الأول ٦٠ متراً وكان مربع الشكل يحتوى على ثلثمائة حجرة لسكنى العمال والموظفين . أما الطابق الثانى فقد كان مثمن الشكل ويرتفع إلى ثلاثين مترا . والطابق الثالث كان مستدير الشكل ويرتفع إلى ١٥ مترا ، ويلى هذا طابق المصباح الذى كانت تعلوه قبة شيدت على أعمدة جميلة رشيقة يبلغ ارتفاعها ثمانية أمتار ، وكان يعلو القبة تمثال بوسيدون إله البحار بطول قدره سبعة أمتار . وكان يحيط بالمصباح مرآة سميت بالمرآة السحرية ، فقد كان الاعتقاد أنها تقوم بما يشبه عملية الرادار هذه الأيام ، وهو أن تكشف الأساطيل المغيرة على بعد ميل قبل أن ترى بالعين المجردة [١] .

ولقد ظلت هذه المنارة ترشد السفن فى ظلمات الليل حتى القرن التاسع بعد الميلاد حتى لقد رآها العرب ووصفها المسعودى والمقريزى فى كتبهما ، بل إن مئذنة المساجد المألوفة عندنا لا زالت تشاد على نفس هذا الأسلوب .

وهكذا حيث كانت جامعة الإسكندرية ترشد العقول وتنير الأفئدة ، فقد كانت منارة الاسكندرية تبدد ظلمات الليل وترشد السفن فى ظلمات البحار .

---

(١) الدكتور هنرى رياض مدير المتحف اليونانى «مجلة قافلة الزيت عدد أكتوبر ١٩٦٤» .

الفصل الخامس

الرومان

انشاء مدينة روما ـ توحيد ايطاليا ـ ابادة قرطاجنة ـ مارك انطونيو وكيلوباترا ـ قيصر والمسيح ـ نصيب روما فى حضارة الانسانية ـ سنكا ـ شيشرون وفرجيل ـ عبادة ايزيس ـ القانون والطرق ـ حضارة مادية

★★

الرومان :

قصة الرومان فى التاريخ قصة طويلة عريضة تمتد من القرن الثامن قبل الميلاد ، حتى القرون الحديثة عندما حاول موسولينى زعيم إيطاليا فى مطلع القرن العشرين أن يبعثها من جديد فراح يطلق على البحر الأبيض (بحرنا) ، ورسم سياسة استعمارية تقوم على ضم كل البلاد التى كانت تتألف منها الإمبراطورية الرومانية .

والرومانيون لا بد أن يكونوا طبقا لنظرية المؤرخين الأوربيين ، من الجنس الآرى ، وفدوا إلى إيطاليا حيث كان

يسكنها أقوام من جنس البحر الأبيض المتوسط ، وقد أخذوا هذا الاسم اسم الرومان نسبة إلى مدينتهم روما التى أخذت بدورها هذه التسمية من روميلوس الذى أرضعته ذئبة ، والذى أنشأ روما على سبعة تلال عام ٧٥٣ ق . م

وبدأ سكان هذه المدينة يظهرون منذ عصر مبكر يكشفون عن تعلقهم بأهداب القانون والنظام ، فأرسلوا عام ٤٥٤ ق . م بعثة إلى الأغريق لتحصل على قوانين صولون وتدرسها .وقد تمخضت جهود الرومان الأوائل المتصلة عن وضع ما اشتهر فى التاريخ باسم « الألواح الإثنى عشر » والتى اعتبرها الرومان شريعة مقدسة ، فكانت مصدرا وأساساً لكل التشريعات الرومانية التى جاءت خلال القرون التالية والتى لا تزال روحها تحكم أوربا حتى الآن .. بل وتحكمنا نحن فى مصر كما سوف ترى .

ومع ذلك فإن قوانين الألواح الإثنى عشر التى أثرت هذا التأثير فى تشريعات الإنسانية ، لا تعتبر ذات مستوى رفيع من حيث قيامها على العدل أو الرحمة وتنظيم العلاقات الإنسانية . فهى مشوبة بالعنف والبربرية والشكلية التى تصل إلى حد الطلاسم السحرية . وترى فيها سلطة الأب سلطة مطلقة على آل بيته ابتداء من زوجته وأولاده فضلا عن عبيده وأرقائه ، فباستطاعة الأب لا أن يؤدب ابنه فيربطه بالأغلال أو يجلده فحسب ، بل باستطاعته أن يبيعه وأن

يقتله إذا شاء . وإذا كان هذا ما يستطيع الأب أن يفعله بابنه فباستطاعتنا أن نتصور ما يفعله بأرقائه .

وقد كانت القوانين طبقية أشبه بطبقات الهند ، فكانت تحرم الزواج بين من ينتمون إلى طبقة الأشراف ، ومن ينتمون إلى طبقة العامة، وكان سكان روما بصفة عامة ينقسمون فى كل شىء إلى هاتين الطبقتين . وكان الدائن يملك على مدينه حرية مطلقة من كل قيد . فيسجنه أو يسترقه أو يبيعه إذا لم يسدد الدين . وكانت حقوق الملكية مقدسة إلى حد أن السارق الذى يضبط متلبسا بالسرقة ، يصبح عبدا رقيقا للمسروق منه يفعل به ما يشاء .

وكانت الشكليات هى روح هذا القانون وجوهره ، بحيث كان صاحب الحق يخسر حقه إذا لم يتبع إجراء شكليا تافها . ولا تزال هذه الروح تحكم قانوننا المصرى المنقول عن القانون الفرنسى ، المنقول بدوره عن القانون الرومانى . . . وكثيرا ما تضيع فى مصر الحقوق على أصحابها لخلو عريضة الدعوى من عبارة معينة أو تاريخ معين ، وما أكثر ما راح أصحاب الحقوق الثابتة يستغيثون ولا مغيث ، دون أن يعرفوا أن سبب نكبتهم هو تسلل روح قوانين الألواح الإثنى عشر إلى عصورنا الحديثة(١) .

(١) لا تعرف الشريعة الإسلامية التى كانت متبعة فى مصر قبل استعمال القانون الحديث هذه الشكليات التى تهدر الحقوق .

ولم يكد القرن الثالث قبل الميلاد يحل ، حتى كانت روما قد بسطت سلطانها وامتد نفوذها إلى الجزء الأكبر من شبه جزيرة ايطاليا ، وقد جعلها ذلك تقف وجها لوجه أمام القوى التي سبقتها إلى شواطىء شبه الجزيرة الإيطالية الجنوبية والجزر الغربية منها ؛ وهما قوة الأغريق وقوة الفينيقيين الذين كانوا قد أصبحوا يسمون بالقرطاجنيين نسبة إلى مدينتهم العظيمة قرطاجنه « تونس الحالية »

وصفت روما حسابها مع المستعمرات الأغريقية في شبه الجزيرة فاستولت على بعضها وأخضعت البعض الآخر لنفوذها ، ودخلت بذلك في سلسلة من الحروب انتهت بإدخال بلاد اليونان وما يجاورها كلها تحت سلطان روما .

وقد كان هذا التوسع من شأنه أن يدخلها في عراك مع قرطاجنه فخاضت الدولتان سلسلة من الحروب التي اشتهرت في التاريخ باسم الحرب البونية الأولى والثانية والثالثة حيث تداول الطرفان فيها النصر ، وتهيأ خلالها لقرطاجنة قائد يدوى اسمه بين عظماء القادة العسكريين من بني الإنسان هو هانبال الذي اتخذ منه نابليون بعد ألفين من السنين استاذا له وأماما . . . فقد كان هانبال هو أول من فكر في مهاجمة ايطاليا عن طريق اختراق جبال الألب إبان الشتاء . على أن عبقرية هانيبال لم تنقذ قرطاجنه من مصيرها المحتوم ، فقد أبادها الرومان عام (١٤٦ ق . م) ولقد اعتدنا أن نستعمل كلمة

الإبادة على سبيل الاستعارة والمجاز ، ولكن كلمة الإبادة بالنسبة لقرطاجنة تستعمل لوصف ما وقع بالفعل فى التاريخ ، فقد كان عدد سكان المدينة يبلغ ٢٥٠ ألفا ، ظلوا يقاومون الرومان الذين حاصروهم مقاومة يضرب بها المثل فى الفداء والاستشهاد والصبر ، حتى أن عدد من ظلوا فى المدينة عند استسلامها لم يكن يزيد على ٥٠ ألف نسمة ، وقتل الرومان من هذا العدد من شاء لهم أن يقتلوه من الرجال والنساء والأطفال وأبقوا مارأوا أن يبقوه ليتخذوا منهم أسرى وعبيدا فساقوهم إلى روما مكبلين بالأغلال ، أما المدينة نفسها فقد أشعلوا فيها النيران . . . حتى إذا أتت عليها ولم يبق منها سوى الرماد ، حرقوا الأرض وزرعوها ، حتى ينسى البشر أنه كان فى هذا المكان أعظم مدن البحر الأبيض على الإطلاق بعد مدينة الإسكندرية .

ولقد كان مصير قرطاجنه ، هو نموذج لخطة الرومان بالنسبة لمن يقاومهم أو يعترض مشيئتهم .

كليوباترا ومارك انطونى :

ودانت لهم أجزاء كبيرة من أوربا الشرقية وبلاد الغال «فرنسا» ووصلت جيوشهم إلى الجزر البريطانية فاحتلوها . وتؤلف قصة كليوباترا ومارك انطونى الفصل الأخير من تاريخ روما الجمهورية وتحولها إلى روما القيصرية الإمبراطورية ، ونحن نعلم كيف أوقعت الأميرة المصرية يوليوس قيصر العجوز فى شباك هواها فرفعها على

عرش مصر ضد رغبة أخيها ، وأنجبت كليوباترا ولدا من يوليوس قيصر « قيصرون » كان يمكن أن يجلس على عرش روما ومصر فى يوم من الأيام ، لولا أن يوليوس قيصر قد سقط صريع المؤامرة المشهورة التى نعرفها والتى دبرها بقية أحرار روما ليحولوا دون حكم الفرد وانفراده بالسلطة المطلقة .

ووقع انطونيو أحد خلفاء يوليوس قيصر فى غرام كليوباترا بدوره ، فهجر روما وتبعها بجيشه وأسطوله إلى الأسكندرية ، وجاءت روما تثأر لكرامتها فى شخص أكتافيوس قيصر، وخسرت كليوباترا وصاحبها المعركة فى البر والبحر فانتحرا ، وأصبحت مصر تابعة لاكتافيوس قيصر . وإنه لقدر غريب ذلك الذى يخلد قصة غرام إلى هذا المدى بحيث يصبح جزءا لا يتجزء من تاريخ الرومان والعالم ونقطة التحول فى تاريخ هذا الجزء من العالم .

اغسطس قيصر :

لقد كانت مصر آخر معقل يتمتع بالاستقلال عن روما فى حوض البحر الأبيض ، وبانتهاء استقلال مصر ، أصبح البحر الأبيض بكل شواطئه والشعوب الواقعة عليه خاضعا لسلطان روما ، فلا عجب إذا اعتبر عصر اكتافيوس قيصر هو عصر الرومان الذهبى ، ولاعجب أن أوصله معاصروه إلى مرتبة الألوهية ، فأطلقوا عليه اسم اغسطس قيصر وشادوا له التماثيل والهيا كل وتقربوا له بالقرابين.

وإذا كان استاذه يوليوس قيصر قد أطلق اسمه على أحد الشهور ، فليكن اسم أغسطس هو اسم الشهر التالى لشهر يوليو .

قيصر والمسيح :

على أن التاريخ الإنسانى ، كان يرسم على شفتيه ابتسامة ساخرة من هذا الذى يجرى فى روما التى وصلت إلى أوج ما عرف البشر من قوة وسلطان وجبروت وتحكم فى رقاب العباد ، ففى الوقت الذى كانت التماثيل تقام لأغسطس قيصر فى الهياكل لتعبد من دون الله رب العالمين ، كانت هناك عذراء فى بيت لحم تضع وليدا لها خفية عن أعين الناس ، فلم تكن تعرف كيف تواجه أهلها فضلا عن الناس وهى الفتاة العذراء عندما تتقدم لهم بغلام ، ولذلك قد وضعت طفلها فى مزود بقر حتى لا تقع عليها العيون أو يسمعها أحد . وكان مقدراً لهذا الطفل المولود من غير أب أن يكون هو سيد روما بعد قليل من الزمن وليس قيصر ، وأن تحطم تماثيل أغسطس قيصر لتشاد له هو التماثيل وتقام باسمه المعابد . . . ذلكم هو يسوع ابن مريم اليهودية العذراء ، أو المسيح الذى يسميه أتباعه من المسيحيين والنصارى « ابن الله » .

نصيب روما فى الحضارة الإنسانية :

على أنا ونحن على وشك أن نطوى صفحة روما الوقتية ، لنتحدث عن روما المسيحية يجب أن نقف قليلا كما وقفنا من قبل

أمام مصر وبابل والهند والصين وفارس والأغريق لنسجل نصيبها من التراث الحضارى ، ومن عجب أن الإجماع منعقد على أن هذا القدر هو جد ضئيل لا يمكن أن يقارن بما أسهمت به حضارة الإنسان فى أى بلد من هذه البلاد السابقة الذكر .

ففى خلال الألف سنة التى سادت فيها روما الجزء الأكبر من حوض البحر الأبيض لم تستطع أن تخلق فيلسوفا واحدا من طراز أفلاطون أو أرسطو ، أو مؤرخا كهيرودوت ، فإن مؤرخ الرومان المشهور وهو (بلوتارك) إغريقى وليس رومانيا ، وإذا كان هذا شأنهم فى الفلسفة والتاريخ ، فباستطاعتنا أن ندرك كيف لم يكن بينهم عالم واحد يمكن أن يذكر فى الهندسة أو الطب أو الطبيعة أو الفلك ، أى أنهم عاشوا بالنسبة لكل هذه المعارف والعلوم عالة على ما تلقوه من الأغريق ومن الإسكندرية .

ولولا بضعة أسماء استطاعت أن تصل إلى درجة من الشهرة لخلا تاريخ الرومان إلا من أسماء القواد العسكريين والملوك والقياصرة .

سنكا :

وأول هذه الأسماء « سنكا » الفيلسوف الرواقى والذى يمكن أن تقاس درجة علمه وفلسفته المتواضعة بالدرس الأول الذى أعطاه

للناس فى الفلسفة « إننا لا نستطيع أن تكون عقلاء حكماء فى كل شىء ، ولسنا فى حقيقة أمرنا ، إلا قطعا متناثرة فى الفضاء اللانهائى ، ولحظات قصيرة فى الأبدية ، وإن محاولة هذه الذرات الضئيلة (أى الإنسان) أن تصف الكون ، أو الكائن الأعلى ، لعمل ترتج منه الكواكب سخرية ومرحا[1] .

ولعل أطرف ما يمكن أن تنقله عن هذا الفيلسوف هو وصفه إحدى زياراته لملاعب الرومان :

« وأعود إلى منزلى أكثر مما كنت نهما وقسوة ووحشية لأنى كنت بين آدميين . لقد شاهدت بمحض المصادفة معرضا مقاماً فى وقت الظهيرة ، وكنت أتوقع أن أرى بعض ما يبعث السرور أو الفكاهة أو يروح عن النفس بعض متاعبها ، وتستطيع عين الإنسان أن تجد ما تستريح به من رؤية المجازر التى تذهب فيها حياة الإنسان ، ولكنى رأيت عكس هذا ، المحاربين فى وقت الظهيرة يخرجون وليس عليهم دروع من أى نوع كان ، أجسامهم معرضة للطعنات فى كل جزء منها ، فكل طعنة تصيبهم فى الصميم إنهم فى الصباح يلقون الناس أمام الأسود ، أما فى الظهيرة فيقذف بهم أمام نظرائهم . وترى الجماهير تطلب من المنتصر الذى قتل خصمه

---

(١) دورانت قصة الحضارة جزء ٢٠ مجلد ٣ (ص ٢٨٠)

أن يقاتل من جديد رجلا آخر حتى يقتل ، ويحتفظ دائماً بالمنتصر الأخير ليقتل بدوره على يد إنسان آخر ، وهذه الأمور وأمثالها تحدث والمقاعد تكاد تكون خالية . ان الآدمى الذى لا يحل للإنسان قتله ، يقتل لهوا ولعبا وجلبا للمسرة(١) .

شيشرون وفرجيل :

حتى إذا فرغنا من سنكا فليس أمامنا من نذكر اسمه سوى شيشرون المحامى والخطيب والذى اتخذت خطبه عنواناً على البلاغة والفصاحة اللاتينية .

ثم يطالعنا فرجيل الشاعر « بالانيادة » التى أرخ فيها لأغسطس قيصر وللرومان والتى لا يمكن أن تقارن بالياذة هوميروس ، لولا أنها إلى التاريخ أقرب .

عبادة إيزيس :

حتى بالنسبة لدنيا التدين والعقيدة التى ساهم فيها كل البشر بالتهذيب والتوسيع والتعميق ، يقف الرومان موقف المتلقى . وقد بدأوا ككل القبائل الآرية يعبدون العديد من الآلهة والأرواح والأشباح ، حتى إذا احتكوا بالأغريق أخذوا عنهم

---

(١) المرجع السابق — ص ٣٥٦ .

آلهتهم بعد أن أعطوها أسماء لاتينية . فزيوس إله الاولمب أصبح جوبتير ، وأثينا آلهة الحكمة تحولت إلى منرفا وهكذا .

على أن تأثرهم العقائدى الأكبر قد جاء من مصر بعد اتصالهم بها ، وزحفت عليهم كما زحفت على الأغريق من قبل عبادة الثالوث المقدس ، المؤلف من أزوريس « الأب » وايزيس « الأم » وحوريس « الابن » . وقد كانت هذه العبادة الأوزورية العريقة قد تبلورت أيام البطالسة وأصبحت الدين الرسمى الغالب ، وأنشىء لها فى الإسكندرية معبد السرابيوم بعد أن أصبح يطلق على أوزوريس اسم سيرابيس . وكانت ايزيس الأم تصور دائماً وتنحت وهى حاملة بين ذراعيها الابن الطفل « حوريس » وقد استهوت هذه الصورة ، صورة ايزيس والطفل الأغريق ، ولكنها فتنت الرومان فنقلوها إلى روما وأنشأوا لها معبداً خاصاً بها .

وسرعان ما أصبحت عبادة ايزيس حاملة الطفل هى أكبر العبادات انتشاراً فى حوض البحر الأبيض المتوسط وكثير من الباحثين فى الأديان المقارنة ، يقطعون بأن عبادة ايزيس وابنها هى الأساس الذى تقوم عليه فكرة تقديس العذراء أم المسيح ، وهى السر فى امتلاء كنائس روما الكاثوليكية « دون سائر الكنائس » بتماثيل مريم وصورها والتقرب لها بالقرابين والصلاة والتراتيل .

وهكذا يمكن القول ، إن روما بكل سلطانها وحولها وطولها والألف سنة التي حكمتها ، لم تسهم كثيراً في دنيا العقائد الروحية ، أو المبادىء الفلسفية ، أو الحقائق العلمية ، أو دنيا الفنون .

القانون والإدارة :

على أننا يجب أن لا ننسى ما ذكرناه سابقاً من دور القانون في حياة الرومان وعظيم أثره في حياة المجتمع الإنساني ، فقد تطورت الألواح الإثنى عشر التي ذكرنا من أمرها ما ذكرنا . تحت ضغط الحاجات المتزايدة ، والظروف المتغيرة ، واتساع رقعة الامبراطورية حتى وصل التشريع الروماني إلى أدق نظام تشريعي عرفه الإنسان . وقد كان فضل المحافظة على هذا التراث القانوني وإذاعته على العالمين ، يرجع إلى عهد متأخر بعد انتشار المسيحية وانقسام الدولة الرومانية إلى غربية وأخرى شرقية مما سنشير إليه فيما بعد .

الطرق :

واشتهرت روما في التاريخ إلى جوار اشتهارها بالقانون ، بالطرق المعبدة التي كانت تخرج من روما إلى أنحاء شبه الجزيرة والتي كانت منشأ القول المأثور « جميع الطرق تؤدي إلى روما » .

ويعزو الكثيرون إلى هذه الطرق السر في استطاعة الرومان السيطرة على امبراطوريتهم هذا المدى الطويل من السنين .

حضارة مادية :

وجملة ما يقال فى وصف الحضارة الرومانية ، أنها كانت حضارة مادية بحتة ، تقوم على الغلبة العسكرية ، واصطناع القوة ووسائل القمع والبطش والإرهاب ، وتحويل العدد الأكبر من الشعوب المغلوبة على أمرها إلى عبيد أرقاء ، يساقون إلى روما مصفدين بالأغلال ، مربوطين إلى عجلات المنتصرين .

ولقد جاء الوقت الذى أصبح فيه غالبية سكان روما من العبيد الذين ثاروا على أسيادهم أكثر من مرة . وإذا كانت روما قد نجحت فى قمع هذه الثورات[1] باصطناع أعنف الوسائل وحشية ، فقد جاء الوقت الذى تهاوت فيه تحت أقدام هؤلاء الأرقاء والعبيد ، الذين تسلحوا بإيمان جديد ، زودهم بقوة تعلو على الحديد والنار . . . قوة مقابلة الشر العاتى ، بالهدوء والطمأنينة والرجاء . . . مقابلة الكره بالحب ، عندما نفذت روح المسيحية إلى القلوب .

(١) قامت فى روما عدة ثورات للعبيد الأرقاء أولها عام ١٣٥ ق . م وأشهرها ثورة سبارتكوس عام ٧٣ ق . م .

الفصل السادس

يسوع الناصرى وتاريخ الميلاد ـ تلامذة المسيح وحواريوه ـ مسيحية بولس ـ روما المسيحية ـ قسطنطين ـ تدهور الامبراطورية الرومانية ـ انشاء القسطنطينية ـ العصور الوسطى المظلمة ـ خطأ هذا الزعم ـ جوستنيان ـ حضارة فارس والصين والهند

★★

يسوع الناصرى:

وليس فى العالم اليوم إنسان واحد يقرأ ويكتب لم يسمع باسم المسيح ، فالبشرية اليوم فى مجموعها تؤرخ بتاريخ ميلاده ، حتى المسلمين الذين كانوا طوال ثلاثة عشر قرنا يؤرخون بتاريخ هجرة نبيهم محمد رسول الله ، قد أصبحوا فى العصر الحديث يستعملون التاريخ الميلادى كذلك ، دون أن يروا فى ذلك غضاضة ، لأنهم بدورهم يؤمنون بولادة المسيح المعجزة .

ويؤمن المسيحيون بألوهية المسيح ، وأنه ابن الله الحبيب الذى أرسله إلى الأرض ، ليتعذب ويذبح على الصليب ليكون فى دمه كفارة عن ذنوب البشر ، وكل من آمن بهذه الفكرة فهو ناج

خالص من هول يوم الدنيونة ، ولذلك يدعى المسيح بالمخلص ، وأما من لا يؤمن بالمسيح على هذه الصورة وأنه ابن الله المولود غير المخلوق ، وهو من نفس جوهر الأب ، وأنه نزل وتجسد وصار إنسانا وتعذب ورفع على الصليب وقام مرة ثانية فى اليوم الثالث وصعد إلى السماء وسيعود ليحاسب الأحياء والأموات ، فإنه لا يكون مسيحيا مؤمنا [1] .

أما المسلمون فيرون فى المسيح « عيسى بن مريم » صورة أبسط وأبعد عن هذا التعقيد ، فهو واحد من رسل الله الذين بعث بهم على مر العصور إلى بنى الإنسان يدعون إلى سبيله وإلى الأخذ بأسباب الفضيلة والاستقامة وإحقاق الحق وإقامة العدل بين الناس ، وجوهر دعوته هو دعوة كل نبى من قبله أو من بعده ، وهو الايمان بالله واحدا أحدا لا شريك له لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، تنزه وتعالى عن التشبيه والتجسيد والحلول فى شىء من مخلوقاته . ذلكم هو إيمان المسلمين بعيسى أو يسوع الناصرى . . . ومعجزة ولادته بنفحه من روح القدس ، لا تشكل فى نظر المسلمين اعجازا غير عادى لا يكون إلا لابن الله . . . فليست ولادته عن غير أب بأعجب ولا أعصى فى قدرة الله على خلق آدم من غير أب أو أم على السواء .

---

(١) عقيدة مجمع تيقية عام ٣٢٥ م دورانت جزء (٣) مجلد (٣) ص (٣٨٥)

أما اليهود الذين خرج المسيح من بين صفوفهم ، وتوجه أول ما توجه بالدعوة إليهم ، فيرمون أمه بالإفك ولا يرون فيها إلا فتاة خاطئة واعتبروه مدعياً ومنحرفاً عن تعاليم كتابهم المقدس وطالبوا حكامهم الرومان بإعدامه ، وبالفعل رفع على الصليب « كما تقول الرواية المسيحية » بناء على طلبهم . وأنكروا ولا زالوا ينكرون أن يكون هو المسيح الذى بشرتهم به أنبياؤهم السابقون والذى سيظهر فى آخر الزمان ويملأ الدنيا عدلا وأمنا بعد أن ملئت ظلماً وجورا .

وكتب التاريخ التى كتبت فى القرن الأول الميلادى لا تحدثنا عن شخصية المسيح بشىء كثير أو قليل . وأول إشارة للمسيحين فى الأدب والتاريخ نراها فى مطلع القرن الثانى الميلادى ، حيث أرسل « بلنى » الأصغر عام ١١٠ م خطابا إلى تراجان امبراطور الرومان يستشيره فى الكيفية التى يعامل بها المسيحين ، وبعد خمس سنوات من هذا التاريخ أشار تاستس إلى اضطهاد نيرون للكريستيانى أى للمسيحيين [١] .

هذا الإغفال من كتب التاريخ هو ما حدا بكثير من الباحثين الأوربيين الذين يتشككون فى كل شىء ، أن ينكروا وجود شخصية

---

(١) دورانت — المرجع السابق (ص ٢٠٥)

المسيح ، وأن يرجعوا أسطورته إلى الأساطير التى كانت شائعة فى هذه الفترة من التاريخ (١) .

وليس كتابنا هذا خاصاً بإثبات شخصية المسيح ، وحسبنا أن القرآن ومن قبله الإنجيل يتحدث عن وجوده ، ولنا الحقيقة المادية الثابتة ، وهى أن وجوده ، أحد معالم الاجتماع الإنسانى الذى أثر ولا يزال يؤثر فى مئات الملايين من البشر قرابة عشرين قرناً من الزمان .

قصة المسيح كما ترويها الأناجيل:

ولامناص للباحث غيرالمسلم أن يتلمس قصة المسيح من الأناجيل الأربعة ، وهى تنطق كلها بحياة إنسانية ، فقد ولد يسوع فى قرية بيت لحم « من أعمال فلسطين » ولم تلبث أمه « مريم » أن فرت بطفلها مع خطيبها « يوسف النجار » إلى مصر هربا من اضطهاد « هيرودوس » ثم لا تلبث أن نرى المسيح يظهر فجأة فى منطقة الجليل وهو يكرز أو بالأحرى يبشر باقتراب ملكوت السماء ، داعيا بنى اسرائيل إلى التوبة والاستغفار مما ارتكبوه من الخطايا والذنوب .

ويقدر الباحثون مدى حياة دعوته وتبشيره بعامين ، لم يلبث بعدها أن جاءت نهايته ولحق بالرفيق الأعلى فى سنة ٣٢ م والرأى الراجح أن سنه كان يتراوح حول الثلاثين عاما .

(١) دورانت جزء ٣ مجلد ٣ ص ٢٠٢ .

وعندى أن معجزة المسيح الكبرى ، التى تصدع العقل البشرى وتضطره اضطرارا إلى التسليم بانطواء شخصه على سر يستعصى على التحليل العلمى ، هو هذه الحياة العامة المتناهية فى القصر «ماءان» مع عظمة التأثير الذى أحدثته فى تاريخ البشر . فكم شهد التاريخ أشخاصا دعوا إلى الحق والفضيلة والاستقامة والخير ودفعوا حياتهم ثمنا لدعوتهم ..ومع ذلك فلا يكاد يذكرهم إنسان ، وكم امتلأ التاريخ بالملوك العظام والقياصرة والغزاة والفاتحين والعلماء والفلاسفة ومع ذلك فليس يسجل التاريخ لواحد منهم أثرا باقيا فى نفوس مئات الملايين كما يسجل للمسيح ، إلا أن يكون بوذا من قبله ، وسيدنا محمد من بعده ، وهذا الانفراد بهذا السلطان الروحى على البشر هو الذى ينطق بانطوائهم على سر يستعصى على العقول والأفهام .

وليس للمسيح فى أناجيله الأربعة ، التى قصت علينا قصة حياته السريعة وكيف انتهت ، سوى موعظة واحدة جامعة لكل تعاليمه وروحها وهى موعظة الجبل ، وهى ناطقة بأن المسيح قد ارتضى الإطار العام للديانة اليهودية ، كما فعل بوذا من قبله إذ ارتضى اطار الديانة الهندوكية ، وحصر تعاليمه فى محاولة انقاذ النفس البشرية بتعاليم جديدة من براثن الشهوات والأحقاد والمادية الطاغية ، والمناداة بدين الحب ، جاعلا الله رمز المحبة .

موعظة الجبل :

ومن حق المسيح علينا وخاصة فى هذه الأيام التى طغت فيها المادية وامتلأت النفوس بالشهوات والأحقاد ، وتعالت الصيحات من كل جانب تدعو إلى الانتقام والبطش والارهاب ، أن نستمع إلى موعظته فوق الجبل :

« قد سمعتم أنه قيل للأولين لاتقتل ، ومن قتل فإنه يستوجب الدينونة ، أما أنا فأقول لكم إن كل من غضب على أخيه يستوجب نار جهنم فإذا قدمت قربانك إلى المذبح وذكرت هناك أن لأخيك عليك شيئا ، فدع قربانك أمام المذبح وأمض أولا فصالح أخاك ، ثم عد بعد ذلك وقدم قربانك .

— قد سمعتم أنه قيل للأولين لا تزن .

أما أنا فأقول لكم ، إن كل من نظر إلى امرأة لكى يشتهيها فقد زنى بها فى قلبه .

وقد قيل من طلق امرأته فليدفع إليها كتاب طلاق ، أما أنا فأقول لكم من طلق امرأته إلا لعلة الزنى فقد جعلها زانية ، ومن تزوج مطلقة فقد زنى .

— قد سمعتم أنه قيل للأولين لاتحنث بل أوف للرب باقسامك

أما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة بالسماء فإنها عرش الله ،

ولا بالأرض لأنها موطىء قدميه ، ولا بأورشليم فإنها مدينة الملك العظيم . ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل منه شعرة بيضاء أو سوداء .

ولكن ليكن كلامك نعم . . . نعم ولا . . . لا ، وما زادعلى ذلك فهو من الشرير .

— قد سمعتم أنه قيل العين بالعين والسن بالسن .

أما أنا فأقول لكم لا تقوموا الشرير ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فخل له رداءك أيضاً ، ومن سخرك ميلا فامش معه اثنين ، ومن سألك فاعطه ، ومن أراد أن يقترض منك فلا تمنعه .

— سمعتم أنه قيل أحبب قريبك وابغض عدوك .

أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم ، وأحسنوا إلى مبغضيكم وصلّوا من أجل من يعنتكم ويضطهدكم ، لتكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات ، لأنه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين .

— احترزوا من أن تصنعوا بركم قدام الناس لكى ينظروكم وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السموات . إذا صنعت صدقة فلا ينبغى أن تعلم شمالك ما صنعت يمينك لتكن صدقتك

فى خفية فأبوك هو الذى يرى فى الخفاء وهو الذى يحاسبك عليها .

— إذا صلّيتم فصلّوا هكذا : أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك فى الأرض كما هى فى السماء ، أعطنا خبزنا كفافنا اليوم ، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن لمن أساء إلينا ، ولا تدخلنا فى تجربة ولكن نجّنا من الشرير — آمين .

فإنكم إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أبوكم السماوى زلاتكم وإن لم تغفروا للناس فأبوكم أيضاً لا يغفر لكم زلاتكم .

— لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والأكلة ، وينقب السارقون ويسرقون . ولكن اكنزوا لكم كنوزاً فى السماء ، حيث لا يفسد سوس ولا أكلة ، ولا ينقب السارقون ويسرقون .

— ليس يستطيع أحد أن يعبد إلهين الله والمال ، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويبغض الآخر ، لا تقدرون أن تعبدوا الله والمال .

— لا تدينوا لئلا تدانوا ، مابالك تنظر القذى الذى فى عين أخيك ، ولا تفطن للخشبة التى فى عينك . يا مرائى أخرج أولا الخشبة من عينك وعندئذ تنظر كيف تخرج القذى من عين أخيك .

— كل ما تريدون أن يفعله الناس بكم ، فافعلوه أنتم بهم هذا هو الناموس والأنبياء .

— لا تستطيع شجرة صالحة أن تثمر ثمراً رديئاً ، ولا شجرة فاسدة أن تثمر ثمراً جيداً ، من ثمارهم تعرفونهم .

تلامذة المسيح أو حواريوه :

وتبع المسيح فى جولاته بعد أن آمن به اثنا عشر تلميذاً يعرفون باسم الحواريين والرسل ، وقد كان واحد منهم « يهوذا » هو الذى خانه وباعه لليهود إذ دلّ على مكانه ليقبضوا عليه ، أما بقية تلامذته ، فقد كمل إيمانهم بعد قيامة المسيح من قبره وتحدثه معهم بروح القدس ، ثم دعوته إياهم إلى أن يذهبوا إلى الأمم والشعوب ليشهدوا على ما رأته عيونهم وليبشروا باقتراب ملكوت السماء .

وصدع الحواريون بما أمروا به ، وانطلقوا إلى مراكز الحضارة فى المنطقة وما يجاورها . . . نحو انطاكيه وكورنثه وغلاطيه . وانفرد مرقص بالذهاب إلى الإسكندرية مكوناً بذلك أعظم كنيسة مسيحية فى الشرق وأقدمها . بينما ذهب داعية آخر ليس من تلامذة المسيح نحو روما مركز الحكم والسلطان فى تلك الأيام ، فأصبح مقدراً له أن يكون هو ناشر المسيحية فى أرجاء أوربا ، ولكنها مسيحية من نوع جديد تختلف كل الاختلاف عن مسيحية الشرق

ولذلك فقد تحولت كما سوف نرى إلى النقيض من كل ما دعت إليه موعظة الجبل وقد كان هذا الداعية القوى النشيط هو بولس . أو سانت بول .

مسيحية بولس :

وكان بولس يدعى شاول ، ولم يكن من تلامذة المسيح ولا ممن رآه فى حياته بل لقد سخر نفسه لمقاومة المسيحيين واضطهادهم ، ثم حدث أن أصيب بالعمى وزاره المسيح فى المنام وزجره وأنّبه ، ووعده بالشفاء إذا هو آمن به وأقلع عن اضطهاد أتباعه ، ومن ناحية أخرى زار المسيح واحداً من أتباعه وأمره أن يذهب إلى شاول ليشفيه . وشفى شاول بالفعل وارتد بصيرا ، ومن هنا بدأ الانقلاب فى حياته فأصبح من أشد المؤمنين إيماناً بالمسيح ، وحماسة فى نشر الإيمان به ، فى إخلاص وفدائية وصدق .

وكان بولس هو صاحب هذه الدعوة من أن المسيح هو ابن الله ، لاعلى سبيل الاستعارة والتشبيه حيث يقول المسيح (أبى وأبوكم)، بل على سبيل الحق واليقين فهو « ابن الله » بمعنى أنه الله بذاته(١)، حيث يقول فى رسالته إلى أهل كورنتس « لقد رأيت المسيح

(١) أعمال الرسل الفصل التاسع — ٣١ .

يسوع ربنا[1]» ، وكثير من الباحثين الأوربيين ، يعتبرون المسيحية الأوروبية الكاثوليكية ، شيء لا يمت إلى المسيحية الأصلية بسبب وأنها قد تأثرت بالأفكار والعقائد اليونانية ، وهى فى كل الأحوال من صنع بولس .

روما المسيحية :

ولم تعن روما ذات الجلال فى بادىء الأمر بهذا الصارخ فى البرية أن عبدوا طريق الرب ، بل لعلها لم تسمع به على وجه التحقيق كما رأينا طوال القرن الأول ، حتى إذا بدأت تسمع به لم تحفل بما سمعت كثيرا ، ولكن جمهرة سكان روما الذين كانوا من العبيد ، بدأوا يرون فى هذه الدعوة الجديدة باقتراب ملكوت السماء ، أملا فى الخلاص مما يعانونه من ويلات ، ووجدوا فى التعاليم الموحية بالحب والتسامح والغفران ، شفاء لجروحهم المادية والنفسية المتقيحة ، ووجدوا فيها غذاء لأرواحهم الجائعة ، وسرعان ما وجد بولس فى روما بيئة صالحة . وجاء على أثره بطرس أحب تلامذة المسيح إليه والذى قال « سأعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ما ربطته على الأرض يكون مربوطا فى السموات ، وكل ما حللته

---

(١) رسالة القديس بولس — إلى أهل كورنته — الفصل التاسع .

على الأرض يكون محلولا فى السماوات (١) » .

وصادف أن ولى عرش روما قيصر مجنون يدعى نيرون ، عنّ له فى يوم من الأيام أن يحرق روما ليغنى على جحيم لهبها أعظم قصائده (أو هكذا تقول بعض التواريخ) حتى إذا ثاب إلى رشده وأدرك عظيم ما ارتكب ، أذاع أن المسئولين عن هذه الفعلة هم هذا النفر من المارقين على دين الآباء والأجداد ، الخونة الذين يبشرون باقتراب ملك غير ملك روما يسمونه ملكوت السماوات .

وبدأت قصة اضطهاد المسيحيين فى روما وفى أنحاء الإمبراطورية كلها ، كما صورتها فأحسنت تصويرها العديد من الأفلام السينمائية ، وإذا كانت صور الوحشية التى عومل بها المسيحيون مما تكشف عن طبيعة الرومان وحضارتهم ، وتملأ النفوس بالاشمئزاز والتقزز ، فإن الجانب الآخر من القصة ، جانب المسيحيين الأوائل ، وكيف قابلوا المحنة ، مما يثلج الصدر ويرفع من كرامة الإنسان ، فلقد كانوا يرمون إلى السباع الجائعة ، أو يعلقون على الصلبان وتشعل فيهم النيران ، وهم لاينفكون عن الإنشاد والترتيل تعظيما للرب ، ومن بينهم من يلهج لسانه بقول المسيح «رب اغفرلهم فإنهم لايعلمون» .

وكان حريا أن يسرى هذا الإيمان العميق إلى قلوب الألوف والملايين ... وهكذا انتشر الإيمان بقرب ملكوت السماء .

---

(١) أنجيل متى — الفصل السادس عشر «٢٠»

مصر مركز العقيدة المسيحية :

وظهرت مصر على الأفق من جديد كمركز رئيسى لهذه العقيدة الجديدة التى تبتعث ما دعا إليه اخناتون قبل ذلك ببضعة عشر قرنا أجمل ابتعاث ، والتى تعكس طبيعة الشعب المصرى أكثر من أى شعب آخر ، فى وداعته وحبه للتسامح ونسيانه الإساءة ، وتغليبه عاطفة الحب على غيرها من العواطف . وعلى ذلك فقد أصبحت الإسكندرية مهبط مرقص الرسول ، هى أعظم كنيسة عالمية للمسيحية ، وبدأ أباطرة الرومان ينيخون على مسيحى مصر بكلكلهم فى الاضطهاد والتعذيب ، حتى وصل الأمر أيام دقلديانوس إلى أن يصدر أمراً عاما شاملا عام (٣٠٣م) بذبح كل مسيحى رجلا كان أو امرأة أو طفلا . ولكن ذلك لم يزد مسيحيي مصر إلا إيمانا على إيمان ، ورغبة فى إعلاء شأن المسيحية أكثر وأكثر .

قسطنطين يعتنق المسيحية :

وسرعان ما انتصر كفاح المسيحيين وثباتهم ... فلم تمض عشر سنوات ، حتى كان القيصر الرومانى الذى خلف دقلديانوس وهو قسطنطين ، يعتنق المسيحية بنفسه ويعلنها ديناً رسمياً للدولة ، ولقد حاول بعض خلفائه ، أن يرتد عن هذا القرار ، ولكن القدر كان قد قال كلمته ، والدين الجديد دين المحبة والسلام بسط سلطانه على روما الطاغية الباغية المتغطرسة .

تدهور الإمبراطورية الرومانية :

وإنه لقدر مقدور أن يقترن إعلان المسيحية ديناً رسمياً للرومان ، بتدهور الإمبراطورية الرومانية وتفككها وانقسامها فى بادىء الأمر إلى شرقية وغربية ، لا تلبث الغربية منها أن تقع فى يد القبائل المتبربرة من القوط والواندال والفرانك والجرمان . والقول على أن هذه القبائل المتبربرة هى أفواج جديدة من هذا العنصر الذى يحرصون على تسميته بالآرى ، أو الهندى أوربى أو القوقازى ، وقد ضغطت عليهم أرجال من المغول والتتار الذين سد فى وجوههم باب الصين شرقا فلم يبق أمامهم إلا أن يندفعوا غربا ليخرجوا ويدمروا ويعيثوا فى الأرض فساداً . فزحفت أرجال منهم أطلق عليها اسم « الهن » فاكتسحوا أمامهم هذه القبائل الآرية المتبربرة والمتمركزة فى منطقة بحر قزوين والقوقاز ، فانتشروا بدورهم فى منطقة شرق أوربا بينما سكن فريق منهم غابات شمال أوربا التى كانت بدأت تصلح للحياة .

وقد استطاع الرومانيون دائماً وهم فى قوتهم الأولى أن يردعوا هذه القبائل المتبربرة وأن يبقوهم على حدود امبراطوريتهم العظيمة مشردين متناثرين ، ولكن مع الزمن واتساع رقعة الإمبراطورية الرومانية ، وفقدان روح التقشف والحياة الصادقة التى عاشها الرومان فى قرونهم الأولى ، وبعد أن انخرط الكبار والسادة فى الحفلات

والملذات والشهوات ، وغصت البلاد بالعبيد والرقيق الثائر المتمرد فى حنايا نفسه ، وغلب العسكريون على القياصرة فأصبح كل قائد جيش يطمع فى العرش إذا هو قهر قرناءه قواد بقية الجيوش الأخرى . . . كل ذلك جعل السوس ينخر فى عظام الإمبراطورية ويفكك أوصالها ، فبدأت القبائل الأوربية المختلفة تجد الطريق معبدا أمامها لكى تغير على أملاك الدولة وتقتطع منها ما شاءت أن تقتطع دون أن تجد رادعا أو حائلا ، ثم امتدت الجرأة فى الهجوم على روما نفسها ، وأدهش هذه القبائل أن لم تستطع روما أن تقف فى وجههم فزادوا فى جسارتهم ... وهكذا أصبحت روما مكانا غير آمن لإقامة الأباطرة .

إنشاء القسطنطينية :

وتصادف فى ذات الوقت أن بدأ الفرس أصحاب الحضارة الزاهرة ، نهضة جديدة فى ظل كسرى جديد وهو ازدشير وبدأوا يوسعون نطاق دولتهم على حساب ممتلكات الرومان فى آسيا ، وإذا كانت روما بعيدة عن هذا الخطر ، فقد قرر قسطنطين وخاصة بعد اعتناقه المسيحية ، أن ينقل عاصمة الرومان إلى مكان أكثر أمانا من غارات القبائل الأوربية وأكثر قربا من موطن الخطر الجديد فى الشرق ليكون بقدرته مواجهته وملاقاته فاختار موقعا يسيطر على بوغاز البوسفور يطلق عليه اسم بيزنطة . وأنشأ عندها

مدينة عظيمة أطلق عليها اسمه كما أطلق الإسكندر من قبل اسمه على الإسكندرية فأصبحت تدعى القسطنطينية التى أصبحت عاصمة للإمبراطورية الرومانية رسميا فى ١١ مايو سنة ٣٣٠ ميلادية .

على أن الاسم القديم (بيزنطة) ظل هو الغالب فأصبح هذا القسم من الإمبراطورية الرومانية القديمة ، يعرف منذ ذلك الوقت بالإمبراطورية البيزنطية .

ولم يكد قسطنطين يموت حتى انقسمت الإمبراطورية الرومانية على يد أولاده إلى دولتين مستقلتين . وعجّل انتقال السلطة من روما بنهايتها كعاصمة تقدر على الدفاع عن نفسها ، فتعرضت لهجمات عنيفة أكثر من مرة من قبائل القوط (ألرك — أتيللا) والواندال فاقتحموها ونهبوها ، وأخيراً استطاع « اودكر » قائد أحدى الفرق المرتزقة من الجرمان الذين تجمعوا للنهب والسلب أن يستولى على المدينة عام ٤٧٥ م ، وطرد آخر امبراطور للقسم الغربى ونادى بنفسه حاكما على روما ، وأسرع امبراطور القسم الشرقى بالاعتراف بهذا الحاكم الجديد ، فقد كان فى شغل عما يجرى فى روما بالأحداث التى كانت قد بدأت تجرى فى الشرق مشكلة أكبر المخاطر على وجوده وكيانه .

العصور الوسطى المظلمة ؟ ؟ !

ويختار الأوربيون حادثة تاريخ سقوط روما بين القبائل المتبربرة

نقطة يختمون عندها تاريخ العالم القديم ، ليبدأوا تاريخ العالم الوسيط الذى يصفونه بالظلام وانتكاس الحضارة ويعدونه عشرة قرون لينهوه فى القرن الخامس عشر بسقوط القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين ، لكى يبدأوا تاريخ العالم الحديث بنهضة أوربا ، وعودة الحضارة إلى الوجود .

ولعل استعراضنا السابق يكشف عن خطأ هذا التقسيم وما ينطوى عليه من رغبة فى ربط الأمور كلها بأوربا واعتبارها محور الكون ، فإذا أظلمت أوربا فذلك يعنى أن الدنيا كلها أصبحت فى ظلام ، وإذا عادت أوربا إلى الحياة الحضارية ، فقد عاد الوجود كله إلى الحياة .

إن تاريخ الحضارة كما مر بنا وحدة تكاد لا تقبل التقسيم والانفصال فليس هناك حضارة قديمة وأخرى جديدة ، وليس هناك حضارة شرقية وأخرى غربية ، أو حضارة أسيوية وحضارة أوربية . . . إن تيار الحضارة تيار متصل ، إنه تيار الحياة نفسها التى لا تعرف التوقف ، ولا تعرف التخلف والعودة إلى الوراء . . . إنها إلى الأمام أبدا ، وإذا حدث فى جزء من أجزائها ، أن غربت شمس الحضارة لأى سبب من الأسباب ، فليس ذلك إلا لأنها تشرق فى مكان آخر أكثر بهاء وجلاء ونورا مما كانت فى يوم من الأيام . وهو ما بدأ يدركه الآن معظم الباحثين من المؤرخين والدارسين

والكتاب من الأوربيين والأمريكان ، فيبددون خرافة القول بأن الدنيا غشيها الظلام إبان العصور الوسطى ويقررون الواقع الذى يثبت عكس ذلك فإذا كانت روما قد نزلت بالفعل عن عرشها ووقعت فى يد المتبربرين، وأعقب ذلك بضعة قرون غرقت فيها أجزاء كثيرة من أوربا فى الظلام ، فإن أربعة أخماس البشرية فى ذلك الوقت كان يزدهر بالحياة الحضارية الرفيعة ويتهيأ لاستقبال إحدى وثبات الإنسانية ومرحلة من مراحل حضارتها الإنسانية الكبرى .

جوستنيان :

فامبراطورية الرومان الشرقية كانت لا تزال تمثل أرق ما وصل إليه الرومان ، سواء فى القوة العسكرية ، أو الموهبة التشريعية والقانونية ، والقدرة الفنية فى الإنشاء والتعمير ، وقد تحقق ذلك كله على يد رجل واحد هو جوستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥ م) فاستعاد سلطانه فى البر والبحر ، وأصدر « مدونة جوستنيان » القانونية التى جمع فيها كل تراث الرومان القانونى ، والتى اعتمدت عليها البشرية منذ ذلك التاريخ كلما أرادت الاغتراف من القانون الرومانى ، وأنشأ فيما أنشأ كنيسة أيا صوفيا ، التى حولها المسلمون بعد فتح القسطنطينية إلى جامع أيا صوفيا ، ثم أعاد كمال أتاتورك فى القرن العشرين الجامع إلى كنيسة جاعلا منه متحفا للفن البيزنطى فى أعظم صوره وبهائه .

فارس والهند والصين :

وإلى الشرق من الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، كانت فارس تتضوع من جديد بالحضارة التى ألممنا إليها فيما سبق ، وتسترد قوتها العسكرية فتصطدم فى سلسلة من المعارك بالإمبراطورية البيزنطية وتتغلب وتنتصر عليها .

وإلى الجنوب من فارس كانت الهند ، تكون مدارسها الفلسفية التى شادت هذا البناء الشاهق من الفكر الإنسانى ، الذى يقف الإنسان فى العصر الحديث أمامه حائرا مشدوها أن يكون العقل الإنسانى قد وصل إلى هذه الدرجة من محاولة التعمق والغوص فى دنيا المجهول واللانهائى .

وإلى جوار الهند كانت الصين بدورها فى مرحلة من مراحل الازدهار الحضارى ، وازدهار المدارس الأدبية والفنية وخاصة الشعر والشعراء ، كما أسهمت البوذية فى الصين (كما فى الهند) بدورها فى إزكاء لهب الفلسفة والفكر والحكمة ، وطبعت فى هذه الفترة الكتب والمؤلفات والموسوعات التى حفظت تراث الصين كله والتى تجعلهما جنة المؤرخين .

وحفل الشرق بمئات الملايين من البشر فى الهند والصين وفارس ومصر عاشوا حياة مهذبة تفيض قلوبهم بالشفقة والمحبة ، وتهتز

مشاعرهم بالرقة والحنان، ولعل أغلبيتهم الساحقة لم تسمع عن سقوط روما فى يد القوط والوندال، وغلبة أودكر وخلفاؤه عليها، غير أن الأمر المحقق أنه لم يطف بخيال العائشين فى الهند والصين ومصر، أن الحياة فى أوربا الغربية سوف تنحدر، فلا تعود تزيد لعدة قرون عن قرى مسورة تضم بين جنباتها أكواخا صغيرة، حيث تقوم من حين لآخر فوق هذا المرتفع أو ذاك قلاع كئيبة مظلمة، وحيث يعيش الناس فى هذه أو تلك يغمرهم الجهل والتمزق والانقسام، ويحرقهم التعصب باسم الدين المسيحى دين الحب والرحمة، فيحولونه إلى جحيم من الخوف والاحقاد والاضطهاد والتنكيل والتقتيل باسم الصليب والمسيح، لا لم يكن يطوف بخيال مئات الملايين فى الهند والصين وفارس ومصر والشرق بصفة عامة... أن مثل هذا يحدث فى أوربا، فقد كانت العقول متفتحة متسامحة منطلقة فى لهفة إلى المعرفة، تقدس العلم والعلماء[1]. وليس أدل على أن ذلك كان شأن الشرق فى هذه الفترة من أن هرقل امبراطور بيزنطه، أرسل إلى الصين وفداً يلتمس ودها ويستعين بها ضد فارس غريمته، ولكن امبراطور الصين فيما يظن قد اعتذر عن إجابة هرقل إلى طلبه فلم يعرف عن الصين المتمدينة أنها بدأت حربا هجومية

---

(١) مختصر تاريخ العالم — ص ١٦٩ — هـ . ج — ويلز .

على جيرانها ، بل لقد أنشأت حول نفسها سور الصين العظيم لكى يكون سداً يدفع عنها غارة المغيرين ، ويذكرها بأن لا تتجاوزه لتعتدى على الآخرين .

رسالة من محمد رسول الله :

ويقول بعض مؤرخى أوربا ، إن امبراطور الصين قد تلقى رسالة أخرى من إنسان كان فى ذلك الوقت أقل شأناً بكثير من هرقل الروم ، وكان شأن هذه الرسالة عجباً أى عجب ، فهى على خلاف رسالة قيصر لم تستعده ضد أحد ، أو تطلب منه عطاء من أى نوع كان . . . وإنما تضمنت دعوة لا يمكن أن تكون قد بدت غريبة فى نظر امبراطور الصين ومن يحيط به ، إذ أنها تتحدث عن إله واحد خالق للكون ومدبره ، وتدعو امبراطور الصين للإيمان به للفوز فى الدنيا والآخرة[1] .

ولم يكن امبراطور الصين هو وحده الذى استقبل سفارة

---

(١) لم تذكر المصادر العربية كابن هشام والطبرى ، نبأ هذه الرسالة وإنما القول على أن رسائل الرسول قد أرسلت إلى كسرى فارس وهرقل الروم ومتوقس مصر وامبراطور الحبشة . ولم يذكر هـ . ج . ويلز المصدر الذى نقل عنه هذا الخبر لنتحقق منه ، على أن لدينا من الأحاديث المنسوبة إلى الرسول ، حديثاً يقول « اطلبوا العلم ولو بالصين » وهو كاف للدلالة على مكانة الصين العلمية وشهرتها وحث المسلمين على شد الرحال إليها .

محمد بن عبد الله الداعية إلى التوحيد ، فقد تسلم مثلها عظماء العالم ورؤوس دوله فى ذلك الزمان : تسلمها كسرى ملك فارس ، وهرقل امبراطور الروم ، وامبراطور الحبشة زعيم أفريقيا . المقوقس كبير القبط فى مصر وقد جاء فى الرسالة إليه .

« باسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ، إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعوة الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإنما عليك إثم القبط . يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وهكذا كان ما اعتبره مؤرخو أوربا بدء العصور الوسطى المظلمة،هو بدء عصر من أزهى العصور الإنسانية ، عصر غمر بالحضارة والنور القسم الأكبر من البشر فى ذلك الوقت ، وبدلا من روما بقسوتها وجلاديها ووحوشها وعبيدها وأرقائها ، طلع على الإنسانية عهد من المحبة والأخوة البشرية والأمن والسلام العالمى ، ما لم تنعم به من قبل كثيراً .

الفصل السابع

الدعوة الإسلامية

ميلاد محمد بن عبد الله ـ قصة الرسول ـ انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ـ خلفاء النبى ـ توقف موجة المد الاسلامى ـ حضارة انسانية ـ

★★

ميلاد محمد بن عبد الله :

أشرنا فيما سبق ، كيف أن روما عندما كانت تجعل من أغسطس قيصر إلها وتنشىء له الهياكل والتماثيل ، ولد فى بيت لحم يسوع الناصرى الذى كان مقدرا له أن يرث عرش قيصر وأن تقام له لا لقيصر ، الهياكل والتماثيل .

وكأن التاريخ يأبى إلا أن يكرر نفسه من حين لآخر ، إذ بينما وجدت فارس فى شخص كسرى برويز ملكا عظيما أعاد لها مجدها وعظمتها كأبهى ما كانت فى يوم من الأيام ، وبينما وجدت الإمبراطورية الرومانية الشرقية « بيزنطه » فى شخص امبراطورها هرقل ملكا قويا حازما رشيدا استطاع أن يجدد شبابها وأن يقيل

عثرتها وأن يوقف تدهورها وظن أن عصرها الذهبي يوشك أن يعود من جديد . . كان يولد فى مكة عام (٥٧٠ م) محمد بن عبدالله. ومكة مسقط رأس محمد لا تعدو أن تكون قرية تقع فى منطقة مقفرة مجدبه تحيط بها الجبال ، لاينمو فيها زرع ولا تسقط فيها أمطار ، وإنما يعيش سكانها على بئر واحدة من الماء هى بئر زمزم. وتقوم شهرة هذه القرية القابعة بين الجبال على أنه يقوم فى وسطها بناء الكعبة ، وهى بناء من الحجر الصلد مربع الأركان والارتفاع فهى مكعب نموذجى ، وليست هذه الكعبة سوى بيت أقامه إبراهيم بمساعدة ابنه إسماعيل لعبادة الله الأحد ، ولكن العرب من بعد إبراهيم وإسماعيل حولوه إلى مجمع للأوثان والأصنام ، جريا على سنة هذه العهود الوثنية .

ولما كانت مكة تقع فى شبه جزيرة العرب ، وهى صحراء قفراء بلقع ، فلم يحدث أن فكر فاتح أوغاز من الشرق أوالغرب سواء من بابل أو فارس أو مصر أو اليونان أو الرومان ، فى أن يستولى عليها، فما كان لغير الأعراب راكبى الجمال ، وقارضى الشعر أن يخترقوا هذا الخضم من الرمال، وما كان باستطاعة الجيوش أن تقطع هذه المسافات الشاسعة ، لغير سبب أو هدف إلا أن تضيع فى الرمال .

على هذه الصورة عاش العرب فى قلب الجزيرة العربية، لايعرفون سوى حياتهم القبلية الخاصة ، لم يحدث أن جمعهم فى أحد الأيام

جامع ، فحياتهم كلها حروب متصلة بين القبائل وبعضها ، وإذا توقفت حرب السيف والرمح ، فلكى تثور حرب الشعر والهجو باللسان. لا يعرفون معنى الاستقرار ، ولا تطيب لهم الحياة فى سلام ، تؤلف إبلهم كل ثروتهم ومحور حياتهم .

قصة الرسول :

وقصة الرسول أشهر من أن تعرف ، ولعلها انفردت من بين سائر أقاصيص الأنبياء ، وعظماء البشر أجمعين ، بأنها محققة بكامل تفاصيلها ، فليس يستطيع أكثر المتنطعين تشككا وتحذلقا أن يتشكك فى حقائقها الثابتة فقد جرت كلها على سمع التاريخ وبصره ، وسجلها تاريخ الشرق والغرب ، وعاصرها عشرات ومئات الألوف من الناس ، وتركت أثرها المادى والحضارى على جبين الزمان .

مات أبوه عبد الله بن عبد المطلب وهو لا يزال فى بطن أمه « آمنة بنت وهب » وعهد به بمجرد ولادته على عادة العرب إلى إحدى المرضعات فى البادية « حليمة السعدية » وبعد موت أبيه كفله عمه أبو طالب أحد زعماء قبيلة قريش وهى التى كانت تسكن حول مكة ، وسرعان ما اشتهر منذ صباه المبكر بالصدق والأمانة ، فاشتغل بالتجارة مع عمه فى خدمة سيدة نساء قريش « خديجة بنت خويلد » ولم تلبث أن أوقع الله حب محمد فى قلبها فعرضت عليه الزواج منها وقبل.

فكفته بذاك مؤونة الكدح سعيا وراء لقمة العيش ، وكرس نفسه للبحث وراء الحقيقة ، فقد كان كل شيء من حوله يهتف به أنه إنسان فذ بين العالمين ، كانت العيون لا تقع عليه إلا ويحس أصحابها أنهم فى حضرة بشر غير عادى ، كان لا ينطق بقول ، أو يتصرف تصرفا إلا وتصغى له الآذان وتتفتح له القلوب ، وهكذا امتلأت نفس محمد بن عبد الله بأن عليه واجبا ورسالة نحو بنى الإنسان ، وهو أن يكشف لهم عن حقيقة الوجود والحياة ، فاستحب العزلة ومداومة التفكير والتأمل ، ووجد شفاء نفسه من هذه الناحية فى الاعتصام برأس جبل يوجد فيه غار هو غار حراء ، فراح يعتكف فيه شهرا من كل عام هو شهر رمضان ،حيث كانت زوجته المخلصة تزوده بطعام يكفيه شهرا ، ينقطع فيه عن ملاقاة بنى البشر وصروف الحياة ، يقطعه فى التأمل فى ملكوت السموات والأرض فى الجبال من حوله ، والشمس والقمر ، فى الإنسان والحيوان والنبات ، فى الحياة والموت ، فيما وقع للبشر من أحداث وما يجرى بينهم وما هو آت إلى آخر الزمان . حتى إذا كانت ذات ليلة من ليالى رمضان ، وهو ملتجىء إلى الغار كعادته كل عام ، وكان قد أتم الأربعين من عمره إذ فاجأه ماروعه وجعل بدنه يرتجف ، فرأى ضوءاً وسمع صوتاً ، وأحس بشىء يهزه بقوة ويهتف به « اقرأ » فلما أن احتج وهو فى شدة الفزع بعدم قدرته على القراءة، هزه هذا

الطارئ الخفى ، هزة أقوى من الأولى وألح عليه فى القراءة ، وعاود محمد الاعتذار ، فإذا الصوت الخفى الذى يعجز علمنا عن تفسيره يهتف به فى وضوح وجلاء :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علَّم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » .

وكان هذا أول القرآن ، ومنذ هذه اللحظة بدأت أعجب وأغرب قصة قصتها صحائف التاريخ ، وليس ما يقرب منها أو يدانيها مع اختلاف الشكل والآثار غير قصتى بوذا والمسيح ، على أن شخصيتى بوذا والمسيح قد غرقتا فى خضم من الأساطير والضباب ، وتحولتا إلى آلهة وأرباب . . . وظلت شخصية محمد بن عبد الله شخصية إنسانية متكاملة واضحة محدودة ، فقد حرص سيدنا محمد على تأكيد هذا المعنى فى نفس كل من يحيط به وردده القرآن وكرره لينقشه فى الأفئدة والصدور « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ » .

والمسلم لا يكمل إيمانه ، بل لا يكون مسلما إلا إذا شهد بأن الله واحد ، وأن محمداً عبده ورسوله .

فما الذى فعله هذا الإنسان الذى انفرد من بين نظرائه فى أن يظل الإنسان .

الدعوة المحمدية :

لقد بدأ أول ما بدأ ينكر على قومه عكوفهم على الأصنام ، ودعاهم إلى الإقلاع عن عبادتها وعبادة الله الواحد الأحد ، رب السماء والأرض الذى لا شريك له ، ليس كمثله شىء وهو السميع العليم .

الله خالق البشر جميعاً والمسوى بينهم فى الإنسانية والحرية والكرامة . وكانت هذه الدعوة تمثل بالنسبة لقريش والعرب ، كل ما يقلب حياتهم وأفكارهم ومفهوماتهم فى كل شىء ، ولذلك فقد تلقوا دعوته ساخرين ، حتى إذا بدأوا يجدون عبيدهم وأرقاءهم يفتحون قلوبهم لها ، تحولوا من السخرية إلى تشديد النكير ، فبدأوا يضطهدون كل مستمع لهذه الدعوة فضلا عمن يستجيب لها ، فما أذهلهم إلا أن يروا نفراً من سادتهم كأبى بكر الصديق ، ومن أشدهم مغالاة فى محاربة المسلمين ينضم إلى صفوفهم « كعمر ابن الخطاب » ، فقرروا فى خاتمة المطاف أن يقتلوا محمداً ويضعوا حداً لرسالته ، فهاجر من مكة إلى المدينة . وبدأ لون جديد من الاضطهاد أخذ صورة العدوان المسلح على المؤمنين ، وكان المؤمنون يطالبون فى المرحلة الأولى بالصبر والاذعان واحتمال الأذى . . . حتى إذا وصل الأمر إلى حد تجييش الجيوش لإبادة الدعوة الجديدة أذن الوحى للرسول وأتباعه أن يدافعوا عن أنفسهم ، أو بالأحرى

أن يدافعوا عن عقيدة التوحيد والحق والعدل الإنسانى والسلام « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير » .

وصدق الله وعده للمؤمنين بمحمد فإن هى إلا ثمانى سنوات بعد الهجرة من مكة ؛ حتى كان يعود إليها مهللا مكبرا بدين الحق، وحتى كان يحطم الأصنام من حول الكعبة وهو يهتف قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ... ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

دين الاخاء والمساواة والكرامة الإنسانية :

وتوحدت شبه جزيرة العرب لأول مرة فى تاريخها حول لواء التوحيد ، ولكن رسالة محمد لم تكن لشعب من الشعوب أو أمة من الأمم وإنما كانت للناس كافة ، فراح يرسل مبشريه يحملون رسائله إلى ملوك العالم ورؤسائها يدعونهم بدعوة التوحيد والأخوة البشرية.

والدعوة إلى الأخوة البشرية قديمة قدم الإنسان كما رأينا . . . ولكن محمدا رسول الله لم يقف عند حد الدعوة إليها ، بل لقد طبقها بالفعل ، فجعل من خواص صحابته بلال الحبشى ، وصهيب الرومى ، وسلمان الفارسى ، وجعل زيد بن حارثة وهو المولى والرقيق ، أميراً على أقيال قريش [1] المفخورة بأرومتها ، والمعتزة

(١) محمد صبيح ـ نور الله .

بأنسابها . وهو ما لم يتم تحققه حتى الآن فى أرقى المجتمعات ادعاء للديمقراطية وتفاخراً بالحضارة والمدنية ، حيث لا يزال التمييز العنصرى والجنسى يفرض نفسه فرضا .

وقد كان الرسول يصدع فى ذلك بدعوة القرآن :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

« إنما المؤمنون إخوة » « المسلمون سواسية كأسنان المشط »

« مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم ، كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

ولا تتسع هذه العجالة للإفاضة فى شرح مبادئ الإسلام وكيف غاص إلى جوهر الأديان كلها وقدم للبشرية أصفى توحيد للألوهية وأنقاه، وحرر الإنسان من نير الكهنة والكنيسة ومحترفى الأديان ، فجعل العلاقة بين الإنسان والرب علاقة مباشرة لا تحتاج إلى وسيط ، وجعل من أركان الدين أن يشارك الفقراء الأغنياء فى أموالهم بقدر معلوم ودعا أصحاب الديانات كلها للتآخى والعيش مع الإسلام فى سلام[١] .

إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق :

وحسبنا أن نجتزئ من بحر الإسلام الفياض ، ببعض آيات

(١) اقرأ تفصيل ذلك فى كتاب « فى الإيمان والإسلام » للمؤلف .

من القرآن الكريم تحدد لنا صورة المسلم أو الإنسان الكامل الحاصل على مكارم الأخلاق ، ليكون رحمة وسلاما للعالمين .

توحيد الله والإحسان إلى الوالدين :

« وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما .

واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا .

ربكم أعلم بما في نفوسكم أن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا .

الحث على التضامن الاجتماعي والنهي عن التبذير والبخل :

وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً .

إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا .

وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا .

ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً .

إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقـدر ، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا .

النهى عن قتل الأطفال :

ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإيا كم ، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً .

النهى عن الزنا :

ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا .

تحريم القتل :

ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق . ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا .

الأمانة والوفاء بالعهد :

ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده .
وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا .

الأمانة فى التجارة والمعاملة :

وأوفوا الـكيل إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا .

النهى عن القول بغير علم :

ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا .

الحث على التواضع والدعة :

ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا .

كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها .

ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة . ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا .

ولا ينبغى أن ينظر إلى هذه الآيات ، كما ينظر إلى موعظة الجبل حيث شملت كل تعاليم المسيح . وإنما هى بعض من كل ، وقطرة من بحر ، فالقرآن كله يفيض بالتوجيهات والأوامر والنواهى التى تعمل على تكوين الإنسان الكامل .

بل إن حياة الرسول وأعماله كلها ، كانت ترسم فى أدق التفاصيل ما يجب أن تكون عليه حياة المسلم الصادق .

خلفاء النبى :

ومرة أخرى لم يكن عجبا ، أن لا يكاد الرسول صلوات الله عليه يلحق بالرفيق الأعلى (٦٣٢ م) حتى مضى صاحباه أبو بكر

وعمر بن الخطاب على سنته ، فملئت الدنيا حيث وصلت جيوش المسلمين عدلا وسلاما .

ويقف جميع الكتاب والباحثين والدارسين فى أى شأن من الشئون من الأوربيين والأمريكان مذهولين حيارى أمام هذه الظاهرة التى يعجز العلم المادى عن تفسيرها ، ظاهرة انهيار جحافل الفرس والرومان أمام الطلائع الإسلامية ، فإن هى إلا بضع سنوات حتى كانت فارس والعراق وسوريا وفلسطين ومصر تستظل بلواء هذه الدعوة الإسلامية الجديدة دعوة توحيد الله ومساواة البشر وأخوتهم . . وإن هى إلا سنوات أخرى حتى كان شمال أفريقيا يدخل تحت لواء الدعوة ، ومن شمال أفريقيا عبرت الطلائع الإسلامية مضيق الصخرة الذى سمى منذ ذلك اليوم بجبل طارق زعيم المسلمين ، وانتشر الإسلام فى أرجاء شبه جزيرة إيبريا فيما يسمى الآن أسبانيا والبرتغال . . . وبينما كان هذا يحدث فى الغرب ، كانت الطلائع الإسلامية تزحف شرقا حتى وصلت إلى حدود الصين ، ولم تكن الدعوة فى حاجة إلى اقتحام سور الصين بالقوة ، فقد نفذت إليها دعوة التوحيد فى سلام ، ونفذت إلى الهند جنوبا وإلى أرمينيا والقوقاز شمالا .

وما أكثر ماقاومت الشعوب من اعتبرتهم غزاة فاتحين ، فقاومت

عقائدهم وعاداتهم ولغاتهم فضلا عن الخضوع الدائم لسلطانهم ، أما هذه المرة وهذا موضع الدهشة عند الباحثين ممن لا يؤمنون بالإسلام دينا من رب العالمين ، فقد ألقت الشعوب، التى أظلها الإسلام، بكيانها فى أحضان دعوته، فاعتنقت الإسلام دينا واتخذ أكثرها لغة القرآن بديلا عن لغته القومية ، وحتى بعد أن زال سلطان العرب العسكرى ظلت هذه الشعوب تلوذ بالإسلام ، وتضطرم حماستها له ولنشر تعاليمه ، كما فعل الأتراك العثمانيون ومن قبلهم المغول والتتار .

وفى ذلك يقول دورانت ، كاتب قصة الحضارة البشرية :

« وحيث عجزت الهيلينية عن أن تثبت قواعدها بعد سيادة دامت ألف سنة ، وحيث تركت الجيوش الرومانية الآلهة الوطنية ولم تغلبها على أمرها ، وفى البلاد التى نشأت فيها مذاهب مسيحية ، فى كل هذه البلاد والأقاليم انتشرت العقائد والعبادات الإسلامية ، واعتنق الدين الجديد المسيحيون ، وجميع الزرادشتيين والوثنيين ، وكثير من اليهود فى آسيا ، واستحوذ الدين الإسلامى على قلوب مئات الشعوب فى البلاد الممتدة من الصين وأندونيسيا والهند حتى فارس والشام وجزيرة العرب ومن مصر حتى الأندلس وتملك خيالهم وسيطر على أخلاقهم وصاغ حياتهم ، وبعث فيهم آمالا تخفف عنهم

بؤس الحيـاة ، وأوحى إليهم العزة والأنفة [1] .

وعندنا أن السر الذى يشده الأوربيين ويستعصى على أفهامهم إنما يكمن فى حقيقة بسيطة واضحة ، وهى أن الإسلام يوحد الألوهية ويلغى كل وساطة بين الإنسان وخالقه ، ويحقق أمل بنى الإنسان فى الحرية والكرامة والمساواة والعدالة الاجتماعية ، وهو ما فتئوا على مر العصور يسعون إليه ويجاهدون من أجله .

توقف موجة المد الإسلامى :

ولقد وقفت موجة المد الإسلامى عند القسطنطينية فى أوربا الشرقية ، كما توقفت فى الغرب عند حـدود فرنسا الغربية ، عندما استطاع شارل مارتل زعيم القوط أن يهزم عبد الرحمن الغافقى فى موقعة « بواتييه » عام ٧٣٢ م .

ولقد هللت مراكز النصرانية فى ذلك الوقت وظلت تهلل نيفا وعشرة قرون لهذا النصر الذى أنقذ أوربا من أن تقع فى « براثن » الإسلام ، ولـكن من حسن الحظ أن الحقيقة لا يمكن إلا أن تنتصر أبدا ... فما أكثر كتاب أوربا وكبار مفـكريها ممن يؤرخون اليوم لأوربا ، يندبون حظ أوربا لهزيمة المسلمين فى تلك الموقعة إذ ترتب

(١) دورانت الجزء (٢) مجلد (٤) ص ١٣٣

عليها غرق أوربا خمسة قرون على الأقل فى دياجير الظلام ، وحسبنا أن ننقل ما كانت عليه حياة أوربا فى هذه الفترة كما وصفها العلامة الأمريكى المؤرخ درابر :

« لقد كانت أوربا فى ذلك العهد غاصة بالغابات الكثيفة من اهمال الناس للزراعة وكانت المستنقعات قد كثرت حول المدن فكانت تنتشر فيها روائح قتالة اجتاحت النـاس وأكلتهم حيث يستغيثون ولا مغيث .

وكانت البيوت فى باريس ولندن تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والبوص ولم يكن فيها نوافذ أو أرضيات خشبية . أما الأبسطة فكانت مجهولة لديهم ، وكان يقوم مقامها القش فينشرونه على الأرض ، ولم يكونوا يعرفون المداخن ، فكان الدخان يطوف بالبيت ثم يتسرب من ثقب صغير صنعوه له فى السقف فكان الناس فى هذه البيوت معرضين لكل أنواع الإصابات الخطيرة . وكان الناس لا يعرفون معنى النظافة ، فيلقون بأحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم أكواما تتصاعد منها روائح قاتلة ولا رقيب ولا حسيب . وكانت الأسرة الواحدة تنام فى حجرة واحدة من رجال ونساء وأطفال وكثيراً ما كانوا يؤوون معهم حيواناتهم المنزلية .

وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش فوقه كيس من الصوف يستخدم كمخده وكانت النظافة معدومة لديهم فلا يعرفون لها رسماً ، وكان الغني منهم لا يأكل اللحم إلا مرة في الأسبوع . ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط أو مصابيح وكان من أثر الجهالة المنتشرة في أرجاء أوربا أن عمتها الخرافات والأوهام فانحصر التداوي في زيارة الأماكن المقدسة ، ومات الطب وراجت أحابيل الدجالين ، وكان إذا دهم البلاد وباء فزع رجال الدين إلى الصلاة ، ولم يلتفتوا إلى أمر النظافة فكانت الأوبئة تفتك بهم فتكا ذريعاً حتى إنها زارت أوربا عدة مرات ، فاجتاحت ملايين من أهلها في أيام معدودة(١).

قرطبة وبغداد :

والآن فلنقارن هذه الصورة التي كانت عليها أوربا في هذه العصور بما كانت عليه حال العالم الإسلامي كما تصوره حاضرتان من حواضره العديدة وهما قرطبة في الغرب وبغداد في الشرق . فأما قرطبة فيصفها العلامة درابر الذي وصف لنا حالة أوربا بقوله : ليست أوربا العصرية بأعلى ذوقا ولا أرق مدنيـة ولا ألطف رونقاً من عواصم الأندلس في عهد العرب ، فقد كانت

(١) محمد فريد وجدي — دائرة معارف القرن العشرين .

الشوارع مضاءة بالأنوار ، ومبلطة أجمل تبليط ، والبيوت مفروشة بالبسط وكانت تدفأ شتاء بالمواقد وتهوى صيفاً بالنسمات المعطرة بواسطة إمرار الهواء تحت الأرض من خلال أوعية مملوءة بالزهر . وكان لهم حمامات ومكتبات ومحلات لتناول الغذاء ، وينابيع مياه عذبة . وكانت المدن والخلوات ملأى بالاحتفالات . وكانوا بدل النهم وإدمان السكر فى المآدب الليلية كجيرانهم الأوربيين يحلون مآدبهم بالقناعة فكانت الخمر محرمة عليهم . وكانت غاية لذاتهم البدنية تنحصر فى تنزههم فى الليالى القمرية فى حدائقهم البالغة حد الجمال ، أو بجلوسهم حول أشجار البرتقال ، يستمعون إلى قصة مسلية ، أو يتجادلون فى موضوع فلسفى ، متعزين عن مصائب الدنيا وآلامها بقولهم إنها لو كانت بغير آلام أو إصابات لنسوا حياتهم . وكانوا يوفقون بين جهادهم فى الحياة ، وبين آمالهم فى النعيم المقيم فى الآخرة » .

ولا جدال عندنا أن العلامة الأمريكى درابر قد ترك لخياله العنان ليصور هذه اللوحة الأدبية لحياة المسلمين فى قرطبة ، غير أن الذى لا شك فيه أنه كونها طبقاً لمطالعاته عن حقائق الحياة الإسلامية فى تلك الأيام .

أما صاحبنا دورانت فهو يصف لنا بغداد فى الشرق بقوله :

وليس لدينا إحصاء لسكان بغداد موثوق به والراجح أنهم كانوا يبلغون ٨٠٠ ألف وان كان بعض المؤرخين يقدرونهم بمليونين ومهما يكن عددهم فإن المدينة كانت فى القرن العاشر الميلادى أكبر مدن العالم على الإطلاق ، مع جواز استثناء القسطنطينية من هذا التعميم ، وكان فيها حى للمسيحيين مزدحم بهم تقوم فيه كنائس وأديرة ومدارس .

ويمضى دورانت فى وصف قصور بغداد إلى أن يقول :

« حتى إذا استقبل المقتدر فى عام ٩١٧ م شعراء اليونان بهرتهم قصور الخليفة ودواوين الحكومة البالغ عددها ثلاثة وعشرين قصراً ، وإيواناتها ذات الأعمدة الرخامية وما بسط على أرضها وجدرانها من طنافس وأقمشة مزركشة كبيرة الحجم يخطئها الحصر تكاد تغطى كل مكان فى الأرض والجدران . وعشرات المئات من السياس ذوى الحلل البراقة ، وسروج الخيل الفضية ذات الأغطية المطرزة بخيوط الذهب والفضة . وما فى الحدائق الواسعة من مختلف أنواع الحيوان البرى والأليف ، وما للخلفاء من قوارب لا تقل عن القصور أبهة وفخامة تجرى فى نهر دجلة — إلى أن يقول :

ويمكن القول بوجه عام أن المجتمع الإسلامى كان مجتمعاً ذا أدب راق إلى أقصى حدود الترقى ، وكان من المظاهر التى تشرف

بها الحياة فى بغداد أن الفنون والعلوم التى لا يحرمها الإسلام كانت كلها بلا استثناء تجد من يشجعها ويأخذ بناصرها ، وأن المدارس على اختلاف درجاتها كانت كثيرة العدد منتشرة فى جميع الأنحاء ، وأن الهواء كان يردد أصداء الشعراء[1] .

وإذا كنا قد قارنا بين القرى فى أوربا والمدن العظمى فى العالم الإسلامى ، فقد بقى أن نقارن بين ملك من أعظم ملوك أوربا فى هذه الفترة وكيف لم يكن يعرف القراءة والكتابة وذلك هو شارلمان الذى توج إمبراطوراً مسيحياً على أوربا كلها ، وبين المأمون الذى كان إذا قهر إمبراطور بيزنطة فى أحد المعارك ، جعل الغرامة الحربية تتلخص فى تسليم قدر معين من كتب أرسطو وأفلاطون وجالينوس وغيرهم من علماء اليونان وفلاسفتهم .

حضارة إنسانية :

وإنى لأحس أننى قد أسهبت فى المقارنة بين ما كانت عليه أوربا المسيحية بعد سقوط روما وما كان عليه بقية العالم فى ظل الإسلام ، وأخشى ما أخشاه أن يتهمنى متهم بالتعصب لدين ضد دين أو لجماعة ضد أخرى ، والله يشهد أن ذلك هو أبعد ما يكون عن خاطرى ، وإنما جرنا إلى هذا السياق هو أن نرد الحق إلى نصابه فما أكثر

---

(١) قصة الحضارة — جزء (٢) مجلد (٤) — ص ١٦٤

ما تجنت أوربا على الشرق والمسلمين بصفة خاصة . . . حتى لقد أسقطت تاريخهم وتاريخ الشرق كله من الحساب كما رأينا ، فوصفت العصور الوسطى بأنها كانت عصور ظلام . فكان لزاما على المؤرخ المحايد أن يثبت زيف هذا الادعاء . . . وأن الظلام كان فى أجزاء من أوربا أو على وجه التحقيق فى أوربا الغربية ، ولكنه لم يكن كذلك حيث عاش المسلمون فى غربها « فى الأندلس » ولا حيث احتك المسيحيون فى الشرق بالمسلمين فى بيزنطة الأوربية ، ناهيك ببقية العالم التى كانت فى أوج مظاهر المدنية والحضارة .

مزيج من الحضارات :

وليس أدل على أننا نؤمن بوحدة الحضارة الإنسانية ، وأن التعصب أبعد ما يكون عن نفسنا وتفكيرنا ، أن نسرع فنقرر أن هذه الحضارة الإسلامية الرائعة التى ازدهرت فى عواصم العالم الإسلامى الكبير ابتداء من سمرقند ، حتى بغداد ودمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة ، ليست سوى مزيج من كل هذه الحضارات التى تحدثنا عنها من قبل حضارة مصر القديمة وبابل وفينيقيا وفارس والهند والصين والإغريق والرومان وبيزنطة مجتمعة ، بعد أن نفخ فيها الإسلام من روح القرآن ، القرآن الذى بدأ أول ما بدأ كما رأينا بالدعوة إلى القراءة والإشادة بالعلم ، والذى حمل حملة شعواء

على الجمود والتقليد والتمسك بالأوهام البالية ، ودعا إلى البحث والإنطلاق والتدبر والتأمل والتفكر فى كل ما يحيط بالإنسان من ظواهر فلكية وأخرى طبيعية . كما يستحث على هذا كرة التاريخ والسياحة فى الأرض ، طلب العلم والمعرفة ، ورفع العلم والعلماء مكانا عليا فقال فيما قال « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » فلا عجب إذا انكب المسلمون على استيعاب كل ما وقع فى أيديهم من علوم الأولين والآخرين ، ولا عجب أن أسرعوا ينقلون إلى العربية تراث الأغريق والهنود والفرس ، وأضافوا إلى ذلك كله ما توصلوا اليه بتجاربهم التى أربت على تجارب الأولين بعد أن رأوا من الدنيا ما لم يرونه ؛ فكان أن أبدعوا وجددوا من العلوم ما لا يزال يحمل الأسماء العربية حتى الآن تتردد على ألسنة علماء الذرة صانعى الصواريخ لأنهم لا يستطيعون مواصلة أبحاثهم إلا على أساسها ومن خلالها ، كعلم الجبر وعلم الكيمياء .



الفصل الثامن

الحروب الصليبية وآثارها

الصليبيون فى بيت المقدس ـ صلاح الدين ومعركة حطين ـ الحروب الصليبية نقطة البداية فى نهضة أوربا ـ الاصلاح الدينى ـ الكشوف الجغرافية ـ ماركو بولو ـ سقوط الاندلس ـ اكتشاف امريكا ـ فاسكودى جاما وماجلان ـ تقسيم العالم بين اسبانيا والبرتغال ـ استيلاء العثمانيين على القسطنطينية ـ نهاية العصور الوسطى ـ صقلية الاسلامية ـ نهضة ايطاليا ـ عهد التنوير والنهضة الاوربية

★★

الحروب الصليبية :

وكان لا بد وقد انقسم العالم كما رأينا إلى قسمين متقابلين ، قسم اختص فيه المسلمون بالرقى والتمدن والحضارة ، وقسم كان يعيش فى الجهالة وضيق الأفق والتعصب ، أن يقع الاصطدام بين الكتلتين. ولقد وقع الاصطدام بالفعل فيما يعرف فى التاريخ باسم الحروب الصليبية حيث كان الأوربيون المحاربون قد اتخذوا من الصليب شعارا لهم فرسموه على ملابسهم وعلى دروعهم وأعلامهم . ويعزى إلى قس أوربى متعصب جاهل ، يدعى بطرس الراهب أنه كان صاحب أول

صرخة بالدعوة إليها عام (١٠٨٨) فقد عاد بعد زيارة إلى بيت المقدس يبكي ويولول ، ويستحث المسيحيين الطيبين لتخليص مهد المسيح وبيت المقدس من المسلمين الكفار . وتصادف فى ذات الوقت أن استغاث امبراطور بيزنطة بالبابا اربان الثانى بابا روما مستنجدا به للدفاع ضد المسلمين الذين كانوا يهددون القسطنطينية. فانتهز اربان هذه الفرصة لكى يزيد من سلطانه وسيادته على أوربا من مشرقها لمغربها ، وكانت البابوية فى هذه القرون هى السلطة الوحيدة المعترف بها فى قلوب المسيحيين جميعا ، ولذلك فقد وجه اربان نداءه لتخليص البلاد المقدسة من أيدى المسلمين الكفرة ، إلى النبلاء والشعوب ، واعدا بالجنة كل من ينتصر أو يموت فى هذه الحرب الدينية المقدسة، ومهدداً بالنار والجحيم كل من يتقاعس عن تلبية النداء ، ومبشراً بالفتح والنصر كما ألهمه يسوع الرب . وعلى هذه الصورة ابتدأت الحروب الصليبية ، والتى ظلت مستعرة الأوار أكثر من مائتى سنة « ١٠٩٥ — ١٢٩١ » وكانت الحملة الأولى التى قادها بطرس الراهب من شذاذ الأرض وخليط من الناس ، وقد أبيدت هذه الحملة فى الطريق قبل أن تصل إلى بيت المقدس .

وتعددت بعد ذلك الحملات الصليبية التى يخطئها العد أحيانا ، وقد وصلت الحماقة والجهل ببعض هذه الحملات إلى أن تألفت من الأطفال والصبيان ، لأن السيد المسيح تجلى لواحد من الدعاة وبشره

أن فتح بيت المقدس سيكون على يد الأطفال ... وتسير جموع من الصبية بالفعل وراء هذا النداء ، فيموت ألوف منهم بالجوع والبرد فى أثناء الطريق ، ويساق البقية الباقية منهم ليباعوا كعبيد وأسرى . وقصدت حملات إلى مصر باعتبارها رأس العالم الإسلامى ولا سبيل لتحطيم الإسلام إلا فى القاهرة ، ولكن هذه الحملات ارتدت عنها خائبة . . . وحملات سلمية قام بها بعض الملوك العقلاء من أمثال « فردريك الثانى » ، والذى استطاع أن يحقق بالاتفاق مع سلطان مصر ما لم تستطع الجيوش أن تحققه .

وانتهت الحروب الصليبية وأسدل الستار عليها بسقوط آخر موقع بقى فى يد الصليبيين وهو مدينة عكا عام ١٢٩١ واندحر الأوربيون نهائيا وأعلنوا يأسهم من الانتصار نهائيا على الشرق الإسلامى ، ولكنا قبل أن نتحدث عن نتائج الحروب الصليبية لانستطيع إلا أن نذكر صورتين متقابلتين من صورها ، لا لنصور الفارق بين الغرب المسيحى الذى أعماه التعصب والجهل ، بالشرق الإسلامى المستنير المتسامح فحسب ، بل لأهمية هذه المقارنة فى كسر حدة الحروب الصليبية وإطفاء نارها المتأججة .

الصليبيون فى بيت المقدس :

أما الصورة الأولى فهى صورة الصليبيين المؤلفين من الفرنسيين

والإنجليز والألمان وغيرهم ، عندما نجحوا لأول مرة فى فتح بيت المقدس وانتزاعه من المسلمين فقد أبوا إلا أن يمارسوا ما اعتاد الرومان والقبائل المتبربرة فى حروبهم أن يمارسوه ، فأقسموا أن يخوضوا فى بحار من الدماء وأن يقيموا جبالا من الجثث والجماجم ، وقد بروا بقسمهم فكانت النساء يقتلن طعنا بالسيوف والحراب ، والأطفال الرضع يختطفون من فوق أثداء أمهاتهم ويقذف بهم من فوق الأسوار ، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد . وذبح السبعون ألف مسلم الذين ظلوا فى المدينة ، أما اليهود الذين بقوا أحياء فقد سيقوا إلى كنيس لهم وأشعلت فيهم النار وهم أحياء (١)

ثم توجه المنتصرون وعيونهم تفيض بالدمع وقلوبهم تخفق بالعرفان بالجميل للسيح المخلص رب الحب والسلام(٢)

صلاح الدين فى بيت المقدس :

ومرة أخرى نعتذر ، كما اعتذرنا من قبل ، ونحن ننقل صورة من تفاخر أشور بانيبال بأعماله ، فليست أمثال هذه الصور مما تروى فى كتاب يتحدث عن تاريخ الإنسانية ، ولكن الصورة الحضارية التالية لا يمكن أن تدرك بكل أبعادها إلا بعد التقديم

(١) دورانت — الجزء الرابع مجلد (٢) ص (٢٥)
(٢) العبارات للدكتور هندريك فان لون — قصة الجنس البشرى .

لها بالصورة السابقة ، فعندما قدر للمسلمين تحت زعامة صلاح الدين أن يستردوا بيت المقدس من الصليبيين بعد معركة حطين (١١٨٧ م) ودخل صلاح الدين بيت المقدس ، لم يقتل أحدا من سكانها النصارى ، بل حقن دماءهم جميعاً وعرض على من يرغب فى عتق نفسه من الرق والعبودية أن يغادر المدينة بعد أن يدفع عشر قطع ذهبية إذا كان رجلا ، وخمس قطع عن المرأة ، وقطعة واحدة عن الطفل ، فتقدم العادل شقيق صلاح الدين واستوهبه عتق ألف من الفقراء غير القادرين على دفع الفداء فأهداهم له فأسرع بعتقهم فأصبحوا أحراراً ، ثم راح زعماء الصليبيين ومطارنتهم يستهدون بدورهم صلاح الدين مثل هذه الهدية فيهديهم إياها ، ولم يلبث صلاح الدين نفسه أن عتق كل من لم يستطع دفع الفدية من كبار السن .

ويضيف دورانت نقلا عن مؤرخى الحروب الصليبية من الأفرنج « ورق صلاح الدين لدموع النساء والبنات ، فأطلق من كان فى أسر المسلمين من أزواجهن وآبائهن المحاربين . أما النساء والبنات اللائى قتل أزواجهن أو آباؤهن ، فقد وزع عليهن من ماله الخاص . ما أطلق ألسنتهن بحمد الله والثناء على ما عاملهن به صلاح الدين من معاملة رحيمة[١] . وقد أحنقت هذه المعاملة

(١) دورانت — المرجع السابق (ص ٣٨)

الإنسانية التى لم يسمع بمثلهما فى تاريخ الحروب بعض معاصرى صلاح الدين ومؤرخى هذه الحقبة ، فانتقدوه واستهجنوا تصرفاته ، فقد كان من رأيهم أن يُعامل الصليبيون بمثل ما عاملوا المسلمين به من قبل فتقطع رؤوسهم أو يحرقون ، ناسين أن صلاح الدين كان يعكس حضارة إنسانية من أسمى ما عرف البشر من حضارات ، وكان يتأسى ويقتدى برسول الله الذى عذبته قريش ما عذبت ، وهددته بالإفناء ، حتى إذا أمكنه الله منها ودخل مكة فاتحا منتصرا ، قال لهم كلمته المشهورة المدوية فى كتاب الزمان « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . ولقد انتصر الرسول ففتح القلوب كلها بهذا الأسلوب الجديد فى معاملة المغلوبين والمقهورين ، فقد دخلت الناس على الأثر فى دين الله أفواجا أحرارا طائعين فرحين مهللين .

وكذلك كان الأثر المباشر لتصرف صلاح الدين الكريم ، فقد انكسرت حدة الحروب الصليبية ، ولم تقم لها بعد ذلك قائمة وإن استمرت بعد ذلك قرنا آخر من الزمان .

الحروب الصليبية نقطة البدء فى نهضة أوربا :

انتهت الحروب الصليبية بهزيمة أوربا ، ولكنه كان خذلانا خيرا من الانتصار فقد عاد على أوربا . بأطيب الثمرات . فقد ذهب الصليبيون أول ما ذهبوا إلى الشرق تاركين وراءهم ما وصفناه

سابقا من قرى صغيرة تغص بالزرائب ومرابط الخنازير ، والفضلات المتعفنة ، وروائح الناس الذين ورثوا معاطفهم وقبعاتهم عن أجدادهم الذين لم يعرفوا قط نعمة الصابون ، حتى لقد غشى يوما على ملك فرنسا نفسه عندما كان ينظر من نافذة قصره من نتن رائحة الخنازير التى كانت ترعى فى شوارع باريس ، وكانت الأوبئة والطواعين والجدرى تفرى الناس فريا .

وعاد الصليبيون من الشرق بعد أن رأوا شمسه وحضارته وجمال مدنه ، ناقلين معهم طائفة جديدة من المواد الغذائية والفواكه التى زرعوها (لا تزال تحمل أسماءها العربية) عادوا يلبسون العباءات الفضفاضة من الحرير والقطن المصنوعة من الشرق(١) .

وهكذا لم يبدأ القرن الثالث عشر الميلادى ، حتى كانت أوربا تخلع عنها نهائيا ظلمات العصور الوسطى التى تردت فيها ، وشهدت ازدهارا تجاريا لا مثيل له فى القرون السابقة ، واستتبع الازدهار التجارى أو سبقه وعاصره ثورة زراعية عارمة ونهضة صناعية كبرى . وبدأت المدن الجمهورية تنمو وتكبر بسرعة فى إيطاليا على وجه الخصوص باعتبارها كانت حلقة الصلة بين أوربا الغربية

---

(١) هندريك فان لون — قصة الجنس البشرى — ص ٨٣ وما قبلها وما بعدها .

والشرق من خلال البندقيةوجنوا فى البحر ، وفلورنسا وبيزا وميلان فى الداخل .

وترنح عهد الإقطاع ، وحيث كان كل أمير أو فارس يبنى لنفسه قلعة يتحكم منها على كل من يجاوره من فلاحين فيصبحون أتباعا له مرتبطين بالأرض لا يستطيعون منها فكاكا ، ويدخل كل إقطاعى فى حرب لا تنقطع مع جيرانه أصحاب القلاع ، حتى يدين أحدهما للآخر بنوع من الولاء . وبدأ الملوك فى انجلترا وفرنسا يشتد ساعدهم ، ويزيدون من سلطانهم على بقية الإقطاعيين من الأمراء والفرسان تمهيدا لتوحيد دولتيهما .

على أن أهم أثرين جاءا فى أعقاب الحروب الصليبية وكان لهما أكبر الأثر فى دفع أوربا نحو التطور المذهل الذى شهدته القرون التالية ، هما حركة الإصلاح الدينى ، وحركة الكشوف الجغرافية .

الإصلاح الدينى :

ولا تكاد تذكر عبارة الإصلاح الدينى حتى يرد على الفور إسم مارتن لوثر الذى كان أول من تحدى سلطة البابا فى منح الغفران ودخول الجنة عن طريق بيع صكوك لكل من يدفع ثمنها ، حتى أصبحت هذه الصكوك أشبه بالعملة الورقية المتداولة بين الناس وقد حدث ذلك التحدى والاحتجاج أول ماحدث عام ١٥١٧

أى فى القرن السادس عشر . ومع ذلك فإن هذا الإصطلاح الدينى لم يكن فى الحقيقة نقطة البداية بقدر ما كان خاتمة المطاف ، فقد كان من شأن الدعوة الإسلامية بمجرد انتصارها هذا الانتصار الساحق أن تحدث أثرها العميق فى الديانة المسيحية .

فنذ مطلع القرن الثامن الميلادى (٧٢٦ م) نرى امبراطور بيزنطه (ليو) يشن حملة لمحاربة مظاهر الوثنية فى الديانة المسيحية ، فيدعو إلى تحطيم تماثيل المسيح من الكنائس ومسح صوره وايقوناته ، مبتدئاً فى تاريخ المسيحية ماعرف باسم محاربة عبادة الصور أو الحركة (اللايقونية) . وقد ظلت هذه الدعوة ، تنتصر حيناً ، وتهزم حينا آخر لتعود للظهور تارة أخرى ، وليس ذلك إلا أحد مظاهر تأثر العقيدة المسيحية نفسها بتعاليم الإسلام .

ولذلك فليس ينبغى كما قدمنا أن يعتبر مارتن لوثر أول من بدأ حركة الإصلاح الدينى ، وإنما الحق أن يوصف أنه هو الذى انتصرت على يديه نهائياً حركة الإصلاح الدينى ، وانتصاره بالذات كان هو دليل ما وصل إليه سلطان الكنيسة من وهن وضعف ، فقد أحرق من قبل كل من حاول من المصلحين أن يتصدى لمحاربة الفساد البابوى . . . وذل الملوك الذين حاولوا أن يرفعوا رأسهم متحدين سلطة البابا وسيادته على العالم المسيحى ، باعتباره خليفة بطرس

الرسول ظل المسيح على الأرض[1] . فنجاة مارتن لوثر من الحرق جزاء كفره وخروجه على الكنيسة ، وتصدى بعض أمراء ألمانيا لحمايته ، وعدم مبادرة الشعب نفسه إلى تمزيق لوثر ، هو آية التحول الذى كان قد طرأ على دنيا المسيحية وسنشير فيما بعد لماذا كانت ألمانيا من دون سائر بلاد أوربا هى البادئة بإعلان العصيان والتمرد على سلطة البابا والكنيسة بصفة عامة ، وعلاقة ذلك المباشرة بالاتصال بالحضارة والتعاليم الإسلامية .

وحسبنا الآن أن نسجل أن جوهر الإصلاح البروتستنتى الذى يقوم على الغض من سلطان الكنيسة والحد من سيطرتها على الحياة من ناحية ، وتحرير العقل الذى أدى إلى انطلاق الأوربيين فى ميدان العلم والكشف من ناحية أخرى ، يتفق وتعاليم الإسلام والحضارة الإسلامية .

وتقوم الكنائس البروتستانتيه فى طول الدنيا وعرضها خالية من تماثيل المسيح والعذراء كشاهد حى على هذا الأثر[2] .

(١) بلغت سلطة البابا فى العصور الوسطى أوجها على يد جريجورى السابع . عندما فرض على امبراطور ألمانيا هنرى الرابع ، أن يسير ذليلا خاضعا على قدميه من ألمانيا حتى مقر البابا فى بلدة كانوسا ، وكان الإمبراطور يلبس ملابس من الخيش إشعاراً بتوبته ، وظل واقفاً على باب مقر البابا ثلاثة أيام بلياليها ، قبل أن يؤذن له فى المثول بين يدى البابا لينال عفوه وغفرانه .

(٢) اقرأ البحث الطريف القيم عن « صلة الإسلام بإصلاح المسيحية » والذى قدمه الأستاذ أمين الخولى إلى مؤتمر الأديان الدولى المنعقد بمدينة بروكسل عام ١٩٣٥ .

عصر الكشوف الجغرافية :

على أنه لا نهضة إيطاليا الفتية ، أو ازدهار الحركة التجارية وقيام المدن ، ولا حركة الإصلاح الدينى بكل جلالها ، بالتى كان يمكن أن تحدث كل هذا الانقلاب الذى حدث فى حياة أوربا فقلبها رأسا على عقب وحولها من قارة متخلفة ، إلى قارة متقدمة وسابقة فى التقدم ، لو لم تكن حركة الكشوف الجغرافية ، التى يعترف الجميع بأنها أحد الآثار المباشرة للحروب الصليبية .

فقد كان معنى هزيمة الصليبيين واندحارهم العسكرى نهائيا وجلائهم عن آخر موطئ لأقدامهم ، أن طريق الشرق قد أصبح مسدودا فى وجوههم ، ولم يعد باستطاعة الأوربيين الذين تذوقوا أطعمة الشرق وارتدوا ملابسه ، أن يستغنوا عن هذه الأطايب ، ولما كان الشرق البعيد أى الهند والصين وجزر الهند الشرقية هى مصدر الكثير من هذه المنتجات الزراعية والصناعية من أفاوية وحراير وأسلحة وخاصة هذه الحبوب السحرية العجيبة التى تسمى الفلفل والتى تجعل للطعام مذاقا رائعاً ، فقد جهد الأوربيون الغربيون أنفسهم لضمان استمرارهم للحصول على هذه المواد . وقد كان الطريق الطبيعى للحصول عليها هو من خلال تجارة البندقية مع مصر التى كانت تحتكر هذه التجارة وحققت قدرا كبيرا من الغنى بسببها أيام سلاطين المماليك . ولم يكن أ كره على الأوربيين

الغربيين من أن يكونوا سبباً فى زيادة ثراء المصريين ؛ بل إنهم جميعاً قد بدأوا ينفسون على مدينة البندقية عظمتها وثروتها وغناها الذى حققته من خلال احتكارها للتجارة مع مصر والشرق الإسلامى فبدأت الأبصار والعزائم كلها ترنو إلى اكتشاف وسائل جديدة للاتصال بالشرق البعيد (الهند والصين) عن غير هذا الطريق .

ماركوبولو :

وشاءت الظروف أن يتمكن أحد أبناء البندقية الذى اشتهر فى التاريخ باسم « ماركوبولو » أن يصل بجهوده الخاصة عبر سهول روسيا إلى الصين ، ثم يعود منها عام (١٢٩٧) ليحدث مواطنيه عما رآه وشاهده فى هذه البلاد العظيمة التى لم تقع عليها عين أوربى من قبل ، حدثهم عن «قوبلاى خان» امبراطور الصين العظيم وعن حكمته وعلمه ، عن المدن التى يتجاوز عدد سكان الواحدة منها المليون ، عن الريف الصينى المشرق الذى يغص بالخيرات والأمن والسلام ، وكيف تقام على جوانب الطرقات فنادق لتأوى المسافرين وتقدم لهم الطعام والشراب . حدثهم عن منسوجات الحرير والقطيفة الملونة المزركشة بخيوط من الذهب والفضة ، وعن أوراق النقد التى يتعامل بها الصينيون ، وعن الورق والطباعة والبارود ، بل لقد ذهب فى حديثه

معهم إلى ذكر هذه الجزر الكبيرة التى تتاخم شاطئ الصين والتى كان يسمع الأوربيون اسمها لأول مرة فى التاريخ وهى « اليابان » وعن كميات من الذهب والفضة لا حصر لها فى هذه الجزر .

وقد اعتبر الأوربيون أقوال ماركوبولو خرافات وتهاويل ، ولكن مواطنيه من البنادقة وأهل جنوه وإيطاليا بصفة عامة وفى أسبانيا والبرتغال ، حيث كانت الحضارة الإسلامية ، لم يقابلوا كلامه بالتكذيب الذى قوبل به فى غير هذين المركزين من بلاد أوربا ، وإنما كان لأقواله فعل السحر فى إلهاب خيال الملاحين والمغامرين والتجار فى البحث عن اكتشاف طرق للوصول بها إلى هذا الشرق البعيد الغنى ، عن غير طريق مصر والعالم الإسلامى .

وكانت اسبانيا والبرتغال من دون سائر بلاد أوربا هى الرائدة فى هذا الميدان ، ميدان الكشف عن طريق للوصول إلى الشرق . أما لماذا كانت البرتغال وأسبانيا من دون سائر أوربا هى صاحبة هذا الجهد فذلك يقتضينا أن نعود إلى الوراء بضع عشرات من السنين فقد كان آخر العهد بنا أن هاتين الدولتين « أسبانيا والبرتغال » كانتا تعرفان باسم الأندلس وكانتا تستظلان بظل الإسلام .

سقوط الأندلس :

إذا كانت أوربا الصليبية قد فشلت كما رأينا فى غزو الشرق ،

فإنها لم تلق السلاح نهائيا ضد الإسلام والمسلمين ، فقد كان للمسلمين فى غرب أوربا نفسها معقل أى معقل ، فتحولت الحرب الصليبية وأخذت قوة جديدة وهدفا جديدا وهو تصفية المسلمين والإسلام من شبه جزيرة ايبريا .

وكان العصر الذهبي للحكم الإسلامى فى الأندلس، عصر عبدالرحمن الناصر والمنصور قد ولى منذ زمن بعيد ، وحل محل هؤلاء الملوك العظام ، أمراء شغلهم اللهو والمنازعات القبلية عن واجباتهم ، فبدأ الزحف المسيحى ينتزع المدن الإسلامية معقلا بعد معقل واستطاع حاكما دولتى أرجون وقشتاله « فردناند وايزابللا » بعد زواجهما أن يوحدا جهودهما مؤلفين دولة أسبانية قوية استطاعت أن تنتزع آخر معقل فى غرناطة عام (١٤٩٢) وبذلك طوى العلم الذى استمر ثمانية قرون (٧٣٠—١٤٩٢) وعادت اسبانيا والبرتغال بأجمعها إلى حظيرة الكاثولوكية . ولما كان المسلمون فى هذه الحقبة من التاريخ قد بلغوا شأوا كبيرا فى الملاحة وعلم البحار ، وأجادوا استعمال البوصلة التى كانت تمكنهم من ارتياد البحار فى أوسع مجال بالليل والنهار ، فقد استخدم البرتغاليون هذه العناصر العربية فى القيام بنشاط بحرى واسع النطاق يهدف أول مايهدف إلى اكتشاف طريق للوصول إلى الشرق بالطواف حول أفريقيا. فبدأت رحلات من يلقب

بالأمير هنرى الملاّح . وأعقبه بارتلوميوديار الذى كان أول أوربى طاف حول رأس الرجاء الصالح (١٤٨٨) .

اكتشاف أمريكا :

وبينما كان البرتغاليون يجاهدون فى مثابرة لتحقيق حلم أوربا الغربية العظيم وهو الوصول إلى الهند والصين عن غير طريق مصر والشرق الإسلامى ، وقعت الواقعة على يد ملاح من جنوا عمل لحساب أسبانيا ، ونحن نسميها واقعة فليس لهذا الحدث من تسمية سوى أنه واقعة كان مقدرا لها أن تزلزل العالم القديم زلزالا ، إذ تخرج للدنيا ما ظل يوصف حتى عهد قريب بالدنيا الجديدة .

ولابد أن تكون قد عرفت الآن من هو هذا الرجل المقصود فهو ليس إلا خريستوف كولمبس الذى طالع فيما طالع كتب ابن رشد وماتضمنته من أحاديث عن كروية الأرض ، كما قال الإغريق من قبل وأمن العرب على أقوالهم ، واقتنع كولمبس بفكرة كروية الأرض ووصل اقتناعه إلى حد الإيمان . . فأعلن مشروعه وهو الذهاب إلى الشرق عن طريق السير فى البحر غربا ، فكان مواطنوه من أهل جنوا أول من سخر به ، فاضطر أن يذرع أوربا كلها عارضا مشروعه على الملوك والأمراء ورجال الكنيسة ليجد من يساعده على تحقيقه ، فصدت فى وجهه الأبواب واعتبر مجنونا

ومعتوها ، وليس إلا فى بلاط أسبانيا ، حيث كانت آثار الحضارة الإسلامية لا تزال باقية زاهية ، أن وجد كولمبس مستمعاً لمشروعه الخيالى ، وكانت ايزابللا ملكة أسبانيا بالذات من مدت له يد المساعدة .

وعلى ذلك ففى الثالث من أغسطس عام ١٤٩٢ أبحر كولمبس من ميناء بالوس بأسبانيا فى ثلاث سفن مبتدئاً رحلته نحو الهند عن طريق السير غربا فى بحر الظلمات كما كان المحيط الأطلسى يسمى فى هذه الأوقات ، وحملته الرياح التجارية فأوصلته إلى جزر البهاما ثم إلى جزيرة كوبا فتصور كولمبس أنه قد وصل إلى بلاد الهند بالفعل بلاد « الخان الأعظم » وعاد إلى أسبانيا فى ١٥ مارس من العام التالى (١٤٩٣) معلناً نجاحه فى اكتشاف الطريق إلى الهند عن طريق السير نحو الغرب .

وارتجت أوربا لهذا النبأ ، وكان حقيقا بها أن ترتج ، فهى لم تكن قد اكتشفت طريقاً جديداً للوصول إلى الهند فحسب ، ولم تكن قد أثبتت كروية الأرض محدثة بذلك ثورة فى معارف ذلك الزمان ، وإنما كانت تضم إلى قارات العالم الثلاث قارتين أخريين ستغيران ميزان القوى والحضارة ، وتبدآن صفحة جديدة من صحائف التاريخ .

على أن هذه الحقيقة ظلت خافية على كولمبس نفسه بالرغم من

أنه قام بأربع رحلات إلى أمريكا ، ومات وهو يجهل حقيقة ما كشف، ولذلك فلم يكن اسم كولمبس هو الذى أطلق على القارتين الجديدتين بل كان ذلك من حظ أحد ملاحيه الذين قام بعد كولمبس بعدة رحلات (١٥٠٠) وكان هو الذى قال لأوربا المذهولة إن هذه الأرض ليست هى الهند وإنما هى قارة جديدة ، ولما كان هذا الرجل يدعى أمرجو فقد سميت القارة الجديدة بهذا الاسم فأصبحت أمريكا .

فاسكو دى جاما وماجلان :

أما الطريق المنشود إلى الهند فقد كان فاسكو دى جاما هو الذى توصل إليه بعد أن طاف حول أفريقيا ووصل إلى الهند وتصدى للأسطول المصرى فى المحيط الهندى ليضمن الغلبة للأسطول البرتغالى ، وليقضى على الطريق التقليدى لتجارة الهند والصين والشرق عبر البلاد المصرية . ووصلت هذه الاكتشافات الجغرافية البحرية ذروتها على يد ماجلان الذى طاف حول العالم فى ثلاث سنوات مثبتاً بذلك كروية الأرض بما لا يحتاج بعد ذلك إلى برهان ، ومكتشفا لأوربا جزر الفلبين وكان هو الذى أطلق عليها هذا الاسم نسبة لفيليب ملك البرتغال ، وإذا كان قد قدر له أن يموت قبل تمام الرحلة فإن سفنه أتمت الرحلة وعادت من حيث أبحرت ، فأعلنت البرتغال نفسها سيدة على البحار .

تقسيم العالم بين أسبانيا والبرتغال :

وكاد أن يقع بين البرتغال وأسبانيا الاصطدام ، إلا أن البابا تدخل لحسم النزاع بين الدولتين الكاثوليكيتين فأعلن بما بقى له من شبح السلطة تقسيم العالم بين الدولتين فإلى الشرق من خط معين يكون من نصيب البرتغال مالم يكن فى حوزة أمير مسيحى يوم عيد ميلاد سنة ١٤٩٢ ، وما يقع إلى الغرب من هذا الخط فهو من نصيب الأسبان مع مراعاة نفس الشرط وهو أن لايكون فى حوزة أمير مسيحى فى التاريخ المذكور(١).

وقد كان هذا التقسيم لوناً من ألوان الأوهام التى كانت لاتزال تدور فى ذهن بابا روما ، فإن هى إلا عشرات من السنين حتى تكون الدول المسيحية وعلى رأسها هولندا وانجلترا ، بل وفرنسا الكاثوليكية نفسها هى أول من يضرب عرض الحائط بهذا التقسيم وتظل تنتقص من أطراف الإمبراطورية الأسبانية حتى لايبقى لها سوى مسقط رأسها فى شبه الجزيرة وكذلك الشأن بالنسبة للبرتغال(٢).

سقوط القسطنطينية بأيدى المسلمين الأتراك :

ولعل القارىء الذى يتابع معنا هذه الكشوف المذهلة

(١) موسوعة تاريخ العالم ـ الجزء الثالث ـ ص ٩٨٩

(٢) لايزال للبرتغال بعض مستعمرات فى أفريقيا « أنجولا وموزامبيق » ولكنها فى طريقها إلى التحرر .

والتطورات البعيدة المدى فى سير التاريخ ، يقدر لماذا لم يحدث سقوط القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانيـة المسيحية الشرقية فى ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ فى يد الأتراك المسلمين كبير فزع أو جزع فى نفوس مسيحيي الغرب ، فقد كانوا يتهيأون للقيام بأحداث جسام ، وكان حديث الحروب الدينية قد أمضهم ولم يعد يثير فى نفوسهم أى حماسة .

الأتراك العثمانيون :

أما من هم هؤلاء الأتراك المسلمون الذين نجحوا أخيراً فيما عجز المسلمون طوال تسعة قرون عن تحقيقه وهو احتلال القسطنطينية فهم فرع من الأسرة المغولية ، اعتنقوا دين الإسلام منذ عهد مبكر ، وقد سموا بالعثمانيين نسبة إلى جدهم الأول عثمان الذى قادهم إلى آسيا الصغرى وخاض بهم أول معركة ناجحة . وقد استطاعوا أن يكونوا لأنفسهم دولة قامت على حطام الدولة البيزنطية التى كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف والهزال ، وبعد أن فرغ آل عثمان من احتلال ما لبيزنطة من أراض فى آسيا الصغرى وشرق البوسفور . فقد عبروا إلى الشاطئ الأوربى وبدأوا فى الاستيلاء على أملاك الدولة فى منطقة تراقيا ومقدونيا (رومانيا وبلغاريا) وانتهى الأمر بمحمد الفاتح أن استولى على القسطنطينية نفسها جاعلا منها عاصمة

الإمبراطورية العثمانية الجديدة ، ولاشك فى أن بابا روما قد طرب فى ذلك الوقت لهذا النبأ لما يعتبره جزاء وفاقا لتمرد هـذه البلدة الكافرة على سلطانه وتمسكها بأن كنيسة الشرق لا كنيسة روما هى صاحبة السلطة العليا فى دنيا المسيحية .

أهى نهاية العصور الوسطى :

وكما حلا للمؤرخين الأوربيين أن يعتبروا سقوط روما هو بدء العهد الوسيط عصر الظلمات فى أوربا والعالم ، فقد حلا لهم كذلك أن يعتبروا سقوط القسطنطينية بين الأتراك هو نهاية هذه العصور المظلمة وبدء عصر التنوير فى أوربا ويربطون بين بداية نهضة أوربا وسقوط القسطنطينية برباط ساذج « علمونا إياه فى المدارس فى صبانا » وهو أنه قد ترتب على سقوط القسطنطينية أن فر من بها من العلماء والفلاسفة من المسيحيين إلى بلاد أوربا ، حاملين معهم تراث الإغريق القديم ، فلم تـكد هذه الـكتب العظيمة ، كتب أفلاطون وارسطو وفيثاغورس واقليدس والمجسطى تقع فى يد الأوربيين حتى راحوا يغترفون منها ، ومن هنا بدأ عهد النهضة وعصر التنوير .

والـكتاب المحدثون من الأوربيين أنفسهم يرون سذاجة هذا التفسير ، ويضربون عرض الحائط بهذا التقسيم التحكمى لعصور

التاريخ ، فليس هناك فجوات وفواصل بين عهد وعهد وعصر وعصر فالعصور كلها متداخلة متشابكة ، والحضارة لا تمنع عن أوربا جملة ثم تتهيأ لها جملة .

ولقد رأينا فيما مر بنا ، كيف لم ينقطع الاتصال بين الأوربيين والمسلمين قبل الحروب الصليبية وأثناءها وبعدها ، ولقد عرفت أوربا كتب أفلاطون وأرسطو عن طريق المسلمين وفلاسفتهم وحكمائهم كما عرفت جهابذة العرب من أمثال الخوارزمى (صاحب الجبر) وجابر بن حيان (صاحب الكيميا) وابن سينا (صاحب الطب) والبيرونى وابن خلدون وعشرات غيرهم[1] .

وقد كان هناك فى أسبانيا مركز دائم للترجمة فى مدينة طليطلة بعد أن تحولت إلى مدينة مسيحية من جديد ، وفى هذا المركز كانت ذخائر العربية كلها تترجم إلى اللاتينية ، ولذلك فلم يكن بمحض الصدفة ، أن كانت جامعة باريس من دون جامعات أوربا كلها هى البادئة بدراسة الفلسفة « عام ١١٠٠م » والإجماع منعقد على أن جامعة باريس قدعرفت الفلسفة الإغريقية ، وفلسفة أرسطو خاصة عن طريق ابن رشد .

والرأى منعقد كذلك على أن عملاق الكنيسة المسيحية فى ذلك الوقت وهو توما الاكوينى « توماس اكوناس » قد تلقى معارفه

(١) تراث العرب العلمى — قدرى حافظ طوقان .

عن أرسطو من خلال هذا الطريق نفسه، وروجر بيكون «١٢١٠ - ١٢٩٣» الذى يقول عنه هـ. ج. ويلز فى كتابه مختصر تاريخ العالم «إنه أعظم اسم يدوى فى هذا التاريخ بعد أرسطو. كان يعترف بما للعلوم الفلسفية الإسلامية من فضل عليه وعلى العالم المسيحى كله، وبما هو مدين به لليونان عن طريق العلماء المسلمين [1].

صقلية الإسلامية :

ولم تكن الأندلس فى غرب أوربا هى المصدر الوحيد المباشر لانتقال المعارف الإسلامية إلى أوربا، بل كان ثمة مصدر آخر تنتقل إليه هذه المعارف بطريق مباشر من خلالها، وذلك هو جزيرة صقلية فقد حكمها المسلمون منذ فتوحاتهم الأولى وظلوا يحكمونها حتى استولى عليها النورمان عام ١٠٩١ ولم يلبث روجر الثانى أن جعل من بلرم فى صقلية عاصمة ملكه واستعان بمن فيها من المسلمين على تنظيم حكومته فكانت له حكومة تعتبر من أرقى ما عرفت أوربا من حكومات ومن أكثرها غنى وحضارة وعلما، حسبنا أن نذكر أنه كان من بين علمائها الإدريسى العالم الجغرافى العظيم الذى ألف كتاب «نزهة المشتاق» الذى اعتبر أعظم كتاب من كتب الجغرافيا والتاريخ فى تلك الأيام والذى أهداه لروجر.

ومن بين خلفاء روجر، جاء فردريك الثانى الذى كان امبراطورا

(١) دورانت جزء (٦) مجلد (٤) ص (٢٠٦).

على ألمانيا وصقلية فى ذات الوقت ، والذى يعتبر أعظم ملوك القرن الثالث عشر ، وكان من مقومات عظمته إجادته اللغة العربية ، واستيعابه العلوم والمعارف الإسلامية مما جعله يحقق أعظم انتصار سلمى فى الحروب الصليبية . وكان بلاطه يغص بفلاسفة المسلمين واليهود وعلمائهم ، وكانت عملية الترجمة لنقل المراجع الإسلامية دائبة لا تنى ، ولعل هذا يفسر لنا لماذا كانت ألمانيا من دون دول أوربا كلها هى البادئة بالإصلاح الدينى[1] .

بدء النهضة الأوربية من إيطاليا :

وإذا كانت جزيرة صقلية هى الشاطىء المقابل لجنوب إيطاليا وإذ كانت البندقية من قبل هى حلقة الاتصال بين إيطاليا والشرق وكانت تمثل صورة من الحضارة المشرقة التى تذكر بحضارة أثينا وعصرها الذهبى ، فلا عجب أن كانت إيطاليا هى البادئة بالنهضة وسارت على أثرها فرنسا وألمانيا ومن هاتين الأخيرتين امتدت إلى سائر الأرجاء .

نشأة المدن الأوربية :

ومع ازدهار التجارة التى ألمعنا إليها من قبل ، بدأت تنشأ

---

(١) دورانت جزء (٤) مجلد (٤) ص ٢٨٧ ، وصلة الإسلام بالمسيحية لأمين الخولى (ص ٣٦) .

المدن التجارية داخل أوربا ، ونشأت طبقة التجار وإلى جوار التجار نشأت هذه الطائفة الأخرى من العلماء والفنانين ، مؤلفين بذلك طبقة جديدة لا هى من النبلاء والفرسان ، ولا هى من الزراع والحرفيين ، فأطلق عليها اسم الطبقة الوسطى ، وسرعان ما أثبتت هذه الطبقة أن مركز الثقل قد انتقل إليها . ومع استعمال أوربا للبارود الذى نقله إليهم العرب عن الصين كما قدمنا . . . بدأ عصر الفروسية وعهد القلاع فى التداعى ، وظهرت على الأفق الملكيات القوية التى قضت بالتدريج على عصر الإقطاع . كل هذه العوامل مجتمعة هى التى أدت بأوربا إلى نهضتها الحديثة ، وهى عوامل ممتدة على الزمن كما رأينا وليس حادث سقوط القسطنطينية إلا كحادث سقوط روما من قبل لا يؤلف ولا يصح أن يؤلف نقطة تحول فى التاريخ .

عهد التنوير والنهضة :

وعندنا أن عهدالنهضة الأوربية قد بدأ بانتهاء الحروب الصليبية أو لعله قد بدأ خلالها ، وجاءت الكشوف الجغرافية فكانت هى النار التى أشعلت عزائم الأوربيين وشوقهم إلى المعرفة والمقامرة واقتحام المجهول والتمرد على القديم والتطلع إلى كل ما هو جديد .

وبدأنا نشهد فى أوربا عصرا كعصر مصر القديمة أو عصر بابل

أو الإغريق ، أو عصر الإسكندرية أو عصور بغداد والقاهرة وقرطبة ، وبدأ يلمع فى سماء أوروبا نجوم زاهرة مازالت تسطع حتى الآن فى دنيا الفنون والعلوم كما سطعت أسماء أسلافهم من قبل وبدأت تطالعنا الأسماء المدوية فى شتى الميادين . فنرى دانتى عملاق الشعر يذكر بهوميروس ، وبوكاشيو وبترارك يبدآن أدبا إيطالياً بلغة جديدة ، ونرى فى دنيا الفن أسماء تذكر بفدياس الإغريقى ، من أمثال ميكائيل أنجلو ورفائيل وليوناردى فنشى ، وفى دنيا العلوم والفلك تطالعنا أسماء كوبرنيكس وجاليليو وديكارت وتدخل انجلترا لأول مرة فى ميدان العلوم والمعارف الإنسانية ، فتقدم لنا شكسبير كأعظم مايكون الشاعر والمؤلف الدرامى ، وتقدم لنا نيوتن كأعظم مايكون العلماء .

ويحلو للأوربيين ، كما هو شأنهم ، أن يرجعوا إلى هذا العهد طلائع النظم الديمقراطية ، واختراعات الطباعة والورق والبارود واكتشافهم الأسلوب والمنهج العلمى التجريبى الحديث على يد رجال من أمثال روجر بيكون وفرانسوا بيكون وديكارت — وقد رأينا كيف أن ذلك كله محض تفاخر ، فقد سبق الإنسان الصينى والهندى والعربى إلى ذلك كله ، وإنما الصحيح أن يقال إن أوربا الحديثة توصلت إلى هذه المعارف فى هذا التاريخ ، ونفخت فيها من روح العصر وحاجاته الجديدة المتطورة .

الفصل التاسع

العالم فى القرنين الثامن والتاسع عشر

ظهور دول اوربا الشمالية ـ رومنيا ـ صراع البحار ـ شركات الهند التجارية ـ الهند والصين ـ التاج محل ـ غفوة الشرق ـ اكتشاف استراليا ـ الشرق الاوسط ـ الحروب الروسية التركية ـ الثورة الامريكية ـ الثورة الفرنسية ـ الثورة الصناعية ـ عصر الاستعمار ـ الولايات المتحدة واسيا ـ اليابان ـ العالم فى نهاية القرن التاسع عشر ـ حرب التحرير الامريكية

★★

ظهور دول أوربا الشمالية :

نحن الآن على وشك الانتهاء من القرن السابع عشر ، واستهلال القرن الثامن عشر حيث يتهيأ المسرح العالمى للمرحلة التى نعيش فيها مرحلة القرنين التاسع عشر والعشرين . فدول أوربا الشمالية والشرقية التى نعرفها اليوم قد أخذت مكانها فى العرض العظيم ، ولست أعنى بهذه الدول فرنسا وانجلترا أو ألمانيا وهولندا وأسبانيا والبرتغال ، فهذه أسماء قد مرت بنا وترددت أكثر من مرة فى فصولنا السابقة ، وإنما أعنى بها دول السويد والنرويج والدانمرك بعد أن كانت قد

خرجت من الضباب الذى يلفها وخلفت دينها الوثنى وإلهها «اودين» واندمجت فى الأسرة المسيحية كما برزت النمسا والمجر وبروسيا وبولندا ، وراحت هذه الوحدات الجديدة كسابقتها من قبل تخوض المعارك فيما بينها ، وفيما بينها وبين الدول الأقدم عهدا ، ثم بدأت ريح المعارك والحروب تهدأ ... هذه الحروب التى أخذت فى التاريخ عديدا من الأسماء كحرب المائة عام ، أو حرب الثلاثين ، وحرب السبع سنوات ، والتى اتشحت بثوب الدين والتعصب الدينى ، حيث يقوم أبناء الوطن الواحد والبلد الواحد ليذبح بعضهم بعضا كما حدث فى مذبحة سانت بارتلمى التى وقعت فى باريس عام (١٥٧٢) ، أو حيث كانت محاكم التفتيش تقوم بضروب من التعذيب تقشعر لهولها الأبدان ، وحسبنا أن نشير إلى حرق جان دارك قديسة فرنسا وهى حية على يد قضاة فرنسيين ينتمون إلى محكمة التفتيش .

كل ذلك كان قد أصبح حديثا ماضيا ، واستقرت أوربا بموجب صلح وستفاليا (١٦٤٨) وبدأت تنشق نسائم التسامح الدينى .

روسيا :

وكانت السحب الكثيفة والضباب قد انجاب نهائيا عن هذا القسم الكبير من العالم والذى يقع إلى الشرق من نهر الفستولا فى بولندا ويحتل القسم الشمالى كله من قارتى «أوراسيا» أى أوربا وآسيا ، ونعنى بها بلاد الروس .

وقد كان الروسيون الذين هم خليط من الأجناس الشمالية والمغولية والسلافية ، قد كونوا لأنفسهم دولة وجعلوا عاصمتها موسكو واعتنقوا المسيحية الشرقية ، ولم تكد القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية تسقط فى يد الأتراك ، حتى اعتبر الروس أنفسهم ورثة هذه الامبراطورية الشرعيين ، وأعلنوا أنفسهم حماة ورعاة للعقيدة الأرثوذكسية ليس فقط داخل حدود بلادهم بل فى كل أرجاء العالمين .

على أن روسيا ظلت تعتبر بلدا أسيويا حتى قرر أحد قياصرتهم أن يجعل منها بلدا أوروبيا وذلك هو بطرس الأكبر ، فنقل عاصمة روسيا من موسكو إلى ساحل بحر البلطيق (١٧٠٣م) ليطل على أوربا وسميت المدينة باسم منشئها بطرسبرج ، وهى التى تعرف اليوم باسم لننجراد ، وفرض على رجال بلاطه أن يحلقوا ذقونهم وأن يرتدوا الأزياء الأوروبية ، وأدخل الصناعات الحديثة إلى بلاده ، بل وكان هو أول من سافر بنفسه إلى أوربا ليتعلم هذه الصناعات .

وهكذا لم يبزغ القرن الثامن عشر على الدنيا ، حتى كان العالم الذى نعرفه اليوم ونعيش فيه بكل أبعاده وألوانه وتوتراته ومشكلاته قد أخذ طريقه إلى الوجود .

صراع البحار :

وبدأت الدنيا تشهد نوعا جديدا من الصراع يجرى على صفحات الماء، ولقد مرت فى التاريخ من قبل معارك بحرية كسلاميس وا كتيوم، وذات الصوارى ولكنها كانت معارك أقرب ماتكون إلى المعارك البرية حيث كان يحتشد فوق السفن العدد الكبير من الجند، وإنما هى معركة واحدة يلتحم فيها الأسطولان ثم تنتهى بالفوز أو الهزيمة الدائمة لهذا الجانب أو ذاك. أما الآن فنحن إزاء شكل جديد، لم يعد الالتحام فيه يجرى بين أسطول وأسطول فى معركة واحدة ثم ينتهى الأمر بعد ساعات ، وإنما هو التحام دائم بين قوات هذا البلد أو تلك فى أرجاء البحار التى شملت الكوكب الأرضى ، فانتشرت حروب القرصنة ، حيث راح كل مغامر وكل باحث عن الشهرة والمجد والثروة من أقصر طريق ، يقود سفينته ويهاجم بها سفن الآخرين ، ناهبا وقاتلا وحارقا ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وإذ كانت أسبانيا والبرتغال سباقتين كما رأينا لاكتشاف العالم الجديد ، والطرق الملاحية الجديدة للوصول إلى الشرق . فقد جاء على أعقابهما الإنجليز والفرنسيون والهولانديون كل ينافسهم السيادة على البحار ، وينتزع من أملاكهم ما يقدر على انتزاعه غير محترمين قرار البابا المهيب الذى قسم به العالم بين الدولتين .

وتزاحمت هذه الدول الجديدة على اكتشاف هذه المجاهل الجـديدة التى ظلت بدون اكتشاف فى أمريكا الشمالية بصفة خاصة حيث الجو البارد لم يلائم فيما يبدو طبيعة الأسبانيين والبرتغاليين الحارة .

شركات الهند التجارية :

وتألفت شركات تجارية ضخمة لتقوم باستعمار واستغلال والاتجار مع هذه المناطق التى اكتشفت طرقاً جديدة للوصول إليها ، وذلك حسب الظروف والأحوال . فتأسست شركة الهند الهولندية الشرقية ، وشركة الهند الإنجليزية الشرقية والفرنسية وهكذا . وراحت هذه الشركات تنشىء لها المراكز التجارية أولا والعسكرية ثانيا ، ثم الاستعمارية ثالثا على شاطىء الساحل الغربى للهند وجزر الهند الشرقية التى تعرف الآن باسم أندونيسيا .

الهند والصين :

وإذا كان الأسبان قد بدأوا عملياتهم فى أمريكا فى صورة سافرة من النهب والسلب ونزح ثروة البلاد من الذهب والفضة شاقين طريقهم بقوة السلاح والقوة الوحشية السافرة ضد السكان الأصليين فإن زملاءهم الجدد من الإنجليز والهولنديين والفرنسيين لم يستطيعوا أن يفعلوا فى بادىء الأمر مثل فعلهم فى الهند أو الصين فقد كانت

الهند ما تزال تعيش فى سنــا ضوء أباطرتها العظام من آل بابر المغوليين المسلمين .

كانت ما تزال روح الإمبراطور أكبر (١٥٥٦ — ١٦٠٥) تربط الهند إلى بعضها وتملؤها بالقوة والحياة ، كانت النفوس لا تزال عبقة بنسيم الحضارة والثقة بالنفس التى ملأ بها « أكبر » الهنود والذى يعتبره كثير من مؤرخى الهنود المحدثين من أعظم من عرفت الهند فى كل تاريخها من حكام ، فقد حاول أن يوحد بين الهند على اختلاف مللها وأديانها وعقائدها ، فراح يعقد الندوات ليتناظر فى حضرته ممثلو المسيحية مع ممثلى الإسلام والأديان الهندية الأخرى فى رفق وحوار ذكى .

ثم راح يطبق روح الإسلام الذى يهفو أول ما يهفو إلى تآخى البشر ، فتزوج ودعا رجاله جميعاً — كما فعل الإسكندر من قبل — إلى الزواج من النساء الهندوكيات .

وإذ كان توحيد اللغة دائماً أسهل من توحيد الدين ، فقد صك أكبر لغة تجمع بين كل لغات الهند وفارس والعرب وهى اللغة « الأردية » التى تعتبر مزيجاً من هذه اللغات كلها ، وما تزال اللغة الأردية حتى اليوم من أوسع اللغات فى الهند انتشاراً بين المثقفين .

وكان بلاط أكبر يغص بالعلماء والأدباء والفنانين والشعراء لا من الهنود فقط بل من مختلف جنسيات العالم ، ولم يكن يسمع عن فنان أو موسيقى أو شاعر إلا ويدعوه إليه ويشمله برعايته وتشجيعه ، كما كان به ولع شديد إلى كل ما هو جديد من الآلات والاختراعات الآلية ، فكان يستقدم صاحب الآلة أو الاختراع لكى يجربه تحت إشرافه ، وكأنه كان يحس بضمير الغيب أن هذه الآلات سوف تغير ميزان القوى . . . وسوف تغير مصير الهند بل ومصير الشرق كله . . فتخضعه لأصحاب هذه الآلات طوال قرن من الزمان .

التاج محل :

وذهب أكبر كما يذهب الناس ، ولكن بعض خلفائه واصلوا من بعده هذه الحياة الباهرة الذكية ، يدل على ذلك مقبرة « التاج محل » التى تقوم اليوم فى مدينة أجرا كأعظم أثر فنى دقيق أنتجه الإنسان فى كل العصور ، حيث يقف الزوار والسائحون من كل أنحاء العالم مبهورين مشدوهين لا يجدون الألفاظ التى تصور إحساسهم ومشاعرهم أمام هذا الجلال الجميل ، فيقول بعضهم إنه يرى حلما من الرخام ، أو يقول آخر إنها موسيقى من الأحجار ، ويذهلهم أن يكون بقدرة الإنسان أن يصل إلى هذه الدرجة

من رهافة الحس ، وإبداع الجمال ، وهذه الشفافية فى الذوق والتعبير(١) .

غفوة الشرق :

على أن ذلك كله لم يلبث أن انقضى ، وأصابت الهند كما أصابت الصين من بعدها ، ما يصيب كل كائن حى ، وهو أن يمرض أو يتوعك أو يصاب بسنة من النوم ، أو أن يصاب بلطشة برد أو نزلة زكام أو روماتيزم يعييه بعض الوقت ، فإذا كنا فى النصف الأخير من القرن السابع عشر فقد تحولت شركة الهند الشرقية إلى قوة ضاربة فإذا هى تضع يدها قوة واقتدارا على مدينة بومباى ، بعد النجاح فى هزيمة السفن البرتغالية التى كانت تسرح وتمرح وحدها فى مياه الهند .

وبينما تخصصت شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى الهند ، فقد انشغلت الشركة الهولاندية فى جزر الهند الشرقية . . أما الفرنسيون فقد ذهبوا نحو هذه البلاد الأبعد ، نحو الصين واليابان رافعين لواء المسيحية والتبشير بالمسيحية على يد قساوسة الجزويت ورهبانهم ، فبدأوا يناقشون قساوسة البرتغاليين والأسبان الذين كانوا قد سبقوهم إلى هذه البلاد .

---

(١) اقرأ للمؤلف أمة تبعث .

اكتشاف استراليا :

ومضت انجلترا فى نهمها إلى أراض جديدة ومنافذ جديدة للتجارة ، ترتاد المحيط الهادى الذى لا يكاد يعرف له أول من آخر . . . وإذ كان بعض الملاحين قد تحدثوا عن وجود قارة جديدة ، فقد صدرت الأوامر لجيمس كوك عام ١٧٧٦ أن يكتشف قارة استراليا ، فيتحقق له ذلك .

الشرق الأوسط والأدنى :

ذلك كان هو الوضع بالنسبة إلى العالم الجديد والشرق الأقصى وما وراء البحار فما الذى كان عليه حال ما يعرف بالشرق الأوسط والأدنى ، ذلك الذى رأيناه فوارا بالحضارات المتعاقبة . لقد كان عصره المزدهر قد انتهى بتحول التجارة الدولية إلى البحار كما رأينا ، وكانت غارات التتار من الشرق تحت قيادة هولاكو وتيمورلنك بعد هجمات الصليبيين من الغرب قد تركت هذا القسم من العالم منهوكا مضعضعا . . . وكان عصر سلاطين مصر العظام من أمثال بيبرس وقطز وقلاوون وقايتباى قد انتهى ووقعت مصر كما وقع الشرق العربى كله تحت سلطان العثمانيين ، والذين شرعوا — بعد أن فرغوا من السيطرة على أملاك الدولة البيزنطية — يستولون على البلاد الإسلامية حتى دخل السلطان سليم إلى الشام ومصر وضمهما إلى الدولة العثمانية (١٥١٧م)

وأعلن نفسه خليفة على المسلمين ، وإذ كان العثمانيون قوم حروب وصدام لاقوم حضارة وتمدن ، فقد انطفأ نور العلم والتحضر حيث ذهبوا وأنى حكموا ، وإن كانت انتصاراتهم العسكرية المشهورة قد حجبت عن الأبصار هذه الحقيقة فقد راحوا يغزون أوربا الشرقية ويستولون عليها بلدا إثر أخرى حتى دخل (البلغار واليونان والرومان والصرب والمجر والألبان) تحت حكمهم وأصبحوا سادة فى البحر الأبيض بعد أن هزموا البنادقة وتوغلت جيوشهم حتى وصلت إلى أسوار فينا (١٢ سبتمبر ١٦٨٢) وإذا كان البابا لم يحفل منذ قرن مضى لسقوط القسطنطينية فما كان ليسكت أو يسكت معه الأوربيون على سقوط فينا قلب أوربا ، ولذلك فقد تألفت عصبة مقدسة تحت زعامة البابا لتقف سدا فى وجه الزحف العثمانى ، وتوقف العثمانيون .

ونحن الذين نؤرخ للحضارة ووحدتها لا نستطيع أن نأسف كما لم يأسف المفكرون والمؤرخون جميعاً لتوقف الأتراك كما أسف الكثيرون منهم لتوقف المسلمين عن النفوذ إلى فرنسا فلم يكن لدى الأتراك ما يضيفونه للحضارة الإنسانية فما كانت صناعة الحرب التى يتفوق فيها الأتراك من دنيا الحضارة .

الحروب الروسية التركية :

وإذ لا يفل الحديد إلا الحديد فسرعان ما تصدت هذه القوة

الجديدة قوة روسيا لقوة العثمانيين ، فراحت تخوض معها حربا متصلة ينتصر فيها الأتراك مرة وينهزمون مرات ، ولكنهم فى كل مرة سواء فى حالتى النصر أو الهزيمة يخرجون أضعف كيانا وأقل قدرا مما دخلوا إلى المعركة ، وسيظل هذا شأنهم حتى يطلق عليهم اسم « الرجل المريض » .

التاريخ يسرع :

على أن القرن الثامن عشر لم يكد يقترب نحو نهايته حتى كان تاريخ الإنسان يأخذ شكلا جديدا ، فأسرع فى خطوه وزاد فى نبضه ، ثم لم يلبث أن راح يسرع ثم يعدو ولن يلبث أن يطير ، ولعلنا الآن فى بدء مرحلة طيرانه ، فقد رأينا كيف كان التاريخ يمشى حتى الآن فى بطء وتمهل ، رأينا كيف تحدثنا عن تاريخ الإنسان الذى قد يجاوز مئات الألوف من السنين فى سطور قليلة بل كلمات قليلة حتى إذا اقتربنا من التاريخ المكتوب بدأ يتطلب منا صفحات بأكملها . حتى إذا دخلنا فى التاريخ ، احتاج الأمر إلى فصول كاملة لنصف سير الحضارة وتطورها عبر ألوف من السنين — أما الآن فقد رأينا أنفسنا مضطرين لأن نخصص الفصول الطويلة للتحدث عن قرن واحد أو قرنين فى حياة البشر ، بعد أن أصبح كل عام من الأعوام يحمل للبشرية انفجارا جديدا فى العلاقات بين الدول والجماعات ، وبين الإنسان وأخيه الإنسان ،

وبين الإنسان فى علاقته مع الطبيعة والقوى الكونية .

كانت الامبراطوريات تتألف فى القديم كما رأينا لتدوم ألف عام أو بضعة قرون على أقل تقدير . . . أما الآن فلن تدوم أعتى الامبراطوريات إلا قرنا واحدا من الزمان كما سنرى .

إن التاريخ يسرع خطاه من غير شك لحدث يراد ، ولكن فلنحاول أن نعود إلى موضوعنا وفق سياق الحوادث وتطوراتها .

الثورة الأمريكية :

كان أول الانفجارات التاريخية التى أشاعت الحرارة فى القرن الثامن عشر هو الثورة الأمريكية على انجلترا عام ١٧٧٦ ، ولقد تركنا الحديث عن هذا العالم الجديد « الأمريكتين » وهو ملك خالص لأسبانيا ترتع فيه ، ورجلها كورتيز يطحن ذلك الشعب المتمدين « الأزوتيك » الذى كان يسكن المكسيك وبيرو . وكان الأسبانيون يفعلون بهذه البلاد الجديدة وسكانها ما كان يفعله الرومانى القديم بأملاكه وعبيده ، إن شاء أبقاهم أحياء وإن شاء أماتهم ، إن شاء باعهم أو إن شاء استرقهم . وسرعان ما أصبحت أسبانيا أغنى دول أوربا على الإطلاق لما تكدس فيها من الذهب فكان ذلك مدعاة لظهور أول مذهب أوربى اقتصادى بمعناه الحديث ، والذى أطلق عليه اسم المذهب التجارى ، وهو يدور حول

ضرورة تدخل الدولة فى التجارة الدولية لتوفير أكبر قدر من الذهب والفضة داخل حدودها .

ولما كان حصول أسبانيا على الذهب الوفير قد جاء من أمريكا فقد اتجه الطامعون الجدد صوب أمريكا ، وقد كان هؤلاء الطامعون الجدد هم هولاندا وانجلترا وفرنسا ، ودارت المعارك بين هذه القوى الجديدة وقوة أسبانيا والبرتغال القديمة ، وخرجت انجلترا من هذه المعارك منتصرة فاستطاعت أن تستأثر بأمريكا الشمالية كلها فتكون من نصيبها باستثناء المكسيك التى ظلت أسبانية [1] .

وكان المهاجرون قد بدأوا يتوافدون على هذه البلاد الجديدة من مختلف العناصر الأوربية من هولنديين وانجليز وفرنسيين وألمان ، وأكثرهم فار من وجه الاضطهاد الدينى الذى كان يسود أوربا ، بينما جاء البعض طلبا لتحقيق الغنى والثروة ، ودخل الوافدون الجدد فى معارك مع الهنود الحمر سكان البلد الأصليين ... وإذ كانت الأراضى الجديدة واسعة وشاسعة بلا حدود ، فقد ظل الوافدون الجدد يتوسعون مؤلفين ولايات جديدة ، تدين بالولاء للتاج البريطانى الذى كان يحكمهم حكما مباشرا من لندن .

وجاءت الساعة التى أحس فيها أبناء هذا العالم الجديد ، وقد

---

(١) حصلت المكسيك على استقلالها خلال الفترة (١٨١٠ — ١٨٢٠)

شبوا فى دنيا جديدة من الحرية والانطلاق ، أنه من غير المعقول أن يحكموا من وراء البحار ، فاجتمع مندوبون من ثلاث عشرة ولاية فى مدينة فيلادلفيا فى ٤ يوليو ١٧٧٦ وأعلنوا استقلال الولايات المتحدة الأمريكية عن انجلترا تحت زعامة جورج واشنطون ، وقد كان هذا الإعلان هو أول ثورة شعبية فى العصور الحديثة على حق الملوك المطلق ، وقد جاء هذا الإعلان ثمرة إيمان نفر من عظماء الرجال بكرامة الإنسان وحقه فى الحرية ، من أمثال بنيامين فرانكلين وآدمز وجيفرسون الذى عهد إليه صياغة الإعلان الذى جاء فى مقدمته :

« إننا نؤمن أن الحقائق التالية واضحة وضوحا ذاتيا .. أن الناس جميعا قد خلقوا متساوين ، وأن خالقهم قد منحهم بعض الحقوق التى لا يجوز التنازل عنها ، وأن من هذه الحقوق ، حق الحياة والحرية والسعى وراء السعادة . ولضمان هذه الحقوق قد أقيمت الحكومات من الناس مستمدة سلطانها العادل من رضاء المحكومين ، وأنه عندما يصبح أى شكل من أشكال الحكم هادما لهذه الأغراض ، فمن حق أفراد الشعب أن يغيروه أو يلغوه وأن يقيموا حكومة جديدة واضعين أساسها على المبادئ ، منظمين سلطانها فى الشكل الذى يبدو لهم أنه يحقق أمنهم وسعادتهم (١) » .

---

(١) جيفرسون — الرئيس الفيلسوف . برنارد مايو — ترجمة محمد عبد المعز نصر ص ١٤

الثورة الفرنسية :

وإذا كان هذا الذى قالته وثيقة إعلان الاستقلال الأمريكية هو ترديد لدعوات هذا النفر من الكتاب والمفكرين الفرنسيين من أمثال فولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو وكتاب الانسكلوبيديا من أمثال ديدرو ودالمبير ، فلا عجب إذا لم يمض عقد واحد من الزمان أى أقل من عشرين سنة ، حتى اندلعت نيران الثورة الفرنسية فى باريس حيث سقط الباستيل رمز العبودية فى ١٤ يوليو سنة ١٧٩١ ، وبدأت هذه المأساة الفرنسية التى أغرقت فرنسا فى بحر من الدماء ، بدأت بدم ملك فرنسا لويس السادس عشر وملكتها مارى انطوانيت وأبت أن تتوقف إلا بعد أن رويت بدماء زعماء الثورة أنفسهم ومشعلى نارها وعلى رأسهم دانتون أولا ثم روبسبير أخيرا .

وليس يعنينا من الثورة الفرنسية تفصيلات وقائعها الدموية وتطوراتها وانعكاساتها ، قدر ما يعنينا أنها صاغت لأوربا نفسها بعد أمريكا مبادىء كانت جديدة على أوربا كل الجدة إذ نودى فيها لأول مرة بما أسموه حقوق الإنسان حيث لم يكن إلا للملوك والأمراء ورجال الكنيسة حقوق . وكان الملك لويس الرابع عشر يقول فى بساطة « الدولة أنا » وكانت الولايات تتوارث وتنتقل من حاكم إلى حاكم باعتبارها مهرا « دوطه » لأميرة من الأميرات .

وسار إعلان حقوق الإنسان الفرنسى على نهج إعلان حقوق الإنسان الأمريكية :

١ — فالناس قد ولدوا أحراراً متساوين فى الحقوق ، وسيبقون كذلك أحراراً متساوين ، وأن التميز المدنى أو الأهلى بينهم إنما يقوم على مقدار النفع منهم للإنسانية .

٢ — غاية العلاقات السياسية هى حفظ حقوق الإنسان الطبيعية التى لا يمكن ضياعها أو إبطالها بمضى المدة ، وهذه الحقوق هى الحرية والملكية والطمأنينة ومقاومة الاضطهاد .

٣ — الأمة مصدر السلطات جميعا وليس لأى فرد ولا نفر من الناس أى حق من السلطة ما لم يكن مستمدا من الأمة ذاتها .

٤ — لا يجوز اتهام أى شخص ، أو القبض عليه ، أو اعتقاله إلا فى الحالات التى ينص عليها القانون وبالكيفية التى يعينها ، وكل من يخالف ذلك مباشرة أو بالوساطة ، محكما أهواء سلطته بدل نصوص القانون يجب معاقبته .

ولا يجوز أن يحاكم شخص بموجب قانون لم يصدر قبل اتهامه وكل إنسان ينبغى أن يعتبر بريئا حتى تثبت إدانته .

٥ — من حيث أن التعبير الحر عن الخواطر والآراء من أغلى حقوق الإنسان فلكل مواطن أن يتكلم أو يكتب أو ينشر بحرية

ما دام مسئولا عن سوء تصرفه فى استعمال الحرية[1] وليست هذه المبادىء إلا ترديدا لما سبق إليه الدستور الأمريكى الذى أعلن فى عام ١٧٨٧ . ولقد رأينا كيف أعلنها القرآن وطبقها المسلمون بالفعل قبل اثنى عشر قرنا سابقة على الثورة الفرنسية[2] .

ولكنه يحلو للفرنسيين أن يعتبروا الثورة الفرنسية هى نقطة البدء فى التاريخ الحديث للإنسان ، وأن إعلان حقوق الإنسان هو شىء لا عهد للبشرية به من قبل ، ولعل القارىء يستطيع أن يدرك الآن بنفسه مدى المبالغة فى هذا الادعاء .

وليس أدل على أن الثورة الفرنسية لم تأت بجديد إلى الإنسانية أن وجه العالم بعدها قد ظل كما كان قبلها ، بل إن وجه فرنسا نفسه قد خضب بالدماء بما لامثيل له فى كل تاريخها ، ولم يلبث بحر الدماء أن طغى على أوروبا كلها من خلال حروب نابليون التى استغرقت خمسة عشر عاما . وعندما انعقد مؤتمر فينا بعد هزيمة نابليون عام ١٨١٥ راح يعيد تنظيم أوروبا كما لو لم تقع الثورة الفرنسية ، أو يكون نابليون . ويقول كثيرون إن مؤتمر فينا كان أكثر رجعية من مؤتمر وستفاليا . على أنه من الحق أن يقال إن الثورة الفرنسية قد صاغت التفكير السياسى لأوروبا عامة وفرنسا خاصة

---

(١) محمد شاهين حمزة — حقوق الإنسان . ص ٤٤ .

(٢) انظر ص ١٥٨ من هذا الكتاب .

طوال القرن التاسع عشر ، وأنها كانت الأساس لكل دستور وضع نظام الحكم بعد ذلك للعالم ، كما كانت الثورة التى تفرعت منها شجرة القومية فامتدت إلى أرجاء أوروبا . وبدأ كل شعب يطالب بحقه فى الحرية وتقرير المصير وإنشاء دولة خاصة به .

الثورة الصناعية :

على أنه إذا كانت الثورة الفرنسية بكل أحداثها المثيرة والدموية والحروب التى أشعلتها لم تأت بجديد إلى دنيا الحضارة الإنسانية ، فقد جاء الجديد من ثورة أخرى لم ترق فيها الدماء ولم تقطع فيها رءوس ، وتلك هى الثورة الصناعية ، التى جاءت للعالم بجديد بالفعل ، وكان مقدرا لها أن تقلب أسس الحضارة كلها فتحولها من روحية معنوية إلى مادية بحتة لا تعترف بغير سلطان المادة وقدرة الآلة ، ومنطق القوة السافرة .

وقد بدأت الثورة الصناعية لا باكتشاف قوة البخار كما يقال عادة ، فقوة البخار كانت معروفة منذ عهد بعيد كما قدمنا ، وإنما يجب اعتبار مبدئها الحقيقى هو إمكان تسخير هذه القوة فى تحريك الآلات[1] — وبالدرجة الأولى عندما أصبح من المستطاع تسيير

(١) اخترع جيمس واط الإنجليزى أول آلة بخارية عام ١٧٦٥ — واخترع فيتش الأمريكى وفولتون السفينة البخارية عامى ١٧٨٧ ، ١٧٩٨ على التوالى .

السفن بالبخار ، وتسيير المصانع بقوة البخار ، وأولا وقبل كل شيء عندما أمكن تسيير أول قطار سكة حديد بالبخار .

ولكى نستحضر عظم الانقلاب الذى أحدثه قطار السكة الحديد فى شئون العالم ، فما علينا إلا أن نستحضر فى أذهاننا كيف أن نابليون بونابرت وهو يتراجع عن روسيا هذا التراجع الذى قرب نهايته ، لم يكن يستطيع أن يسير بسرعة تفوق السرعة التى كان يمكن أن ينتقل بها أى فرعون مصرى ، أو كسرى فارسى ، أو قيصر رومانى قبله بألفين أو ثلاثة آلاف من السنين أو يزيد .

فمذ دخل الإنسان فى عالم التاريخ ووسيلته الكبرى للمواصلات السريعة هى استعمال الخيول إما مباشرة بركوبها أو عن طريق جرها للمركبات .

ولم تكد قوة البخار تعرف ، والقطار الحديدى يستعمل ، حتى كان وجه الحياة يتغير تغيرا كليا من حيث قدرة الإنسان على الانتقال بسرعة عبر مسافات طويلة ، هذه السرعة التى ما تزال تزيد منذ ذلك التاريخ عاما بعد عام وشهرا بعد شهر ثم يوما بعد يوم بل وساعة بعد أخرى .

تفوق أوربا :

هذه الثورة الصناعية ، التى جاءت للإنسان بقوة جديدة ،

كانت هى التى مكنت الأوربيين من التحليق فى آفاق جديدة فى دنيا العلم والمعرفة ، كما كانت هى التى هيأت السبيل لما توالى بعد ذلك من اكتشافات واختراعات تستخدم الطاقة الكهربائية ، وما ترتب على ذلك كله من تفوق أوربا فى دنيا السلاح والعتاد والثقة بالنفس ، فكان أن استطاعت نهائيا أن تسيطر على الشرق كله ، أفريقيا وآسيا .

وكانت الهند أول من سقط صريع هذه القوة الجديدة الجبارة ، قوة الصناعة الحديثة ، قوة السفينة البخارية وقطار السكة الحديد وأنوال النسيج الميكانيكية ، والبندقية والمدفع ، وأخيرا تحولت من أملاك خاصه بشركة الهند الشرقية ، إلى مستعمرة للتاج البريطانى ، ونودى بفيكتوريا ملكة انجلترا امبراطورة للهند عام ١٨٧٧ .

عصر الاستعمار :

ولم يكد القرن التاسع عشر يلفظ أنفاسه حتى كانت قارة أفريقيا كلها ، قد أعيد مسحها وتخطيطها واحتلالها بمعرفة الأوربيين ، وكانت البرتغال هى أول من وضع قدمه على ساحل أفريقيا الغربية كما رأينا ، وتلاها الأسبان فالإنجليز حيث اتخذ كل منهم مراكز فى غرب القارة يتجرون فيها فى العبيد ، ولكن شمال أفريقيا العربى الإسلامى ظل بمنجاة من الاحتلال ، وعندما حاول نابليون فى مستهل القرن أن يغزو مصر استطاع الشعب المصرى

أن يحطم إرادة فرنسا ، وتصورت انجلترا أنه يمكن أن تنجح حيث فشل الفرنسيون ، ولكنها دحرت بدورها بقوة الشعب المصرى (١٨٠٧)، ثم كانت نهضة مصر أيام محمد على حيث تحولت إلى قوة دولية عظمى وبدأت تلحق بركب الحضارة العلمية الحديثة ، ولكن القوى الأوربية الجديدة وقفت لها بالمرصاد .

وفى عام ١٨٣٠ شرعت فرنسا فى احتلال الشاطىء الأفريقى المقابل لها وهو دولة الجزائر ، على الرغم من مقاومة الشعب الجزائرى ، الجبارة تحت قيادة الأمير عبدالقادر الجزائرى ، فقد تفوقت القوى الجديدة الزاحفة ، قوى النظام الآلى والقدرة الإنتاجية الحديثة ، وبالرغم من أن الجزائر كانت تعتبر من الناحية الاسمية جزءا من الامبراطورية العثمانية . فلم تأبه فرنسا لذلك ، فقد راح الوقت الذى كانت أوربا تخشى فيه من الاصطدام بالدول العثمانية .

وتلا احتلال فرنسا للجزائر احتلال الإنجليز لمصر عام ١٨٨٢ بعد أن شقت على أرض مصر قناة السويس التى ربطت البحرين الأبيض والأحمر (١) وبفتح هذا الطريق عادت مصر إلى سابق عهدها معبرا لتجارة الشرق المارة إلى الغرب وبالعكس ، فرأى الإنجليز أن لا سبيل لهم للسيادة على العالم إلا بوضع أيديهم على مصر . . . وتوالت

(١) تمت عملية الربط بين البحرين عن طريق النيل أكثر من مرة عبر التاريخ ، فكانت قناة سيزوستريس فى عهد الفراعنة وقناة أمير المؤمنين فى العهد الإسلامى .

الغزوات لباقى شمال أفريقيا فاحتلت فرنسا تونس ١٨٨١ ثم مراكش ١٩١٢ حتى إذا لم يبق من البلاد العربية سوى ليبيا احتلها الطليان فى مطلع القرن العشرين ١٩١١ .

وإذا كان هذا مصير شمال أفريقيا المؤلف من بلاد عريقة فى المدنية فباستطاعتنا أن ندرك ماذا جرى فى بقية أنحاء القارة . لقد كان احتلالها أمرا من أيسر الأمور ، فقد توغل الرجل الأبيض من هذه المراكز التى اتخذ منها أسواقا لتجارة العبيد إلى داخل القارة لاستجلاب مزيد من العبيد والخامات لهذه الصناعات الجديدة النهمة التى لم يعد هناك حد لإمكانياتها .

وإذا كان الإنجليز قد احتلوا أجزاء من أفريقيا الغربية لتيسير تجارة العبيد ، فقد تحولوا إلى أكبر دعاة لمحاربة الرق بعد أن نجحوا فى ثورتهم الصناعية ، إذ أصبح أعظم مايهدد هذه الصناعات الآلية الحديثة رخص اليد العاملة كما يتحقق ذلك فى استعمال العبيد ، وراحوا يحتلون بقية أجزاء القارة بدعوى محاربة الرق وتجارة العبيد ، وبدأت المنافسة من جديد بينهم وبين الفرنسيين ، أيهم يحتل من أفريقيا أكبر قدر من الأرض والشعوب ، ولم تلبث بلجيكا أن لحقت بهم ، وجاءت ألمانيا لتأخذ نصيبها من الغنائم والأسلاب ، فقد كانت شعوب أفريقيا البدائية لا حول لها ولا طول إزاء هذا الرجل الأبيض المسلح بالحديد والنار .

وجاء وقت دعا فيه سيسل رودس الإنجليزى والذى عين رئيسا لوزراء جنوب أفريقيا ، إلى إنشاء خط للسكة الحديد يصل مدينة الكاب فى أقصى الجنوب من أفريقيا حتى القاهرة والإسكندرية أقصى ميناء فى الشمال ، على أن يمر هذا الخط الذى يخترق القارة كلها فى أرض إنجليزية ، ولما سئل عن ضخامة هذا البرنامج قال قولته المشهورة « كم كان بودى لو استطعت أيضا أن أضم إلى انجلترا كواكب السماء »

وهكذا تحولت أفريقيا كلها إلى قارة مستعبدة وأطلق عليها اسم القارة السوداء ، والقاره المظلمة . ولم يتصور الأوربيون شعوب آسيا وأفريقيا إلا باعتبارهم سلعا وموادأولية يفعلون بها مايشاءون .

الولايات المتحدة الأمريكية وآسيا :

غير أن سيادة أوربا إذا كانت قد بدت مطلقة فى أفريقيا فهى لم تكن كذلك فى آسيا أو على الأقل فى شرق آسيا فقد بدأت تجد مزاحماً وقوة جديدة صاعدة وهى الولايات المتحدة الأمريكية . لم تكد الولايات المتحدة ، تحصل على استقلالها وتضع دستورها قبيل نهاية القرن الثامن عشر ، حتى نشطت فى بناء قوتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وإذ كانت تبدأ فى مجتمع جديد وبكر ، فقد كانت أسرع إلى الاستفادة بنتائج الثورة الصناعية ، بل وكانت هى

السباقة فى استخدام قوة البخار فى السفن وفى السكك الحديدية التى كانت عظيمة الأثر فى الإبقاء على وحدة الولايات المتحدة ، فلولا هذه الوسيلة الجديدة من للمواصلات لانفرط عقد الاتحاد كما انفرطت الدول الواسعة النطاق من قبل .

وعندما سقطت قوة أسبانيا فى أوربا باحتلال نابليون لها ، تصورت دول أوربا أن باستطاعتها أن ترث أملاكها فى أوربا الجنوبية ، فأسرع مونرو رئيس الولايات المتحدة عام ١٨٢٣ وأطلق إنذاراً وتحذيرا لدول أوربا وطلب منها أن ترفع يدها عن الأمريكتين معلنا أن كل تدخل أو اعتداء على أى جزء من الأمريكتين يعتبر عدوانا على الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو ما اشتهر فى التاريخ الحديث باسم « مبدأ مونرو » .

وصدعت أوربا بالإنذار فبدأت دويلات أمريكا اللاتينية تتحرر من الاستعمار الأسبانى والبرتغالى وكانت المكسيك هى البادئة بالاستقلال عام ١٨٢٠ ، ثم تبعتها بقية دول أمريكا الجنوبية التى نعرفها فى الوقت الحاضر .

اليابان :

ولم تكد الولايات المتحدة تهضم هذا النجاح وتزداد ثقة بقوتها وتزداد مطامعها حتى راحت تتجول فى المحيط الهادى

بأساطيلها البخارية القوية الجديدة ، فقابلها على حدود آسيا هذه الجزر اليابانية التى ظلت موصدة الأبواب أمام الجزويت والتجار الأوربيين ، لا تعرف حضارة سوى الحضارة الصينية ، ولا أسلوب حياة إلا أسلوب الحياة اليابانية . ورفضت اليابان أن تفتح أبوابها للأمريكان ، فجاءوها بقوة لا قبل لها بها ، أساطيل تطلق مدافع تنسف كل شيء يعترض طريقها ، ورضخت اليابان لهذه القوة الجديدة ففتحت أبوابها للأمريكان عام ١٨٥٤ ، وأبرمت تحت الضغط والإكراه معاهدة تجارية ...... ، وفى اليوم المقرر لتوقيع المعاهدة أنزل قائد الأسطول الأمريكى ٥٠٠ من رجاله ليكونوا حرساله ، وهكذا ظهرت على الأفق لأول مرة هذه القوة الجديدة الزاحفة .

على أن اليابان لم تنس هذا الدرس القاسى الذى تلقته وراحت تحلل سر هزيمتها فوجدت أن مرجع ذلك هو هذه القوة الآلية الجديدة ، فآلت على نفسها أن تسد هذا النقص فى حياتها فانطلق اليابانيون يعملون فى همة وصممت على اقتباس هذه الأساليب والعلوم الجديدة ، وعلى نقل الآلات والماكينات إلى بلادهم .

فلم يمض على اقتحام الأمريكان لبلادهم نصف قرن فقط حتى كانوا يسفرون عن قوتهم الجديدة ويفاجئون العالم بهزيمة

روسيا عام ١٩٠٤ فى البر والبحر على السواء ، وذهلت أوربا واهتزت ثقة الأوربيين بأنفسهم ، أن يكون باستطاعة شعب أسيوى أن يهزم قوة الروس الجبارة ، التى هزمت من قبل نابليون .

العالم فى نهاية القرن التاسع عشر :

نحن الآن فى ختام القرن التاسع عشر ، وقد وصلت الثورة الصناعية إلى ذروتها بعد تطور صناعة الصلب والكهرباء واستخدام الأخيرة فى الإنارة وتوليد الطاقة واستعمالها فى التلغراف والتليفون ، السلكى واللاسلكى [1] وإقامة المصانع والمؤسسات الجبارة ، التى راحت تزاول تجارتها ونشاطها على الصعيد العالمى .

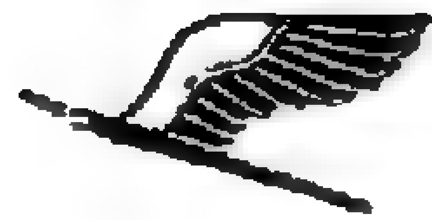
ولم تعد بكين أو دلهى وسمرقند ، أو دمشق وبغداد والقاهرة أو القيروان وقرطبة هى مراكز الإنتاج العالمى والاتجار والحضارة ، فقد حلت محلها مدن لندن وباريس وامستردام وفيينا وبرلين « بعد أن توحدت ألمانيا » وروما « بعد أن توحدت إيطاليا » وأصبحت هى محور النشاط العالمى ومظاهر القوة والحضارة الجديدة .

حرب التحرير الأمريكية :

وفى العالم الجديد ، قامت حركة كادت تعوق سير هذه القوة الزاحفة ، إذ أعلن الجنوب رغبته فى الانفصال عن الشمال ، تشبثا

(١) تم أول إرسال برقية تجارية عام ١٨٤٤ وأول اتصال تليفونى تجارى عام ١٨٧٨ واخترع ماركونى التلغراف اللاسلكى عام ١٨٩٦ .

منه بالإبقاء على نظام الرق الذى ألغاه الشمال ، فقامت حرب أهلية استغرقت أربع سنوات (١٨٦٢ — ١٨٦٥) انتهت بانتصار الشمال على الجنوب ، حيث أعلن إبراهام لنكولن من جديد وحدة البلاد وتأكيد معانى الحرية التى قامت على أساسها الولايات المتحدة الأمريكية ، فأعلن إلغاء الرقيق فى طول البلاد وعرضها ، ولم تلبث أن لمعت فى سماء هذا الجزء من العالم مدن واشنطون ، ونيويورك ، وسان فرانسيسكو وشيكاغو ، منافسة مدائن أوربا السابقة الإشارة إليها .



الفصل العاشر

القرن العشرون

الآثار الاجتماعية للثورة الصناعية

الداروينية والماركسية المادية ــ اشتداد الصراع بين الدول الاوربية ــ اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى والثانية ــ تحرر آسيا وافريقيا - نحو عالم واحد

★★

بين الإيمان والإلحاد :

رأينا حتى الآن كيف أن البشر على مر العصور وتباعد الأماكن والأقطار ، قد أحسوا بوجدانهم وفطراتهم مذ وجدوا على هذا الكوكب الأرضى ، أن لابد وأن يكون لهذا الوجود خالق أوجده ، وعقل يدبر شئونه ، ولابد أن يكون لهذا الوجود تبعا لذلك غاية وهدف . هذا الأحساس الفطرى والغريزى فى كل نفس هو جوهر التدين ، وما ينطوى عليه من جنوح لعبادة الله على شتى الصور والأشكال ، مما ألممنا به سريعا فيما سبق .

على هذا الوجدان عاش الناس ، مستمدين من هذا التصور قوة تعينهم على تحمل مشاق الحياة وآلامها ، وتهيىء لهم طاقة من الأمل فى الحصول على نصيب أوفى من العدل والجزاء .

وإلى جوار الوجدان والإحساس والشعور بوجود الله ، وجد الفلاسفة الذين يحاولون عن طريق التفكير بالعقل المجرد وأساليب المنطق أن يتوصلوا إلى فكرة وجود الله . فقالوا بأسبقية الفكرة على المادة ، وهذا يعنى أن هذا الوجود قد خلق على أساس فكرة سابقة عليه فى عقل الله وفكره .

على أنه إلى جوار هذا التفكير الفلسفى الذى يوصف بالمثالية، وجد دائما على مر العصور قلة من المفكرين والفلاسفة ، رفضوا التسليم بهذه النظرية ، وقالوا بأسبقية المادة على الفكرة ، فالمادة كانت حيث لم يسبقها شىء ، وما الأفكار التى تتردد فى أذهاننا إلا انعكاسا لهذه المادة .

على أن هذه الفلسفة المادية ، والتى اعتبرت دائما أبدا إلحادية تنكر أن يكون لهذا الكون خالق حكيم سابق عليه ، كانت دائما محدودة الأثر ، لا يتجاوز نطاقها بعض الفلاسفة والمفكرين ، ولذلك فلم يحدث أن أخذت طريقها إلى الجماهير بل لم يجرؤ إلا أقل من القليل من بين المفكرين على مجابهة الجماهير بمعتقده فى إنكار الألوهية .

حتى إذا كانت الثورة الصناعية وما سبقها وعاصرها ولحقها من اكتشافات علمية واختراعات آلية وكشوف جغرافية زادت فى إحساس الإنسان بقدرته على استغلال النواميس الطبيعية ، تصور الكثيرون من مفكرى الأوربيين وفلاسفتهم أنه لم يعد هناك محل للقول بوجود الله ، فليس سوى الإنسان والطبيعة المادية الجامدة

العمياء التى أحدثت ما أحدثت نتيجة التطور طبقا لنواميس مقررة أو الصدفة البحتة .

وقد كان الدور السيء الذى لعبته الكنيسة فى حياة الأوربيين وكيف حالت دون انتشار العلم والمعرفة ، سبباً فى إذكاء نار الثورة والتمرد على المسيحية بل وفكرة التدين من أساسها ، فكان أن كثر العلماء والفلاسفة والمفكرون الذين راحوا يسخرون من الديانات كلها ، حتى إذا كانت الثورة الفرنسية كان من أول أعمالها وهى تقضى على الإقطاع أن تقضى على كل ما للكنيسة من نفوذ وسلطان بتقويض فكرة الألوهية نفسها ، ولم تلبث أن رأينا روبسبير يدعو إلى دين جديد هو عبادة العقل ويحتفل بتنصيبه كاهناً أعظم لهذا المعبود الجديد « عقل الإنسان » .

وعندما راحت الاختراعات والاكتشافات الجغرافية والعلمية تترى فى جميع الاتجاهات علت أصوات القائلين بآلية الطبيعة وقدرة الإنسان على الإحاطة بها وفهم كل مغاليقها وأسرارها . ومن بين عشرات ومئات الدعاة إلى هذه الفكرة قام رجلان كان مقدراً لهما أن يحدثا ثورة فى دنيا العلم والاجتماع ، أما أول هذين الرجلين فهو داروين ، وأما ثانيهما فهو ماركس .

داروين وتنازع البقاء :

فأما داروين فهو صاحب كتاب أصل الأنواع ، الذى نادى فيه

بأن الحياة ليست سوى طور من أطوار المادة وأنها انبثقت منها خلال قانون النشوء والارتقاء .

وفكرة التطور ، واشتقاق الحياة من اللاحياة ، ليست شيئاً جديداً فى دنيا الفكر والعلم فقد رأينا كيف سبق بها أرسطو وتحدث عنها العرب فى كتبهم .

ولكن داروين هو الذى أفرغ هذه النظرية فى ثوبها العلمى الصارم ، جاعلا منها قانونا وناموساً ، بعد أن ساق ألوف الحجج والملاحظات على تأييد فكرته . فالطبيعة أو بالأحرى المادة فى تطور دائب ومستمر ، من خلال الصراع الذى لا ينتهى بين ما هو صالح ، وما هو غير صالح لبقائها ، فالصالح يبقى أبدا ، والطالح يزول دائماً .

ولم يكن داروين فى هذا الذى يقوله عن سنة الحياة والطبيعة من أنها تطور نحو الأكمل والأوفى من خلال الصراع المستمر ، إلا عاكساً فى الحقيقة روح عصره الذى كان ينمو فى هذه الفترة من خلال الصراع ، من خلال إهدار كل القيم القديمة والأخذ بالقيم الجديدة .

فالصراع على استعمار أكبر جزء من الأراضى والشعوب كان على أشده بين الدول ، والنظام الرأسمالى الجديد الذى حل محل الإقطاع نتيجة الثورة الصناعية ، بدأ لا يرى فى العمال إلا سلعة تباع وتشترى كأى سلعة فى السوق ، وأجر العامل لا يحدده سوى سعر السوق ،

حتى ولو كان هذا السعر لا يسد الرمق ولا يبقى على الحياة ، ولا يجب أن يشكو من ذلك أحد أو يبتئس أو يتألم ، فإن العمال عندما يموتون من الجوع نتيجة ضآلة أجورهم ، فإن ذلك سوف يقلل من عددهم وبالتالى يزداد التنافس على الحصول عليهم فترتفع أجورهم من جديد إلى القدر الذى يكفى لإبقائهم أحياء حتى إذا ترتب على زيادة الأجور كثرة عدد العمال انخفضت أجورهم من جديد فيموت من يموت فتعود أجورهم إلى الارتفاع وهكذا دواليك[1] .

هكذا تصور الاقتصاديون الأوربيون العلاقات الإنسانية لا تعدو أن تكون كيمياء ، وقوانين عمياء لا مكان فيها للتحدث عن العواطف الإنسانية ، أو المعانى المثالية ، فلا سبيل لتطور الطبيعة ، بل ولا سبيل للنشوء والارتقاء إلا من خلال التزاحم والتنافس على الحياة فلا يبقى إلا الأصلح ولا محل للضعيف وغير الصالح .

فإذا قال داروين إن الصراع بين الأحياء هو ناموس الطبيعة وقانون الحياة ، وراح يقيم ألف دليل على ذلك فهو كما قلنا يعكس روح العصر الذى يعيش فيه .

غير أن داروين لم يكد يؤلف كتبه ، واضعاً نواميس الحياة فى هذا القالب القاسى ، حتى أصبحت إنجيل العلم والمعرفة لا فى علم

(١) انظر للمؤلف كتاب « علاقات العمل » .

الحياة ، بل فى شتى فروع العلوم كلها ، فأخذت كل العلوم والمعارف تنسق نفسها على أساس من الفكرة الجديدة ، فكرة التطور الدائم المستمر من خلال الصراع وتنازع البقاء والبقاء للأصلح[1] .

الماركسية :

ونفذت فكرة الداروينية إلى دنيا الاجتماع والاقتصاد ، فإذا كانت الثورة الصناعية لم تعد تؤمن بغير المادة وقوانين المادة ، ولاتعرف للكون إلاتفسيراً مادياً ، ومادام الرأسماليون قد انحدروا بالنفس البشرية إلى أن تكون مجرد آلة عمياء صماء فى دنيا المادة ، وما دامت الحياة لا تقوم إلا على أساس من الصراع بين الأحياء ، فلماذا لايصاغ ذلك كله فى قانون مادى بحت يحيط بكل شىء ليكون فى مقابل الأديان التى فسرت للإنسان كل شىء عن طريق المعانى والمثاليات .

فليس فى الكون سوى المادة ، وهذه المادة تتطور دائما من خلال ماتحتويه من متناقضات تتصارع فيما بينها إلى أن ينبثق من هذا الصراع حالة جديدة تحمل بدورها فى طياتها نقيضها ليبدأ الصراع من جديد بين المتناقضين ، وهكذا دواليك وهذا هو سر

(١) انظر للمؤلف الرد التفصيلى على مذهب داروين فى كتاب « الطاقة الإنسانية ».

الطبيعة وسر الحياة وما أطلق عليه ماركس اسم « المادية الجدلية ».

المادية التاريخية :

وليفسر التاريخ وكل وقائعه على هدى من هذه النظرية ، فالإنسان كأى كائن حى لا غرض له فى هذه الحياة إلا أن يحيا ، ولا سبيل لحياته إلا أن يأكل ولا سبيل للأكل إلا إذا بذل جهدا لإشباع حاجاته ، هذا الجهد هو « العمل » وتاريخ البشر منذ أقدم العصور هو تاريخ هذا العمل باعتباره وسيلة الإنتاج ، ومذ كان الإنسان إنساناً وجد قسم من الناس يعمل ليأكل ، وقسم يعيش على عمل الآخرين ، فالمجتمع دائماً فى حالة انقسام إلى طبقتين ، الطبقة العاملة والطبقة التى تعيش على كدح الطبقة العاملة ، وتتغير صورة المجتمع تبعاً لتغير وسائل الإنتاج ولكن هاتين الطبقتين تظلان دائماً فى الحياة ، فطبقة الأسياد والعبيد فى العصور القديمة ، قد أفسحت الطريق لطبقة الإقطاعيين والأتباع فى العصور الوسطى ، حتى إذا جاءت العصور الحديثة برزت الطبقة الرأسمالية وطبقة العمال ، ولا مناص بحكم المادية التاريخية أن يستمر الصراع بين هاتين الطبقتين حتى تفنى الرأسمالية ليبدأ المجتمع الاشتراكى فالشيوعى ، حيث يزول الصراع بين الطبقات فلا تكون إلا طبقة واحدة هى طبقة العمال ؟ ؟ ! !

ولما كان المجتمع يسير بقوانين حتمية فلا مناص من قيام ثورة العمال على الرأسماليين ومن الخير أن يعمل العمال على الإسراع بهذه الثورة من خلال طليعتهم الثورية الواعية ، ولا سبيل لإلهاب مشاعر الطبقة العاملة إلا من خلال توعيتهم بناموس الصراع الحتمى وإذكاء شعور العداوة والبغضاء والحقد ضد الطبقة المستغلة التى لا سبيل للخلاص منها إلا بالقوة والعنف[1] .

صراع وعنف :

وهكذا سيطرت قوانين الصراع وتنازع البقاء وحق القوى فى البقاء ، سواء فى دنيا العلوم ، أو دنيا الاقتصاد والاجتماع والسياسة على كل شىء فى أوربا فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . فأصبح كل مالى أو تاجر أو صانع يسعى لسحق الآخرين طبقاً لناموس الحياة ، وتحولت المنافسة الحرة المجردة من كل قانون أدبى ومن كل اعتبار هى طابع كل شىء ، العمال يتربصون بأصحاب الأعمال، وأصحاب الأعمال بالعمال حينا وببعضهم البعض حينا آخر ، والدول يتربص بعضها ببعض ، والجماعات والأفراد كل يتربص بالآخر ، وتحولت الحياة الاجتماعية والعلاقات الإنسانية إلى ما يشبه الحياة فى الغابة حيث يتساقط فى كل يوم وفى كل ساعة بل

(١) البيان الشيوعى .

وفى كل دقيقة الضعفاء من كل لون وطراز ، اقتصاديا أو اجتماعيا ، أو جسمانيا ليكونوا غذاء للأقوياء .

ولا شك فى أن ذلك قدحدث من قبل على مر التاريخ ، ولكنه كان عندما يحدث هو الاستثناء لا القاعدة ، والانحراف لا الطريق المستقيم ، فقد كان التراث الإنسانى كله من الأديان والحكمة والمعرفة وما جرى عليه العمل ، إنما يهدف نحو غاية واحدة وهى أن يحيا الناس متساندين متعاونين يأخذ قويهم بيد ضعيفهم ، وغنيهم بيد فقيرهم وعالمهم بيد جاهلهم على أساس وحدة المجتمع الإنسانى .

أما فى أوربا فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، فقد نحى هذا التراث جانباً ، وأصبح محلا للسخرية والازدراء وارتفعت أصوات كصوت نيتشة تقول بأعلى صوت « إن المسيحية بحضها على الرفق بالضعفاء لم تعد صالحة للبقاء » وإن الأرض إرث الشعب القوى . . وإنه من حق الرجل القوى أن يقتل مائة ألف أو أكثر من البشر ليحقق فى نفسه إنسان « السوبرمان » .

وراح كل شعب من الشعوب الأوربية يعتبر نفسه هو شعب الله المختار الذى يجب أن يدين له البشر بالطاعة ولا لوم عليه ولا تثريب إذا هو فتك ببقية الشعوب واسترقها . والرجل الأبيض قد خلق لسيادة الرجل الأحمر والأصفر والأسود معاً ، والجنس الآرى هو أرقى الأجناس وأحقها بالسيادة والبقاء . .

وهكذا سادت أوربا روح مجنونة ، تبدأ وتنتهى عند اعتبار المنافسة المجردة من كل الأخلاقيات والصراع وغلبة القوى على الضعيف ، هى نواميس الحياة التى يجب أن يصاغ كل شىء على أساسها ، وتوضع النظم الاجتماعية والقوانين على هديها .

وكان على هذه الآراء والأفكار أن تؤدى إلى نتائجها المروعة ، فكان أن قام الأوربيون يطحن بعضهم البعض طحناً ، وإذا كانت أوربا لم تنقطع عن الحرب فيما بين قبائلها وشعوبها طوال العصور السابقة ، فقد كانت هذه الحروب حروبا محدودة أقرب ما تكون إلى المبارزات بين الفرسان المتخصصين ، أما بعد التطور الآلى الحديث . . . وبعد الثورة الصناعية وعلى هدى هذه المذاهب المادية ، فقد تحولت الحرب إلى شىء مخيف ، شىء باهظ الثمن لم يطف للأوربيين وفلاسفة المادة من بينهم فى خيال .

الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨

بلغت انجلترا فى مطلع القرن العشرين أوج عظمتها بحيث يمكن وصفها بأنها أعظم امبراطورية شهدها التاريخ ، فهى لم تقف عند حدود البحر الأبيض المتوسط كالرومان ، أو عند حدود قارتى آسيا وأفريقيا كما هو شأن الدولة الإسلامية ، ولا هى وقفت عند أوربا كما كان شأن نابليون ، بل تعدت ذلك كله إلى محيطات

الـكوكب الأرضى ، ووضعت قدما فى كندا النصف الشمالى من أمريكا، وقدما ثانية فى الهند شبه القارة وفى كل ما يجاورها من بلدان ، وقدما ثالثة فى استراليا ، ورابعة فى أفريقيا ، بحيث بلغت مساحة الأرض التى يرفرف عليها العلم الإنجليزى قرابة ١٣ مليون ميل مربع ، أما عدد السكان الذين تحـكمهم انجلترا فيبلغ ٥٠٠ مليون نسمة[١].

وكانت فرنسا تتلو انجلترا بعدة درجات فى هذا السلطان العريض فتواصت الدولتان (١٩٠٤) على ألا تتعرض إحداهما للأخرى فى مستعمراتها ، فأعادتا بذلك تاريخ تقسيم العالم بين أسبانيا والبرتغال[٢].

نهضة ألمانيا :

وكرر التاريخ نفسه ، فقد تـكونت فى قلب أوربا دولة ألمانية ضخمة تحت زعامة بروسيا عام ١٨٧٠ ، ولم تلبث أن انطلقت تصارع انجلترا بسلاحها الذى ضمن لها الغلبة والفوز على العالمين ، وهو الإنتاج الصناعى الآلى فى البر ومحاولة السيطرة على البحار من خلال

(١) تقويم العالم ص٤٣٣ .The World Almanac 1947

(٢) كانت فرنسا تسيطر على ما يقرب من خمسة ملايين ميل مربع وعدد من السكان يبلغ ٧٠ مليونا بخلاف الفرنسيين أنفسهم ٤٠ مليونا .

أسطول بحرى . وطفرت ألمانيا فى ميدان الإنتاج والصناعة وبالتالى التجارة الدولية طفرات أزعجت انجلترا أشد الإزعاج ، إذ بدأت تنافسها فى أسواق العالم . وسكتت انجلترا وتربصت بالألمان ، حتى إذا شرعوا فى إكمال أسطولهم الذى كان خليقا بأن يقوض سيادة انجلترا على البحار ، بدأ التحرش والاحتكاك .

وانتهى الأمر باشتعال نيران الحرب العالمية الأولى فى أغسطس عام ١٩١٤ بين ألمانيا والنمسا والدولة العثمانية من ناحية ، وبين فرنسا وانجلترا وروسيا والصرب من ناحية أخرى ولم تلبث بقية دول أوروبا أن انضمت إلى الحرب واحدة بعد أخرى .

واستمرت الحرب الطاحنة أربع سنوات واشتركت فيها الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩١٧ إلى جوار انجلترا وفرنسا فكان اشتراكها إيذانا بنهاية الحرب لصالح الحلفاء ، ولم تلبث ألمانيا أن ألقت السلاح . (نوفمبر سنة ١٩١٨) وكان شكل الحروب قد تغير كما قدمنا ، فبعد أن كانت الحروب قاصرة على الجيوش المتحاربة ، وكان بحسب أى دولة أن تهزم جيش الدولة الثانية فى معركة واحدة لا تستغرق سوى بضع ساعات ، لكى يجرى بعدها التفاوض لعقد الصلح . أما هذه المرة فقد تحولت الحرب فى ظل التطور الآلى والقدرة الصناعية الجديدة إلى ويل وتخريب عام شامل لا يقع

عبؤه على الجنود فى الميدان فحسب ، بل وعلى العمال فى المصانع وعلى المدنيين الذين كانوا يشقون بآلام الحصار الذى فرضه كل من المتحاربين على الآخر .

ودارت الحرب لأول مرة فى أعماق البحار بعد أن اخترعت الغواصات ، كما اشتعلت فى الهواء بعد اختراع سلاح الطيران ، ولكن السلاح الفتاك الذى فعل الأفاعيل فى هذه الحرب هو المدفعية الثقيلة والغازات السامة .

الحرب فى أرقام :

وقد تصور لنا الأرقام مدى اتساع نطاق هذه الحرب وضحاياها وخسائرها فقد بلغ عدد القوات التى اشتركت فيها ٦٥ مليون نسمه أخرجوا لمدة أربع سنوات من دنيا الإنتاج ، وبلغ عدد الخسائر من هذا العدد ما بين قتيل وجريح ومفقود ٣٧ مليونا من بينهم ٢١ مليون جريح ومشوه وقرابة تسعة ملايين قتيل[١] .

وباستطاعتنا أن نتصور ما تعنيه هذه الأرقام ، إذا أدركنا أن جميع قتلى الحروب التى عرفتها الإنسانية منذ بدأ التاريخ الإنسانى، أى خلال ستة آلاف سنة بما فيها حروب نابليون لا تصل إلى هذا الرقم الذى مات فى حرب واحدة خلال أربع سنوات . ولم

(١) دائرة المعارف البريطانية .

تكد الحرب تضع أوزارها حتى عمت الفوضى شرق أوروبا ووسطها لتنتشر الأوبئة بحيث يهلك بالتيفوس وحده عدة ملايين لا يعرف عددها من البشر . . . وهكذا لم يسلم بيت واحد فى طول القارة وعرضها من الأذى .

شروط ولسون الأربعة عشر :

والعجيب أن هذه الحرب الضروس التى خضبت أرض أوروبا بالدماء فى وحشية فاقت كل ما سبق هذه الحرب من حروب ، لم تعد على الأوربيين بأى فائدة ولم يتعلموا منها درسا يفيدهم فى حياتهم ، فقد خرجوا منها وهم أشد ضراوة على العداء والخصومة والحقد والرغبة فى الاستعلاء والسيطرة التى انتهت بهم إلى هذه الكارثة كأشد ما كانوا فى يوم من الأيام .

ولقد ظن عندما اشتركت الولايات المتحدة فى هذه الحرب وأعلن رئيسها وذور ولسون شروطه الأربعة عشر فى ضرورة احترام حرية البشر ، وحق كل أمة فى تقرير مصيرها ، وحرية الملاحة فى البحار لكل الدول على السواء ، والتسامح مع المغلوب ، وتحريم المعاهدات السرية ، وإزالة الحواجز والفروق فى التجارة الدولية ، وإنشاء عصبة للأمم لتكون سبيلا لفض المنازعات بين الدول من خلال العدل لحفظ السلام .

كان يظن أن أوربا بل البشرية كلها سوف تستقبل جهداً من الاستقرار والسلام فى ظل العدل ، ولكن الأمور لم تلبث أن انتكست كأسوأ ما يكون الانتكاس .

احتلال ممتلكات الأعداء :

وكان أول ما قام به الحلفاء المنتصرون فى فرسايل ، أن فرضوا على الألمان تعويضات جسيمة مذهلة من شأنها أن تعجز الشعب الألمانى إلى الأبد ، وقررت فرنسا وانجلترا أن تحتلا البلاد والأراضى التى كان يسيطر عليها الأعداء تحت اسم جديد زائف أطلق عليه اسم الانتداب ، فإذا بسوريا ولبنان والعراق وفلسطين تقسم بين الدولتين ، ثم لم يكفهما ذلك فأشركا اليهود فى احتلال فلسطين عن طريق وعد بلفور ، واضعين بذلك الأساس لإنشاء دولة إسرائيل ، واحتلت الدولتان كذلك مستعمرات الألمان فى أفريقيا بينما استولت اليابان على مستعمراتها ومراكزها فى الشرق الأقصى .

ولم تلبث عصبة الأمم التى أنشئت « لصون السيادة والحرية للدول الكبيرة والصغيرة على السواء » ، أن تحولت إلى أداة استعمارية بغيضة مهمتها الأولى ، حماية هاتين الامبراطوريتين اللتين اقتسمتا الدنيا ، ونعنى بهما انجلترا وفرنسا بعد أن ساعد على ذلك انسحاب الولايات المتحدة من الاشتراك فى هذه العصبة .

انهيار عصبة الأمم والسلام الدولى :

وإذ تحولت عصبة الأمم إلى بناء أقيم على الرمال ، وإذ ظلت فكرة القوة وقيام الحضارة الإنسانية على أساس القوة المادية الغاشمة فلا عجب أن تداعى بناؤها ، وانسحبت منها بعض الدول واحدة بعد أخرى لتمارس حقها فى الاعتداء والهجوم على جيرانها كما فعلت اليابان التى اعتنقت شريعة الحضارة الأوربية بما فى ذلك الغزو والاستعمار ، فهاجمت جارتها العظيمة الصين واحتلت منشوريا، وأعقب اليابان إيطاليا التى قام على رأسها موسولينى يبشر بسياسة القوة والغلبة وإعادة المجد الرومانى ، فأطلق على البحر الأبيض اسم « بحرنا » إشارة إلى أن هذا البحر كان ملكا للرومان ، وإذ كانت أفريقيا كلها مستعمرة للدول الأوربية وليس فيها سوى دولة واحدة مستقلة وهى الحبشة فقد أقدم على احتلالها ، (١٩٣٥) .

هتلر فى ألمانيا :

وقام فى ألمانيا المغلوبة رجل آخر على غرار موسولينى وهو هتلر، يدعو إلى تمزيق معاهدة الصلح وإلى إعادة تسليح ألمانيا والأخذ بالثأر من الحلفاء ، وأعاد إلى الألمان كل الصيحات الكريهة فى التفاخر والتعالى بالجنس الآرى والدم الجرمانى ، وأن الألمان قد خلقوا ليحكموا العالمين .

وعلى ذلك فلم تمض عشرون سنة فقط على هذه الحرب اللعينة حتى اندلعت فى سنة ١٩٣٩ نيران الحرب من جديد فى أوربا بين خصوم الأمس ، ألمانيا من ناحية وفرنسا وانجلترا من الناحية الثانية.

الحرب العالمية الثانية :

رأينا كيف أن القرن التاسع عشر ، قد سلح الإنسان بقوتى البخار والكهرباء وما ترتب على ذلك من تطور آلى بعيد المدى .

ومذ وضع الإنسان يده على هاتين القوتين أصبحت قدرته تتزايد بمتوالية هندسية تتضخم فى سرعة مذهلة ... ففى خلال هذه العشرين عاما التى تخللت الحربين كانت أسلحة القتال قد تطورت بصورة تجعل الحرب العالمية الأولى بالنسبة إلى هذه الحرب الجديدة مجرد تجربة أو مناوشة .

فسلاح الطيران قد تحول إلى سلاح رهيب فتاك وأصبح من المستطاع أن تطير ألف طائرة فوق أرض العدو ومدنه لتدفنها بألفين أو ثلاثة آلاف من أطنان الديناميت فى بضع ساعات ، أما فى البحار فقد تطور سلاح الغواصات فأصبح أشد فتكا وأثرا فى إغراق مئات الألوف وملايينها من الأطنان . أما سلاح الفرسان فلم يعد خيولا يركبها فرسان ، وإنما دبابات جبارة تطحن وتسحق فى طريقها كل شىء .

وكان اللاسلكى والراديو والطيران قد حول العالم كله إلى منطقة واحدة، تتجاوب أرجاؤها بكل مايقع فى جزء منها، ولذلك فسرعان ما تحولت الحرب الأوربية إلى حرب عالمية حقا، بمعنى أن دارت المعارك فى كل ركن من أركان العالم، وفى كل شبر من مياهه وأراضيه.

ولم يكد يمضى العام الأول حتى كانت أوربا كلها مشتركة فيها ومصطلية بنارها، فقد انضمت إيطاليا إلى ألمانيا، واحتلت جيوش ألمانيا دول أوربا الشرقية والغربية، ولم تلبث أن اجتاحت أرض الاتحاد السوفيتى نفسه.

وتصورت اليابان أن فرصتها قد حانت لتثأر من عدوتها القديمة الولايات المتحدة، ولكى تنفرد بغزو الصين وآسيا كلها، فضربت ضربتها فى بيرل هاربور (٧ديسمبر١٩٤٢) محطمة الأسطول الأمريكى فى طرفة عين، ومدخلة بذلك الولايات المتحدة إلى أتون الحرب، وناجحة بعد ذلك فى احتلال شرق آسيا وجنوبها الشرقى كله.

وإذا كانت الحرب العالمية الأولى بكل شرورها وويلاتها جاء عليها وقت كانت تتوقف فيه فى الشتاء، أو فى الليل، وإذا كان استمرارها مع ذلك أربع سنوات قد اعتبر رقما قياسيا. فإن الحرب العالمية الثانية قد استمرت أكثر من ست سنوات فى البر والبحر والجو لم تهدأ ليلا أو نهارا، صيفا أو شتاء فى أى ركن من أركان العالم بما فى ذلك مياه القطبين.

وإذا كانت الجيوش التى ساهمت فى الحرب العالمية الأولى قد ناهزت ٦٥ مليونا فإن جيوش الدول التى اشتركت فى الحرب العالمية الثانية وعددها ٥٧ دولة قد جاوزت أضعاف أضعاف هذا الرقم .

ولقد طحنت عشرات من الملايين طحنا ، تحت عجلات آلة الحرب الجديدة الجهنمية بالقتل والتغريق والتحريق والنسف والتدمير ، بالمدافع والطائرات والغواصات والألغام والصواريخ ، ولم يعد للقتال ميدان أو خط أو منطقة محدودة ، وإنما العالم كله ميدانه والشعوب البائسة ضحاياه ، وحسبنا أن نتصور أن قنبلة هيروشيما[1] الذرية قد أبادت مدينة من الوجود فى لحة ، وبلغ عدد ضحاياها من القتلى ١٤٥ ألفاً ، بينما عدد ضحاياها الأكثر الذين تأثروا بالخطر الإشعاعى ما يزالون يتساقطون حتى اليوم وبعد مرور عشرين عاما على إلقاء هذه القنبلة .

وقد قدر عدد من ماتوا من الجنود الرسميين فى الجيوش بـ ١٥ مليونا ، وليس هذا الرقم إلا كسرا صغيرا من عدد الملايين الذين جرحوا أو شوهوا أو فقدوا ، وهو كسر أصغر بالنسبة إلى من قتلوا من المدنيين نساء وأطفالا والذين لم يحصهم العد حتى الآن ، وحسبنا أن نشير على سبيل المثال ، أن قتلى الجيش البولندى لا يتجاوزون

---

(١) ألقيت على اليابان فى أغسطس سنة ١٩٤٥ وكانت هى السبب المباشر لتسليم اليابان .

نصف مليون ، بينما عدد القتلى من المدنيين يربو على ستة ملايين . ومن مات من مدنيي الروس يربون على عشرين مليونا .

نفقات الحرب العالمية الثانية :

ولعله لايوجد مايكشف عن مدى الجهد البشرى الضائع فى هذه الحرب ، أكثر من ذكر المبلغ الذى أنفقته الولايات المتحدة وحدها على هذه الحرب، وهو رقم أعترف أنا بنفسى أنى لاأستطيع أن أقرأه ولذلك فأكتفى بأن أنقله وهو ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٣٥٠ دولار (١) وأرجو ألا أكون مخطئا إذا قلت إن هذا الرقم يساوى ثلثمائة وخمسين ألف مليون دولار . وباستطاعتنا أن نتصور مقدار ما أنفقته بقية دول العالم بما فيها ألمانيا وروسيا وانجلترا واليابان وإيطاليا ... إلخ لا شك أن ذلك يصل بنا إلى رقم يزيد كثيرا على أضعاف هذا القدر ، وقد بقى أن تعرف أن ذلك الجهد البشرى الذى أنفق بهذه الصورة ، قد بذل من أجل قتل الإنسان لأخيه الإنسان ، وتدمير مظاهر الحضارة والعمران على سطح الأرض .

الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى :

ولقد تمخضت دنيا الصراع والتطور المادى والتكنيكى سواء فى الإنتاج أو التخريب خلال هاتين الحربين ، عن قوتين جديدتين

(١) دائرة المعارف البريطانية .

وصلتا فى الإنتاج والتفوق المادى والآلى ، والقدرة على التخريب والتدمير ، ما جعل انجلترا وفرنسا تتحولان إلى قزمين ، بل إن دول أوربا كلها مجتمعة ، أصبحت دون كل من القوتين كل على حدة .

ولاشك فى أن القارىء قد عرف أن إحدى هاتين القوتين هى الولايات المتحدة الأمريكية ، وأن القوة الثانية هى قوة الاتحاد السوفييتى . وليس الاتحاد السوفييتى سوى دولة روسيا القيصرية بعد أن تحولت تحت زعامة لينين إلى دولة اشتراكية ، فاستطاعت أن تصد العدوان الألمانى النازى على أراضيها عام ١٩٤١ وأن تخرج من الحرب منتصرة أروع انتصار ، لتتطور بعد ذلك ، إلى قوة عسكرية وإنتاجية رهيبة ، وصلت إلى حد منافسة الولايات المتحدة حول الوصول إلى القمر .

وهكذا خرجت الدول التى أشعلت نيران الحربين العالميتين الأولى والثانية متدهورة متضعضعة ، سواء المنهزمة أو المنتصرة على السواء ، بينما علا على السطح ، وأمسك بزمام القيادة الدولتان اللتان هوجمتا ولم يكونا هما البادئتين بالعدوان .

الفصل الحادى عشر

النصف الثانى من القرن العشرين

تحرر آسيا وأفريقيا – هيئة الأمم – حقوق الانسان

* *

رب ضارة نافعة :

على أنه إذا كانت الحربان العالميتان الأولى والثانية قد عادتا على شعوب أوربا بالخراب والويلات ، وكبدتهما ما كبدت من آلام وخسائر فى الأرواح والأموال ، فقد كانتا من ناحية أخرى هما السبيل لنهضة شعوب آسيا وأفريقيا ، وظفر هذه الشعوب بحريتها واستقلالها وانعتاقها من لعنة الاستعمار ، تمهيدا لانطلاقها فى دنيا النمو والتطور والإنتاج والإبداع .

ولكى نستعرض تحرر شعوب آسيا وأفريقيا فى النصف الثانى من القرن العشرين ، يجب أن نعود إلى الوراء بعض الشىء لنتحدث عن :

اليابان والصين :

كانت اليابان هى البادئة والسباقة فى نهضة آسيا وأفريقيا

معاً باستثناء مصر[1] ، فكانت أول دولة أسيوية حذقت التكنيك الأوربى الحديث ، فوقفت على قدم المساواة مع أعظم دول أوربا فى مطلع القرن العشرين ، ولم تلبث أن بالغت فى نهضتها وتقليدها للأوربيين ، فتحولت إلى قوة استعمارية كانجلترا أو فرنسا فبغت على جارتها العظيمة التى كانت دائماً أما لحضارتها ونعنى بها الصين ، فغزتها كما ذكرنا من قبل عام ١٩٣١ ، وبذلك عوقت نهضتها التى كانت قد بدأت على يد الزعيم صان يات صن الذى نجح فى إنهاء حكم الأباطرة الفاسد وأعلن الجمهورية الصينية فى أول يناير عام ١٩١٢. حتى كان ما كان من أمر الحرب العالمية الثانية واصطدام اليابان بالولايات المتحدة ، وانتهاء ذلك إلى هزيمة اليابان مع ألمانيا وإيطاليا ، فخرجت الصين من هذه الحرب قوة عالمية كبرى ، احتلت أحد المقاعد الخمسة الدائمة فى مجلس الأمن والمخصصة للدول العظمى وهى الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى وإنجلترا وفرنسا والصين .

---

(١) تعتبر نهضة مصر فى أعقاب الغزو الفرنسى فى مستهل القرن التاسع عشر ونجاح الشعب المصرى فى رد الغزو الإنجليزى عام ١٨٠٧ ، هى أول انتفاضة للشعوب الشرقية من سباتها وتفتح أذهانها إلى أن ميزان القوى قد اختل وأصبحت أوربا تمتلك أسلحة جديدة وعلما جديداً . وكانت جهود محمد على فى تصنيع مصر على النظام الأوربى الحديث ، وإعادة تنظيم الجيش على الأساليب العصرية ، وإنشاء مصانع الأسلحة والذخيرة ، وبناء الأساطيل فى مصر هى أسبق حركات النهوض فى العالم الشرقى كله .

حتى إذا كان عام ١٩٤٩ استطاع ماوتسى تونج زعيم الحزب الشيوعى أن يستولى على الحكم فى الصين ، وأن يبوئها بالفعل مكانها اللائق بين شعوب العالم ، حيث يقف نداً عنيداً للولايات المتحدة فى آسيا فى دنيا الحرب والسياسة ، وفى نفس الوقت يرفض أن يجعل من بلاده تابعاً أو ذيلا للاتحاد السوفييتى ويعتبر الصين المؤلفة من ٧٠٠ مليون نسمة هى صاحبة الحق سواء بماضيها أو حاضرها فى قيادة الجبهة الشيوعية كلها بل وقيادة العالم .

الهند :

وتلت نهضة اليابان والصين نهضة الهند العظيمة تحت زعامة قديسها غاندى ، الذى ابتعث روح اخناتون وبوذا والمسيح ، وتولستوى فى الدعوة إلى المحبة والسلام وكراهية العنف ، واتخذ من هذه الدعوة سلاحاً لتحرير الهند من ربقة الاستعمار الإنجليزى ، فكانت هذه الحركة مثار السخرية فى أرجاء العالمين ، أن يقاوم الحديد والنار ، بالدعوة إلى الحب والتسامح والعصيان المدنى ، ولكن قوة المبادىء الروحية والإيمان العميق بها سرعان ما أثبتت أنها لا تزال صاحبة الكلمة العليا ، فقد انتصرت دعوة عدم العنف ، وجاءت الساعة التى أعلن فيها استقلال الهند عام (١٩٤٧) . وهكذا تحرر

أربعمائة مليون من البشر دون أن يشهروا سلاحا أو يشنوا حرباً من الحقد والكراهية والبغض(١) .

بقية الدول الآسيوية :

وفى أعقاب استقلال الهند جاء استقلال سيلان وبورما وأندونيسيا والهندالصينية والملايو والفلبين وقبل ذلك لبنان وسوريا وبذلك تحررت آسيا كلها ولم يعد فيها شعب واحد مستعمر بدولة أوربية(٢) .

استقلال أفريقيا :

ثم جاء دور أفريقيا ، ولقد كانت مصر حاملة لواء النهضة منذ مطلع القرن التاسع عشر ، ولكن الاحتلال البريطانى عوق هذه النهضة ، فلم تكد الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها وتنادى بحق تقرير المصير ، حتى هب الشعب المصرى عام ١٩١٩ هبة رجل واحد مطالبا بحقه فى الحرية والاستقلال فى ثورة عارمة أذهلت العالم بقوة مراس الشعب المصرى ، وسرت الروح من مصر إلى كل الحركات

---

(١) اقرأ للمؤلف فى تحرير الهند كتاب « أمة تبعث »

(٢) ما تزال إنجلترا تستعمر جزيرة هونج كونج ، ولكن ذلك يتم برضاء الصين التى ترى فى وجود إنجلترا فى هذه الجزيرة الصغيرة على أبوابها مصلحة محققة لها .

الثورية فى العالم ، ابتداء من الهند حتى ايرلندا وتركيا والمراكشيين فى المغرب ، وسوريا والعراق فى المشرق .

وفى يوليو عام ١٩٥٢ قامت ثورة الجيش المصرى فأطاحت بالملكية والرجعية وكل عناصر التخلف ، ونجحت فى إجلاء آخر جندى بريطانى عن أرض الوطن ، فى شهر يونيو عام ١٩٥٦ . ولكن الإنجليز استغلوا فرصة تأميم مصر لقناة السويس فى العام نفسه ، وحاولوا أن يعودوا لاحتلال مصر أشد قوة وبطشاً بمعاونة حلفائهم الفرنسيين وصنائعهم من الإسرائيليين ، وذلك فى محاولة يائسة لإيقاف موجة التحرر التى سرت إلى شعوب أفريقيا ، فوقف الشعب المصرى مرة أخرى فى وجه هذا التحدى ، وانتصرت من جديد قوة الإيمان والاعتزاز بكرامة الإنسان والحق والعدل ، على قوى البغى والحديد والنار . وظهرت على الأفق الدولى لأول مرة وحدة الشعور العالمى فى استنكار البغى والعدوان ، فأصدرت هيئة الأمم بإجماع الآراء قراراً بسحب العدوان الإنجليزى الفرنسى الإسرائيلى ، ووجوب انسحاب القوات المعتدية .

وفى ٢٣ ديسمبر عام ١٩٥٦ انسحبت قوات العدوان ، معلنة بذلك أن البشرية تستقبل عهداً جديداً ، لم تعد فيه القوة السافرة صالحة لحل المشكلات العالمية ، أو تحقيق الأطماع الذاتية .

وباستطاعتنا أن نعتبر هذا اليوم يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦ هو بمثابة شهادة الوفاة للإمبراطوريتين الإنجليزية والفرنسية ، إذ أنهما منذ ذلك التاريخ وقد شرعا فى الفصل الأخير من تصفية ممتلكاتهما والدول الباقية تحت حكمهما ، وخاصة بعد أن حاولت فرنسا كمحاولة أخيرة يائسة للقضاء على ثورة الجزائر ، جاهدت فلم تفلح بعد أربع سنوات من حرب دامية ، فاضطرت أن تعترف باستقلال الجزائر .

واليوم ترفرف أعلام ٣٤ دولة أفريقية مستقلة فى ساحة هيئة الأمم فى نيويورك ، كمظهر لبعث القارة المظلمة أو القارة السوداء ، وكمظهر على التطور الحضارى الذى وصل اليه الإنسان .

هيئة الأمم :

وهيئة الأمم هى المنظمة الدولية التى وضعت الإنسانية فيها آمالها ، بعد ما عانته من ويلات فى الحربين العالميتين الماضيتين ، لتكون أداة لحفظ الأمن والسلام بين دول العالم من خلال إقامة سلطان القانون واحترام حقوق الدول كبيرها وصغيرها على السواء .

وعلى ذلك فقد اجتمع ممثلو خمسين[1] دولة هم الدول المنتصرة فى الحرب فى ٢٤ اكتوبر عام ١٩٤٥ بمدينة سان فرانسسكو وأبرموا ميثاق هيئة الأمم والذى جاء فى ديباجته :

(١) بلغ عدد أعضاء هيئة الأمم حتى الآن ١١٥ دولة .

نحن شعوب الأرض وقد آلينا على أنفسنا :

— أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب ، التى جلبت على الإنسانية خلال جيل واحد أحزانا يعجز عنها الوصف .

— وأن نؤكد من جديد إيماننا بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد ، وبما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق متساوية .

— وأن نبين الأحوال التى يمكن فى ظلها تحقيق العدالة واحترام الالتزامات الناشئة عن المعاهدات وغيرها من مصادر القانون الدولى .

— وأن ندفع بالرقى الاجتماعى قدما ، وأن نرفع مستوى الحياة فى جو من الحرية أفسح .

وفى سبيل هذه الغايات اعتزمنا :

— أن نأخذ أنفسنا بالتسامح ، وأن نعيش فى سلام وحسن جوار

— وأن نضم قوانا كى نحتفظ بالسلم والأمن الدوليين

— وأن نتكفل بقبولنا مبادىء معينة ورسم الخطط اللازمة لها ألا تستخدم القوة المسلحة فى غير المصلحة المشتركة .

— وأن نستخدم الأداة الدولية فى ترقية الشئون الاقتصادية والاجتماعية للشعوب جميعها .

حقوق الإنسان :

ولما كانت هيئة الأمم تمثل رغبة البشر الصادقة فى وضع حد للحروب ، فقد نفذت إلى صميم الداء الذى سبب فى الماضى كل هذه الويلات ، ولا داء إلا إهدار الإنسان لحقوق الإنسان ، واغتصاب نفر من البشر السلطة واصطناع القوة ، لاستعباد فريق آخر من البشر واستغلاله .

ولقد عملت الأديان وعمل المفكرون والمصلحون على مر التاريخ كما رأينا، لعلاج هذا الداء ، فكانت هذه القاعدة الذهبية التى صادفتنا فى مختلف الأديان والعقائد الحضارية وهى أن يحب الإنسان لأخيه الإنسان مايحب لنفسه ، وأن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به .

وإذ كانت هذه القاعدة ، هى أعظم محدد ومنظم لحقوق الإنسان، فقد اتخذتها هيئة الأمم سبيلا ونبراساً لتأكيد هذه الحقوق وتدعيمها ، وكان أن اجتمعت دول العالم الأعضاء فى هيئة الأمم فى باريس فى شهر ديسمبر من عام ١٩٤٨ ووقعوا من جديد على ما أسمى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، وقد ورد فى ديباجة هذا الإعلان ما يلى :

« بما أن الاعتراف بكرامة بنى الإنسان المتأصلة ، وبحقوقهم

المتكافئة النامية ، هو أساس الحرية والعدالة والسلام فى العالم ، وبما أنه قد نجم عن إغفال حقوق الإنسان وازدرائها أعمال وحشية أثارت سخط الضمير الإنسانى ، وأعلن الناس أن أسمى ما تصبو إليه نفوسهم هو إيجاد عالم يتمتعون فيه بحرية القول والعقيدة ، ويتحررون فيه من الخوف والعوز ، وبما أن حقوق الإنسان بحكم القانون أمر ضرورى حتى لا يدفعه اليأس إلى الثورة على الظلم والطغيان .

وبما أن توثيق العلاقات الودية بين الشعوب قد أصبح أمراً بالغ الأهمية .

وبما أن شعوب الأمم المتحدة ، وقد أكدت من جديد فى ميثاقها إيمانها بحقوق الإنسان الأساسية وبكرامة الفرد وقيمته وبحقوق الرجال والنساء المتساوية ، واعتزمت العمل على زيادة التقدم الاجتماعى ورفع مستوى المعيشة فى ظل حرية شاملة .

وبما أن الدول الأعضاء قد أخذت على نفسها عهداً أن تكفل بالتعاون مع هيئة الأمم المتحدة احترام حقوق الإنسان وحرياته الأساسية احتراما عاليا وواقعيا .

وبما أنه من الأمور البالغة الأهمية أن يفهم الناس جميعاً هذه الحقوق والحريات كى يتيسر الوفاء بهذا العهد وفاء كاملا .

لذلك تعلن الجمعية العامة هذا الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ليكون مثلا أعلى للجميع تسعى شعوب الأرض وأممها نحو بلوغه، وعلى هدى هذا الإعلان وبوحى منه ينبغى على كل فرد، وكل عضو فى المجتمع، أن يعمل بوسائل التربية والتعليم، على زيادة احترام هذه الحقوق والحريات، وأن يستعين بالتدابيرالتقدمية — القومية والدولية — ليكفل الاعتراف بهذه الحقوق والحريات والمحافظة عليها محافظة فعالة سواء بين شعوب الدول الأعضاء نفسها، أو بين شعوب البلاد الواقعة تحت حكمها.

مادة ١ — يولد الناس جميعاً أحرارا متساوين فى الكرامة والحقوق، وكلهم قد وهب الرشد والضمير، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضا بروح الإخاء ...... إلخ.

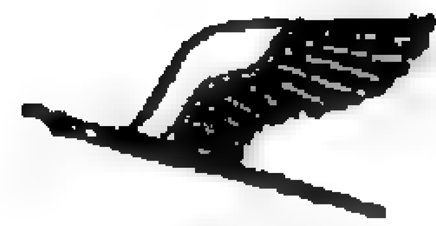
وتمضى بعد ذلك بقية موادهذا الإعلان الدولى لحقوق الإنسان والذى يشتمل على كل ماتشتمل عليه دساتير الدول كلها الديموقراطية والاشتراكية على السواء تحت باب حقوق الإنسان[1].

صفحة جديدة فى حياة الإنسان :

ويعتبر هذا الإعلان الدولى لحقوق الإنسان، صفحة جديدة مشرقة فى تاريخ الإنسانية، فلأول مرة فى تاريخ البشرية تصبح

(١) الأستاذ محمد شاهين حمزة — حقوق الإنسان بين الشرق والغرب.

المناداة بهذه الحقوق ، ليست جزءا خاصاً بتعاليم دين من الأديان مهما يبلغ انتشاره فهو دين جماعة من الناس،ولا هى جزء من شعارات بعض الثورات الإقليمية أو المذهبية ، كالثورة الفرنسية ، والثورة السوفييتية وإنما إعلان حقوق الإنسان هو ثمرة إجماع بنى البشر ، على اختلاف مللهم وأجناسهم وألوانهم وأديانهم وعقائدهم ومذاهبهم .



خاتمة

العالم قريتنا

الثورة العلمية ـ الراديو والتلغراف ـ الطائرات النفاثة وسفن الفضاء ـ الوصول الى القمر ـ فناء ام بقاء ـ أى الطريقين

**

العالم قريتنا :

والآن وقد أوفينا على ختام رحلتنا ، التى بدأناها ، مذ كان الإنسان مجرد ذكر وأنثى إلى أن تفرع وامتد وتكاثر وتحول إلى شعوب وقبائل وأمم ودول وامبراطوريات ، وراح يصارع بعضه بعضا ، ويعلو بعضه على بعض حينا ويسفله حينا آخر ، حتى تفرقت لغات بنى البشر وأديانهم وأنظمتهم وأقدارهم ، وألوان جلودهم .

أى عالم هو عالم اليوم ، وأى دنيا هى تلك التى أصبحت دنيانا نحن الأحياء ، وأى شوط قطعناه فى الحضارة الإنسانية ، وما الذى بقى علينا لنقطعه ؟

إن الجواب عن هذا السؤال يتلخص فى هذه العبارة التى اتخذنا منها عنوانا لهذه الخاتمة « العالم قريتنا » . . أجل لم يعد العالم الفسيح يمكن أن يوصف بالنسبة إلى الإنسان أى إنسان إلا أنه قريته ، التى يعيش فيها ويجوب أرجاءها ، ويعرف ساكنيها ، ويتعامل مع كل واحد فيهم .

إنها قرية يتألف سكانها من ١١٥ أسرة قد تزيد إلى مائة وثلاثين أو إلى مائة وخمسين عندما تنضم باقى الدول التى لم تنضم بعد إلى هيئة الأمم . وأصبحت هذه الوحدات الكبيرة تتعامل مع بعضها كما اعتاد الأفراد أن يتعاملوا فيما بينهم .

الراديو والتليفزيون :

وأصبح بقدرة أى إنسان فرد فى أى مجموعة من هذه المجموعات الإنسانية ، أن يعرف ما يجرى ويدور فى أرجاء العالمين ، فما هى إلا حركة واحدة لمفتاح الراديو لكى يسمع ما يجرى فى لندن وباريس وموسكو وبكين وطوكيو ونيويورك باللغة التى يحبها ويختارها ، بل باستطاعته أن يمد سمعه إلى ما وراء ذلك كله ، إلى الطائرات والصواريخ وسفن الفضاء المنطلقة نحو الكواكب والنجوم ، أو الغواصات التى تخترق أحشاء البحار المظلمة . بل لم يعد سمع الإنسان فقط هو القادر على سماع كل همسة فى الكون ،

بل إن بصره قد امتد إلى حيث امتد سمعه وإن هى إلا سنوات قليلة حتى يصبح التليفزيون كالراديو فى نقل الحوادث ساعة وقوعها فى أى جزء من أجزاء العالم فوق قمة الجبل أو فى أحشاء البحر أو فى الفضاء . ولم تعد هذه القدرة وقفا على إنسان دون إنسان ، بل هى فى متناول الجميع وهم جلوس فى عقر دورهم .

الطائرات النفاثة وسفن الفضاء :

ولا تقف قدرة الإنسان على السماع والرؤية ، بل هى تشمل القدرة على الانتقال السريع ، بأسرع ما تصور الإنسان . . . لقد أصبح بقدرته أن يسابق الشمس فى دورانها الظاهرى حول الأرض ، أو بالأحرى يسابق الأرض فى دورانها حول نفسها أمام الشمس فلا يرى إلا النهار أبدا ما شاء أن يبقى فى النهار ، أو فى الليل أبدا ما شاء أن يبقى فى الليل .

وسفن الفضاء أصبحت تطوى النهار والليل المؤلف من ٢٤ ساعة فى ٩٠ دقيقة ، ورائد الفضاء الذى يطوف حول الأرض ١٧ مرة فى يوم واحد يشهد سبعة عشر شروقا وسبعة عشر غروبا . . . وليس ذلك كله إلا نقطة البداية .

الوصول إلى القمر :

والمحاولات مستمرة للوصول إلى القمر ، وقد حدد الجدول الزمنى لكل خطوة فى هذا الطريق . . . ولن يأتى عام ١٩٧٠ حتى

يكون أول إنسان أو مجموعة من الناس قد هبطوا على ظهر القمر ، وسوف تتعلق قلوب بنى البشر أجمعين بهذا النفر من الرواد الأوائل فى غزو الفضاء ، لن ينظر إليهم البشر باعتبارهم أمريكانا أو روسا ، بل أناسا من بنى الإنسان ، ولن ينظر هؤلاء الرواد إلى أنفسهم إلا أنهم بشر ينتمون إلى الجنس البشرى ، لن يكون لهم أمل وهم ينظرون إلى هذه الكرة الأرضية المضيئة فى السماء إلا أنها وطنهم . . . وطنهم . . . قريتهم التى يحنون إلى الوصول إليها . . . إلى أى جزء فيها .

وعندما ينطلق رواد القمر إلى بقية الكواكب الأخرى ، فسيكونون فى نظر سكان هذه الكواكب ، أناسا من البشر لا روسا ولا أمريكانا أو انجليزا أو عربا .

الثورة العلمية :

ولعل هذه الطفرة الكبيرة فى حياة البشر هى الدليل على أننا نعيش فى ظل ثورة جديدة هى الثورة العلمية التى يجب ألا نتصور أنها امتداد للثورة الصناعية ، أو نخطىء فنتصور أن أفكاراً صيغت فى القرن التاسع عشر كنتيجة للثورة الصناعية ورد فعل لها ، تصلح لمواجهة هذا العالم الجديد الذى انتقلت فيه السرعة التى ينتقل فيها الإنسان من عشرات الكيلومترات فى الساعة إلى ألوف الكيلومترات

إن الطفرة هنا أضعاف أضعاف الطفرة ما بين الحصان وقطار السكة الحديد أو بين المراكب الشراعية والبخارية ، وامتدت أبعاد للمسافات التى يصل إليها الإنسان من ألوف الكيلومترات ، إلى الملايين وملايين الملايين .. وإذا كان مجرد اكتشاف أمريكا قد جعلنا نصفها بأنها العالم الجديد ... فكيف باكتشاف القمر والمريخ والزهرة وبقية الكواكب الأخرى ...

كيف والإنسان ينعتق من جاذبية الأرض التى ربطته إليها منذ أقدم العصور لينطلق فى الفراغ الفسيح اللانهائى ، غير مقيد بقوانين الجاذبية التى تكيف كل شىء على الأرض . إنها دنيا جديدة ، وعالم جديد له مشكلاته التى لم تخطر على الأذهان .

نقطة البدء :

وباستطاعتنا أن نؤرخ ميلاد هذه الثورة العلمية فى اللحظة التى توصل فيها الإنسان إلى الطاقة النووية عن طريق تفجير نواة الذرة ثم استخدامه هذه الطاقة لأول مرة فى مسح مدينة هيروشيما بسكانها من الوجود .

لقد كانت الطبيعة مؤلفة عند العلماء المحدثين من مادة جامدة باردة ثابتة مؤلفة من ذرات مختلفة تؤلف كل ذرة عنصرا مستقلا يختلف عن بقية العناصر ، وذلك فى مواجهة الطاقة التى تفعل

فى المادة ، فكان الكون المادى يتألف عند علماء القرن التاسع عشر وصدر القرن العشرين من مادة وطاقة ، أما بعد شطر نواة الذرة ، فقد تبين أن الذرات كلها مكونة من عناصر واحدة وهى الإلكترونات والبروتونات وهى ليست كلها إلا ذبذبات كهربية . وهكذا انحل الكون كله إلى ذبذبات كهربية ، إما أن تكون فى حالة تركز شديد فتؤلف مختلف العناصر المادية التى تبدو لنا جامدة ، أو فى حالة انتشار وانطلاق فتأخذ شكل الطاقة المشعة الفاعلة .

وهكذا انتهى العلم إلى ما توصل إليه الإنسان بوجدانه مذ كان إنسانا وهو وحدة الوجود . فمن الذبذبات الكهربية إلى الأمواج الكهرومغناطيسية ، ومن هذه الأمواج إلى الإشعاع ومن الإشعاع إلى الضوء ، والقول اليوم على أن الضوء هو نقطة البداية ، وحل الفوتون أى وحدة الضوء محل الذرة ، وهكذا عدنا إلى ما أدركه الإنسان بالوحى والإلهام من أنه « فى البدء كان النور[1] » و« الله نور السموات والأرض »[2] .

---

(١) العهد القديم

(٢) القرآن الكريم « سورة النور »

طاقة لا نهائية للتدمير :

هذا التطور العلمى الجديد قد سلح الإنسان بطاقة لا نهائية لم يحدث أن طافت له فى خيال إلا منسوبة إلى الجن أو الملائكة أو الآلهة .

فقد أصبح بقدرة إنسان فرد أن يضغط على بضمة أزرار فتنطلق الشياطين الذرية من عقالها لتحدث فى ثوان أضعاف أضعاف ما سببته الحربان العالميتان فى عشر سنوات ، بل باستطاعتها أن تفنى كل ما على ظهر الأرض من حضارة ومدنية .

وطاقة لا حد لها للإنشاء والتعمير :

ومن الناحية الأخرى أصبح بقدرة الإنسان أن يحول مياه المحيطات الملحة إلى مياه عذبة ، مما يقدره على زراعة الصحارى والجبال، بل أن يزرع البحار نفسها وباستطاعته أن يتخذ من الطاقة الشمسية قوة محركة لكل شىء ... وإذا لم يكفه الكوكب الأرضى فقد انفتحت أمامه كواكب السماء ، فلا خوف ولا جزع مما يوصف بأنه « انفجار سكانى »[1] حيث لا تكفى المواد الغذائية المتاحة للإنسان اليوم لإطعام سائر البشر الطعام الواجب ، فكيف إذا

(١) يبلغ عدد سكان العالم اليوم ثلاثة آلاف مليون نسمة ومقدر أن يصبحوا عام ٢٠٠٠ ما بين خمسة آلاف مليون وسبعة آلاف مليون .

تضاعف عددهم ؟ لم تعد هذه بالمشكلة التى تهدد بنى الإنسان بعد أن وضع يده على هذه الطاقة اللانهائية من الاقتدار وما عليه إلا أن يحول ما ينفقه اليوم على آلات الخراب والتدمير ، إلى آلات الإنشاء والتعمير ، لكى تعم الوفرة بنى البشر جميعاً ، فلا يكون على ظهر الأرض جائع ولا عريان ، ولا أمى أو مريض[1] .

أى الطريقين :

وعلى الإنسانية اليوم أن تختار ، إما أن تسير فى طريق الندامة، طريق إفناء الحضارة بل والبشرية من أساسها ، وإما طريق السلامة ، طريق الخير والرفاهية والازدهار ، وأحسب أن بين هذين الطريقين لامجال للاختيار ، فإنما هو طريق واحد مفتوح للعقلاء بل وأنصاف العقلاء ، والمجانين أنفسهم ، وهو طريق السلامة .

ولا سبيل اليوم للسلامة ، إلا من خلال وحدة إنسانية شاملة ،

(١) ينفق العالم على التسليح سنوياً ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار ولكى يتصور الإنسان ماذا يعنيه هذا الرقم نضع أمامه الصورة الآتية :
إن تكاليف قاذفة قنابل واحدة نموذجية كاملة المعدات تكفى :
راتب لمدة عام لـ ٢٥٠,٠٠٠ مدرس .
أو ٣٠ كلية علوم فى كل منها ١٠٠٠ طالب .
أو ٧٥ مستشفى كامل المعدات فى كل منه ١٠٠ سرير .
أو ٥٠ ألف جرار أو ١٥,٠٠٠ ماكينة حصاد .
(رسالة اليونسكو العدد ٤٣)

فى ظل منظمة دولية تقر الأمن والنظام ، وتحافظ على كرامة الإنسان كل إنسان ، فى ظل الحرية والعدل والرفاهية والحب والوئام على أساس من القانون الذى يسنه بنو البشر أجمعون .

أما ما هو الطريق لذلك ، فهو ما أنا معنى بدراسته الآن واقتراح خططه وأساليبه ، وما أرجو الله أن يوفقنى إلى إتمامه فى القريب العاجل .



بعض تواريخ معالم الإنسانية

كما وردت فى هذا الكتاب

السنة	ص
١,٠٠٠,٠٠٠ ق.م. التاريخ المرجح لبدء العصر الحجرى	٢٥
٣٥,٠٠٠ ق.م. التاريخ المرجح للإنسان الأول	٢٥
٨,٠٠٠ ق.م. بدء العصر الحجرى المتوسط	٢٥
٥,٥٠٠ ق.م. بدء الحضارة على ضفاف النيل	٣٠
٤,٥٤١ ق.م. بدء استعمال التقويم الشمسى فى مصر	٢٩
٤,٠٠٠ ق.م. بدء العصر الحجرى النحاسى فى الشرق الأدنى	٢٥
٣,٠٠٠ ق.م بدء العصر الحجرى البرونزى	٢٥
٣,٠٠٠ ق.م. بدء حضارة	

السنة	ص
وادى السند كما كشفت عنها حفائر ماهو نجدار	٧٢
٢٩٠٠ ق.م. توحيد مصر كأول دولة فى العالم تحت زعامة مينا	٣٥
٢٧٥٠ ق.م. سرجون يؤسس أول امبراطورية فى بلاد ما بين النهرين	٤٩
٢٦٥٠ ق.م. بدء عهد إنشاء الأهرامات فى مصر	٣٠
٢٤٥٠ ق.م. بدء ازدهار الحضارة السومرية	٤٧
٢٣٠٠ ق.م. شعراء سومر يكتبون عن قصة الخلق والطوفان	٤٨
٢١٠٠ ق.م. عصر حمورابى الذهبى فى بابل	٥٠

السنة		ص
٢٠٠٠	ق.م. تحوتمس يشيد الامبراطورية المصرية	٦٠
١٣٥٨	ق م. دعوة أخناتون فرعون مصر إلى التوحيد وبناء عبادة الله على الحب	٦٠
١٢٠٠	ق.م. خروج بنى إسرائيل من مصر تحت زعامة موسى	٦٥
١٢٠٠	ق.م. التاريخ المحتمل لظهور العنصر الآرى فى الهند	٧٣
١٠٠٠	ق.م.دعوة زرادشت إلى عبادة إله النور فى بلاد الفرس	٦٨
٩٠٠	ق.م. التاريخ المظنون لتاليف هوميروس شاعر الإغريق لإلياذته عن حرب طروادة واليونان	٩٦
٧٥٣	ق م. بناء روميلوس لمدينة روما	١١٨
٦٦٨	ق.م. آشور بانيبال يؤسس الامبراطورية الآشورية على العنف وسفك الدماء	
٦٤٠	ق.م. بدء الفلسفة الإغريقية على يد طاليس	١٠١
٦٠٠	ق.م طواف الفينيقيين حول أفريقيا لأول مرة فى التاريخ	٥٦
٥٥٠	ق.م. ظهور بوذا فى الهند وانتشار تعاليمه	٨١
٤٦٧	ق.م. بدء عصر أثينا الذهبي تحت قيادة بركليس	١٠٣
٤١٩	ق.م وفاة كونفشيوس معلم الصين وبدء انتشار تعاليمه	٨٩
٣٣٤	ق.م. الإسكندر المقدونى يبدأ محاولته فى توحيد العالم	١١٠
٣٢٤	ق.م. أعظم عرس شهده التاريخ زواج الإسكندر وقواده وجنوده بالفارسيات	١١٢
٢٦٤	ق.م. ازدهار التعاليم البوذية فى الهند فى	

السنة		ص
	ظل امبراطورها أشوكا	٨٢
١٤٦	ق.م. انتصار روما النهائى على قرطاجنة وانتهاء الحروب البونية	١٢٠
٧٣	ق.م. قيام العبيد فى روما تحت زعامة سبارتكوس بأعظم ثورة شعبية	١٢٩
٤	ق.م. التاريخ المرجح لميلاد يسوع المسيح عيسى بن مريم	١٣٠
٣٢	م التاريخ المقدر لقيامة المسيح وصعوده إلى السماء	١٣٣
١١٠	م أول إشارة وردت فى كتب التاريخ القديمة للمسيحية	١٣٢
٣٠٣	م أمر دقلديانوس الشامل بذبح جميع المسيحيين فى الامبراطورية الرومانية	١٤٢
٣١٣	م اعتناق قسطنطين امبراطور الرومان للمسيحية	١٤٢
٣٢٥	م انعقاد مجمع نيقية لتقرير العقيدة المسيحية	١٣١
٣٣٠	م إنشاء مدينة القسطنطينية واتخاذها عاصمة للامبراطورية الرومانية	١٤٥
٤٧٥	م سقوط روما بيد القبائل المتبربرة	١٤٥
٥٢٧	م ازدهار امبراطورية الرومان الشرقية فى ظل جوستنيان	١٤٧
٥٧٠	م ميلاد محمد بن عبدالله	١٥٣
٦١٠	م بدء البعثة النبوية	١٥٥
٦٢٢	م الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة	
٦٣٢	م وفاة رسول الله وخلافة أبى بكر الصديق	١٦٢
٧٠٠	م قيام الدولة الاسلامية العالمية من حدود الصين إلى المحيط الأطلسى	١٦٣
٧١١	م طارق بن زياد يعبر جبل طارق لنشر رسالة	

السنة		ص
	الإسلام فى اسبانيا وأوربا	١٦٣
٧٢٦	م امبراطور بيزنطة « ليو » يشن حملة على التماثيل والصور المسيحية	١٨١
٧٣٢	أول هزيمة للمسلمين فى فرنسا فى موقعة بواتييه وتوقف موجة الحضارة	١٦٥
٧٨٦	م العصر الذهبي للدولة الاسلامية العالمية فى عهد هارون الرشيد فى بغداد	
٨٠٠	م المناداة بشارلمان امبراطوراً مسيحياً على كل أوربا	١٧٠
١٠٩١	م استيلاء النورمان على جزيرة صقلية من المسلمين وانتقال الحضارة الاسلامية بالتالى إلى أوربا عن هذا الطريق	١٩٤
١٠٩٥	م بدء الحروب الصليبية واستيلاء الصليبيين على	

السنة		ص
	بيت المقدس	١٧٤
١١٨٧	م انتصار صلاح الدين على الصليبيين فى موقعة حطين واسترداد بيت المقدس	١٧٧
١٢٩١	م انتهاء الحروب الصليبية بسقوط عكا آخر معقل لهم فى الشرق	١٧٥
١٢٩٣	م وفاة روجر بيكون أبو العلم الأوربى التجريبي الحديث	١٩٣
١٢٩٧	م عودة ماركو بولو من رحلته فى بلاد الخان الأعظم (الصين) وإلهابه خيال الأوربيين بكنوز الشرق	١٨٤
١٤٥٣	م سقوط القسطنطينية بيد محمد الفاتح	١٩١
١٤٨٨	م عصر الاستكشافات الجغرافية وطواف دياز حول رأس الرجاء الصالح	١٨٧
١٤٩٢	م سقوط غرناطة آخر معقل إسلامى فى الأندلس	١٨٦

السنة		ص
١٤٩٢	م إبحار كولومبس وعبوره المحيط الأطلسى واكتشافه أمريكا	١٨٨
١٥١٧	م دخول السلطان سليم إلى مصر وتقلده خلافة العالم الاسلامى	٢٠٦
١٥١٧	م بدء حركة الاصلاح الدينى تحت زعامة مارتن لوثر وقيام المذهب البروتستنتى فى مواجهة الكاثوليكية	١٨٠
١٥٦٤	م ميلاد شكسبير شاعر الانجليز	١٩٧
١٥٧٢	م وصول الاضطهاد الدينى إلى ذروته فى باريس بذبح البروتستنت (مذبحة سانت بارتلمى)	١٩٩
١٦٠٠	م وفاة « أكبر » أعظم أباطرة الهند المسلمين	٢٠٣
١٦٤٨	م إبرام صلح وستفاليا الذى أنهى الحروب الدينية فى أوربا واعترف باستقلال جمهوريتى سويسرا وهولندا	١٩٩
١٦٨٢	م وصول العثمانيين إلى أسوار فينا وارتدادهم عنها	٢٠٧
١٧٠٣	م دخول روسيا إلى حظيرة الدول الأوربية بإنشاء عاصمتها الجديدة بطرسبورج	٢٠٠
١٧٦٥	م اختراع جيمس واط أول آلة بخارية	٢١٥
١٧٧٦	م إعلان إتمام اكتشاف قارة استراليا على يد جيمس كوك	٢٠٦
١٧٧٦	م إعلان استقلال الولايات المتحدة عن انجلترا وتنصيب جورج واشنطون أول رئيس لجمهوريتها	٢١١
١٧٩١	م اندلاع نيران الثورة الفرنسية وسقوط الباستيل	٢١٢
١٨٠٧	م نجاح الشعب المصرى فى رد عادية الإنجليز بعد نجاحه فى إحباط	

السنة		ص
	حملة نابليون	٢١٨
١٨١٥	م إعادة تنظيم أوربا في مؤتمر فينا بعد حروب نابليون	٢١٤
١٨٢٣	م تحذير مونرو رئيس جمهورية الولايات المتحدة لدول أوربا من التداخل في شئون الأمريكيين	٢٢١
١٨٣٠	م شروع فرنسا في احتلال الجزائر	٢١٨
١٨٤٤	م إرسال أول برقية تلغرافية في أمريكا	
١٨٥٤	م ظهور الولايات المتحدة في آسيا بإرغامها اليابان على فتح أبوابها للتجارة	٢٢٢
١٨٦٥	م انتهاء حرب التحرير الأمريكية وإعلان ابراهام لنكولن إلغاء الرق	٢٢٤
١٨٧٠	م قيام الوحدة الألمانية تحت زعامة بروسيا العسكرية	
١٨٧٧	م المناداة بالملكة فيكتوريا ملكة انجلترا امبراطورة على الهند	٢١٧

السنة		ص
١٨٨١	م احتلال فرنسا لتونس	٢١٨
١٨٨٢	م احتلال انجلترا لمصر	٢١٨
١٨٩٦	م اختراع ماركوني للتلغراف اللاسلكي	٢٢٣
١٩٠٣	م بدء عصر الطيران	
١٩٠٤	م هزيمة روسيا الدولة الأوربية الكبيرة على يد اليابان الدولة الآسيوية	٢٢٣
١٩١١	م احتلال إيطاليا لليبيا	٢١٩
١٩١٢	م احتلال فرنسا لمراكش	٢١٩
١٩١٢	م نجاح الدكتور صان يات صن في إعلان إعلان الجمهورية الصينية	٢٤٧
١٩١٤	م إعلان الحرب العالمية الأولى	٢٣٤
١٩١٧	م نجاح الثورة الشيوعية في روسيا وقيام الاتحاد السوفيتي	
١٩١٨	م انتهاء الحرب العالمية الأولى وعقد معاهدة فرسايل	٢٣٦

السنة		ص
١٩١٩	م قيام الشعب المصرى بأول ثورة شعبية ضد القوة الغاشمة (الإنجليز) وسريان هذه الروح فى أرجاء العالم	٢٤٩
١٩١٩	م احتلال الإنجليز العراق وفلسطين والأردن والفرنسيين لسوريا ولبنان	
١٩٣٥	م احتلال إيطاليا لآخر دولة ظلت مستقلة فى أفريقيا وهى الحبشة	٢٤٠
١٩٣٩	م اشتعال نيران الحرب العالمية الثانية	
١٩٤٢	م اشتراك اليابان فى الحرب بمهاجمة الأسطول الأمريكى فى بيرل هاربور	٢٤٢
١٩٤٥	م صنع وإلقاء أول قنبلة ذرية على مدينة هيروشيما اليابانية	٢٥١
١٩٤٥	م انتهاء الحرب العالمية الثانية وإبرام ميثاق هيئة الأمم فى سان فرانسسكو	٢٥١

السنة		ص
١٩٤٧	م إعلان استقلال الهند والباكستان ثم توالى إعلان استقلال الدول الآسيوية	٢٤٨
١٩٤٩	م نجاح الثورة الشيوعية فى الصين	٢٤٨
١٩٥٢	م نجاح الجيش المصرى فى خلع الملك والقضاء على الإقطاع والرجعية فى مصر	٢٥٠
١٩٥٦	م جلاء الجيوش البريطانية عن مصر وتأميم شركة قناة السويس واندحار قوى العدوان الإنجليزى الفرنسى الإسرائيلى عن مصر وانتهاء عهد الاستعمار وبدء استعادة شعوب أفريقيا لحريتها	٢٥٠
١٩٥٧	م بدء عهد الفضاء بإطلاق الروس لأول قمر صناعى يدور حول الأرض	
١٩٧٠	م التاريخ المقرر لوصول الإنسان إلى القمر	

بعض مراجع الكتاب الخاصة

مرتبة حسب الحروف الأبجدية للمؤلفين

مهذب رحلة ابن بطوطة
تهذيب — أحمد العوامرى ومحمد أحمد جاد المولى ... ابن بطوطة
تاريخ الأمم والملوك ... ... ابن جرير الطبرى
فى موكب الشمس ... ... الدكتور أحمد بدوى
فى الإيمان والإسلام ... ... للمؤلف
من وحى الجنوب ... ... »
أمة تبعث ... ... »
علاقات العمل ... ... »
صلة الإسلام بالإصلاح المسيحى ... ... أمين الخولى
حول العالم فى ٢٠٠ يوم ... ... أنيس منصور
تطور الفكر الدينى فى مصر القديمة ... ... بريستيد
تاريخ مصر — ترجمة حسن كمال ... ... »
جيفرسون ـ الرئيس الفيلسوف ـ ترجمة الدكتور
محمد عبد المعز نصر ... ... برناود مايو
هكذا تحدث القرآن ... ... خالد محمد خالد
بين يدى عمر . . .. » » »
الكيان العربى ... ... عبد العزيز الدسوقى
فجر العرب ... ... » » »
حضارة مصر القديمة ... ... الدكتور عبد العزيز صالح

خطر اليهودية العالمية ... ... عبد الله التل
مع الإنسان فى الحرب والسلام ... ... فتحى رضوان
سباق التسلح ـ ترجمة حمدى حافظ ... ... فيليب نويل بيكر
التراث العلمى للعرب ... ... قدرى حافظ طوقان
حقوق الإنسان .. .. محمد شاهين حمزة
نور الله ... ... محمد صبيح
دائرة معارف القرن العشرين ... ... محمد فريد وجدى
الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ... ... الدكتور نظير سعداوى
جيش مصر أيام صلاح الدين ... ... » » »
تاريخ انجلترا ... ... » » »
الفلك العام ... ... سيرهربرت سبنسر جونس
رسالة اليونسكو عدد ٤٣ .. .. هيئة الأمم
» » ٤٧ ... ... » »
قافلة الزيت ... ... الدكتور هنرى رياض
قصة الجنس البشرى ترجمة ابراهيم زكى خورشيد ـــ
وأحمد الشنتناوى ... ... الدكتور هندريك فان لون
موسوعة تاريخ العالم ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة وليم لانجر
قصة الحضارة (عشرون مجلدا) ترجمة الدكتور زكى
نجيب محمود ومحمد بدران ... ... ول دورانت

مراجع عامة

القرآن الكريم
العهد القديم
انجيل متى
أعمال الرسل

مراجع أجنبية

Encyclopedia Britannica

Encyclopedia - Americana

The World Almanac

A Short History of the World. H. G. Wells.

Living Biographies of Religious Leaders By Henry Thomas and Dana Lee Thomas

A History of Europe. By A. Grant

The Discovery of India By Jowaharlal Nehru.

فهرس

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الحضارة الإغريقية

كتب للمؤلف

الكتب السياسية :

١ ــ إيمانى نفد
٢ ــ الأرض الطيبة »
٣ ــ وراء القضبان »
٤ ــ فى ظلال المشنقة »
٥ ــ الاشتراكية التى ندعو إليها »
٦ ــ قصة مصر (بالانجليزية طبعة نيويورك) »
٧ ــ رسالة إلى هتلر (بالانجليزية والعربية طبع نيويورك) »

كتب اجتماعية وعلمية :

٨ ــ الزواج والمرأة »
٩ ــ رسالة فى الحرب »
١٠ ــ رسالة فى المجد (العلم والاقتصاد) »
١١ ــ الطاقة الإنسانية
١٢ ــ فى الإيمان والاسلام
١٣ ــ تاريخ الإنسانية

كتب رحلات :

١٤ ــ مشاهداتى فى جزيرة العرب نفد
١٥ ــ يقظة العملاق (رحلة فى آسيا)
١٦ ــ أمة تبعث (رحلة فى الهند)
١٧ ــ من وحى الجنوب (رحلة فى جنوب السودان)

كتب قانونية :

١٨ ــ حكومة الوفد (مرافعة) »
١٩ ــ قضية مقتل النقراشى (مرافعة) »
٢٠ ــ علاقات العمل
٢١ ــ مجموعة تشريعات العمل »
٢٢ ــ قضية التحريض على حرق مدينة القاهرة »

مسرحيات :

٢٣ ــ من الحياة ــ مسرحيتان من ذات الفصل الواحد
٢٤ ــ نور يسطع فى الظلام (مترجمة عن تولستوى)

القصة الطويلة :

٢٥ ـ ازهار (قصة مصر قبل الحرب العالمية الثانية)

٢٦ ـ الدكتور خالد (قصة مصر خلال الحرب العالمية الثانية)

تحت الطبع

الأمة الإنسانية

بحث علمي مستفيض في وحدة الجنس البشري ووحدة مصلحته ووحدة مصيره.

تحت التأليف

واحترقت القاهرة

الحلقة المتممة لقصتي أزهار والدكتور خالد .

للمؤلف:

الطـاقة الإنسانية

الـكتاب الذى أطلق عليه عميد الفـكر والأدب الراحل عباس محمود العقاد أنه « كتاب الموسم » الذى يقرأ فى كل زمان ومكان لاتصاله بسر الانسان . وقد أعيد طبعه قبل انقضاء عام على صدوره .

أزهـار

القصة الوطنية التى أحدثت رجة فى الأوساط الأدبية والفنية وأجمع النقاد على أنها أعظم قصة أصدرتها المطابع فى الحقبة الأخيرة ، وقد قامت الإذاعة المصرية بإذاعتها على تسلسل حلقات فى أغسطس عام ١٩٦٤ .

الدكتور خالد

الحلقة الثانية من قصة أزهار ، والتى انعقدت لها أكبر ندوة من النقاد والأدباء فى جمعية الأدباء ، فأجمعوا على أنها مع أختها أزهار تؤلف حدثا فى تاريخ الفن والأدب .

فى الإيمان والإسلام

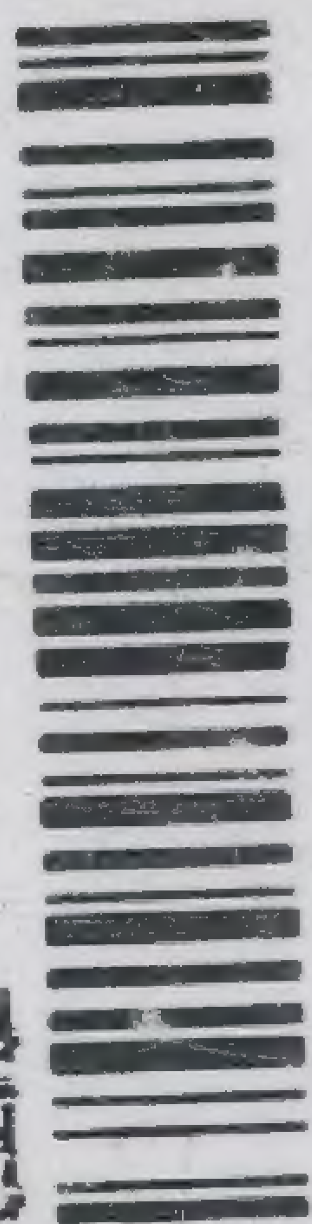
الـكتاب الذى نفدت طبعته الاولى بمجرد صدورها ، فأعيد طبع الـكتاب والذى يلخص تاريخ الاديان والعقائد ويحدد مكان الاسلام منها .

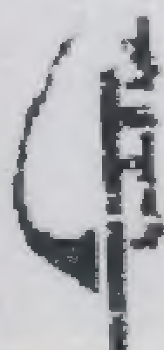
مطابع دار القلم

هذا الكتاب

- قد وجدنا من المؤلفين الغربيين من حاول أن يلخص تاريخ الانسانية منذ بدء الخليقة حتى اليوم فى كتاب واحد مختصر وعلى رأس هؤلاء وأشهرهم الفليسوف الانجليزى هـ.ج. ويلز .
- ولكنا لا نعرف فى تاريخ العربية قديمها وحديثها ، أن كاتبا عربيا حاول أن يقوم بهذا الجهد من وجهة النظر العربية ، فيصوغ تاريخ الانسانية فى مثل هذا الحيز المحدود الذى نقدمه اليوم لقراء العربية .
- واذا صدق ما قيل من أن كتابة التاريخ فن ، فلا شك أن المشكلة الكبرى التى واجهت المؤلف وهو يضع هذا الكتاب لم تكن فيما يكتبه من الحوادث والوقائع والأسماء ، بقدر ما كانت فيما يغفله منها ، دون أن يكون فى هذا الاغفال اخلال بالصورة العامة لسير التاريخ الانسانى فى تدفقه .
- والتاريخ الانسانى عند المؤلف ، ليس هو تاريخ الحروب والثورات والفتن ، وليس هو فى قيام الدول وسقوطها ، وسير الغزاة ومشعلى نيران الحروب ، ولكنه تاريخ العقائد والأفكار والعلوم التى أبدعت الحضارة الانسانية مؤلفة منها تيارا انسانيا واحدا ونهرا جاريا من المعرفة .
- وسيرى القارىء أن المؤلف قد وفق كل التوفيق فى تحقيق الهدف الذى يصبو اليه من اظهار وحدة التاريخ الانسانى ، حيث يدين المؤلف بوحدة الجنس البشرى على اختلاف ألوانه وعقائده وقومياته ، ويؤمن بأن مصير العالم قد أصبح مرتبطا بقيام نظام عالمى شامل ، ينعم بنو الانسان جميعا فى ظله بالأمن والحرية والمساواة فى تكافؤ الفرص .

دار القلم





١٩٦٥

ص
٤٠